جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة والاعلام

أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - ابريل ١٩٦٩

الجزء الثالث



مطبعة دار الكتب

١٩٧١

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة والاعلام

أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - ابريل ١٩٦٩

الجزء الثالث



مطبعة دار الكتب

١٩٧١

حاضر الأزهر بعد أمسه

د. محمد البهي

(١) هل كان علمـــاء الأزهر فيما قبـــل نهاية القرن التاسع عشر أكثر حرية فى الرأى وأبعد تأثراً فيه بالسياسة المحلية وأشد اتصالا برسالة الإســلام فيما يصدرون من فتاوى منهم منذ بداية القرن العشرين ؟

(٢) هل ارتبط علماء الأزهر منذ القرن العشرين فى آرائهم بالسياسة المحلية المصـــرية ؟

(٣) هل كان لفتاواهم حتى نهاية القرن التاسع عشر صدى عالمى ، وكان لرأيهم منذ بداية القرن العشرين قيمة محلية فحسب ؟

(٤) هل كان الأزهر فيما قبل نهاية القرن التاسع عشر قوة موجهة ، وأصبح منذ نهاية القرن العشرين هيئة تتلقى التوجيه ؟

(٥) هل كان الأزهر قبل نهاية القرن التاسع عشر مؤسسة دينية إسلامية ، وأصبح منذ بداية القـــرن العشرين معهداً للتثقيف والتعليم يقترب من الروح العامة للبحث والدراسة ، بقدر ما يبتعد عن الإيمان والتعبير عنه ؟

(٦) هل يختلف الوضع الاجتماعى لعلماء الأزهر فيما قبل بداية القرن العشرين عنه فيما بعد ذلك ؟

(٧) هل أصبح علماء الأزهر منذ القرن العشرين يستكتبون ما يراد أن يكتب لأصحاب السلطة ، ويقولون ما يراد منهم أن يقال لهم ، بعد أن كانوا قبل ذلك يملون الكلمة عليهم ، ويقيمون القول الصادر منهم باسم الإسلام وحـــده ؟

(٨) هـــل هو تأثير « العلمانية » فى نظام الحكم المحلى بمصر أو هو تأثـــير الارتباط فى المـــال ، والإنفاق على الأزهر من الحكومة هو السبب فى التحول والتبدل ؟

* * *

هذا البحث القصير يجيب عن هذه الأسئلة وأمثالها .

حاضر الأزهر بعد أمسه

د. محمد البهى

الأزهر إلى بداية القرن العشرين :

قام الأزهر كمسجد للشعائر الدينية فى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) فى عهد الفاطميين ، ثم أضاف إلى رسالة الشعائر التى تؤدى فيه رسالة الدعوة الإسلامية كمؤسسة للتعليم الإسلامى :

وعنى فى أول أمر هذه الرسالة الثانية باتجاه المذهب الفاطمى والشيعة على العموم [(١)] :

ثم تحول فى عهد الأيوبيين — عندما وضع صلاح الدين الأيوبى نهاية الدولة الفاطمية واستقل بمصر [(٢)] — إلى العناية باتجاه المذهب السنى ، ولم يزل حتى الآن. ومن أجل ذلك تعتبر القاهرة مركزاً للاتجاه السنى فى العالم الإسلامى :

وعندما تم بناؤه حبست عليه من المتبرعين الخيّرين بعض مصادر الثروة للإنفاق على شئون التعليم فيه — سواء ما يتعلق بالمدرسين أو بالطلاب — ليظل بعيداً عن الإنفاق الحكومى ، وبالتالى بعيداً عن سياسة الحكومة القائمة — وبذلك يكون مستقلا ويكون علماؤه مستقلين فيما يعلنونه من رأى ينسبونه

---

(١) فى المدة من ٣٦١ — ٥٦٧ هـ (٩٧٢ — ١١٧١ م) .

(٢) فى المدة من ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ (١١٧١ — ١٢٥٠ م) .

إلى الإسلام ، أو من موقف يتخذونه إزاء حدث من الأحداث فى أى مجتمع من المجتمعات الإسلامية .

استقلال الأزهر فى الرأى ظاهرة الأمس :

والأزهر — لقيام التعليم فيه على أساس من الدين — ليس كأية مؤسسة تعليمية أخرى تنشد الثقافة الإنسانية ، والمعرفة التى تلقى فيه معرفة دينية ، يجب الاحتياط فى التعبير عنها ، وفى توثيق مصادرها .

ولذا كانت أهم فروع المعرفة فيه هى : الفقه ، وتفسير القرآن ، والحديث ، وعلم التوحيد ، وما يساعد هذه الدراسات من علوم أخرى وهى : علوم اللغة ، وأصول الفقه ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامى .

ومن وسائل الاحتياط فى التعبير عن الرأى لعلمائه ، وضمان استقلاله وعدم خضوعه لميل سياسى معين تمليه جهة لها نفوذ عليه ، كان تمويل الحركة التعليمية فيه — من مصادر الخير ، وهى الأوقاف التى تحبس على الخير العام ، يتنازل عنها أصحابها بغية رضاء الله وتقرباً إليه .

وفى مقدمة مفهوم الخير فى نظر الواقفين : العناية بالدعوة الإسلامية تعليما ونشراً ، وكان كل وقف يخصص مصرفه للتعليم الإسلامى ينظر عليه « شيخ الأزهر » من قبل صاحب الوقف ، ضماناً لصرف الريع فيما خصص له ، وهو : « التعليم » ورعاية الدعوة الإسلامية .

وكان شيخ الأزهر هو الراعي لشئون تعليم الدين فيه ، والدعوة الإسلامية كما كان هو الناظر على أوقاف المسلمين الخيرية على الدين .

وكان علماء الأزهر وطلابه يعيشون فى ظل هذا الاستقلال ، يرعون فقط شيئاً واحداً فحسب — وهو دين الله وتعاليمه ، درساً وبحثاً ، وتعليما

ونشراً ، محافظين فى أقوالهم — باسم الإسلام — على أن يجنبوا أنفسهم — بقدر ما يمكن — الخضوع تحت تأثير أى مؤثر خارجى أو داخلى :

ومن باب الاحتياط ، وإبعاداً لكل شبهة تأثير ، كانوا يختمون مايتحدثون عنه ، أو يفتون به بقولهم : « والله أعلم » .

واحتياطهم فى الرأى والحديث عن الإسلام إلى هذا الحد كان سبباً رئيسياً فى تمسكهم بأقوال السابقين فى كتبهم ، وفيما أثر عنهم من أقوال : وجرهم هذا « للتقليد » والحرص عليه إلى درجة : أنهم أصبحوا يناوئون «الاجتهاد» والاستقلال فى الرأى عن السابقين قبلهم ، فيما تركوا من آراء فقهية ، رغم دعوة محمد بن تيمية — علماء المسلمين جميعاً ، إلى أن يتصلوا اتصالا مباشرا بالقرآن ، دون أن يقفوا عندما اجتهد فيه السابقون ممن قبلهم . ولذا كان لا يروق فى نظرهم قول ابن تيمية هذا ، ويعده الكثير منهم خارجاً على أقوال الأئمة الأربعة :

وتبعاً لهذا التقليد دارت دراساتهم ، وبحوثهم ، وفتواهم فى الكتاب الذى ألفوا الرجوع إليه ، والنقل عنه .

وأصبح الكتاب المؤلف فى المادة المعينة عماد التعليم ، و مصدر الفتوى والرأى ، وإن استبدل بآخر فى مادته ، فاما بكتاب موجز أومطول .

ولذا لم تنل الإصلاحات العديدة التى أدخلت على برامج التعليم فى الأزهر فى الكتاب التقليدى : لا فى وضعه ، ولا فى قيمته ، ولا فى الاحتفاظ به .

والدراسة إن قامت أول عهد الأزهر بالتعليم الدينى على أساس كتاب ، يتلوه كتاب آخر فى مادة سابقة ، ويتلوه كتاب ثالث أو رابع أو خامس ، فى نفس المادة بعده ، فان التغيير — بسبب « التقليد » — الذى كان يطرأ فىعهد الإصلاح لمناهج التعليم فيه فى فترة من فترات الإصلاح ، كان لاينال

من « الكتاب » ولا من ترتيبه فى السبق ، أو فى البعدية — وإنما كان يتنـاول الزمن ، وتقسيمه إلى مراحل ابتدائية وثانوية وعالية ، تدرس فيها نفس الكتب التى عهدت دراستها قبل الإصلاح ، وعلى نفس النمط الذى كان لها أولاقبل المراحل الدراسية ، التى قسمت حسب الزمن .

وعلى أية حال : إذا التزم علماء الأزهر فى أمسه رأى الكتب التقليـدية فى التعبيرعن مبادئ الاسلام وحكمه فى شئون المسلمين ، فانهم لم يقعوا — عن طريق استقلالهم فى تمويل التعليم ، والنشاط الدينى داخله وخارجه — تحت تأثير اتجاه سياسى محلى أوعالمى :

وكانوا بالأحرى « أحراراً » فيما يقولونه باسم الإسلام فى تكييف الأحداث وفى الحكم عليها ، وفى تصرفات المسلمين حكاماً ومحكومين على السواء :

وبذلك كانت لهم :

مواقف ضد الظلم فى الداخل ،

كما كانت لهم أخرى ضد الاستعمار الأجنبى من الخارج .

كما كانت لبعض الشخصيات الأزهرية فى أمسه — على عهد استقلاله — آراء حفظت كيان الأمة المصرية من أن تعصف بها عواصف الظلم والاستبداد، مما كان يمارسه حكام مصر على عهد المماليك ، أو على عهد العثمانيين سواء .

ثم كانت للأزهر ولرجاله تلك المواقف المشهورة فى وجه الغزاة الفرنسيين على عهـد نابليون ، وضد الاحتلال البريطانى فى فتراته المختلفة ، وبالأخص فى ثورة ١٩١٩ ميلادية ، مما يجعل كل مسلم فى الداخل والخارج يتـذكر استقلال الأزهروفاعليته باسم الإسلام ، وعلى أسس من مبادئه ، ثم يستخلص قيمته فى دعم كيان الأمة ، والحفاظ على روح العـدل فيها ، فى الوقت الذى صان فيه تراث الأمة فى ثقافتها ، وروحيتها ، ولغتها العربية .

وهنا بعض النماذج التى تصور مدى استقلال الأزهر ، واستقلال علمائه فيما أبدوه من آراء تمس حياة الأمة فى عهودها المختلفة ، وعلى أساس منها ، تقى الأمة نفسها من الضياع أو من الذوبان ، أو من قبول المذلة والضيم ، كما أراد لها بعض حكامها ممن وفدوا عليها من هنا وهناك :

ا — ذكر الجبرتى فى تاريخه أن الشيخ محمد بن سالم الحنفى الشافعى[١] قطب رحى الديار المصرية — لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته . وكان فوق هذا عضواً فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع جماعة من إخوانه تمثيلا رائعاً ، حتى كان على بك الكبير[٢] على شدته وقوة ملكه — لا يستطيع مقاومته ولا معاداته ، وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته : فقد وقف مرة يناقش فى أمر إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد ، وكان رأى الشيخ أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، ولم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلا : « والله لن نسمح أن يسافر أحد ، وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً » :

ب — وتشتد وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس سنة ١٧٩٥ م فى تحصيل الأموال ، وتلفت الفلاحون إلى ملاذهم ، والتجأوا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى[٣] ، ورجوا الشيخ ليحميهم من هذا الظلم ، فبدأ الشيخ بمخاطبة مراد بك وإبراهيم[٤] بك ليكف الأمير الظالم عن ظلمه وغشه ، ولما لم يجد

(١) تولى مشيخة الأزهر سنة ١٧٥٧ م .
(٢) استقل بأمر مصر سنة ١٧٦٦ م .
(٣) ولى مشيخة الأزهر (١٢٠٨ — ١٢٢٧ هـ) .
(٤) من زعماء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر .

الشيخ لمسعاه أثرا فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا الناس إلى الثورة ، وكانت النفوس مستعدة لدعوته ، فاجتمع له كثيرون من أهل القاهرة ، ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة ، وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف ، والناس مصرون على أن يقفوا الحكام عند حد العدل والحق ، أو يواصلوا الجهاد ، وإن أدى ذلك إلى إراقة الدماء ، وبذل الأموال والأنفس ، فرأى كبار الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لاقبل لهم به ، فذهبوا إلى بيت إبراهيم بك واجتمعوا به هناك ، وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات والشيخ النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير[1] ودار الكلام بينهم ، وطال الحديث ، وانتهى الأمر بأن أعلن الأمراء أنهم تابوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . وانعقد الصلح على شروط كتبها العلماء فى وثيقة يمكن تسميتها بالوثيقة الاجتماعية أو الوثيقة السياسية ، وقد تضمنت أن الأمراء يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ، ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم القانون والعرف من صرف الأموال على مستحقيها ، وإرسال غلال الحرمين إليهما ، ورفع الضرائب المستحدثة ، ويكفون أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يسيروا فى الحكم سيرة حسنة ، وكان القاضى حاضراً فى المجلس فوثق ذلك ، وانجلت الفتنة ، ورجع المشايخ وحولهم وأمامهم وخلفهم جملة من العامة ، فرحين بالنصر الكبير[2] .

فلم يكتف العلماء بالنقد والنصح حينما انحرف الأمير ، وإنما انتهجوا منهجاً علمياً يقوّمون به المعوج ، ويرجعون به الحق إلى نصابه .

---

(١) وكلهم من كبار رجال الأزهر .

(٢) راجع تاريخ الجبرتى ج ٢ ص ٢٥٨ .

ج- ويروى الجبرتى أيضاً[١] أن ثورة أخرى قامت من الأزهر بقيادة الشيخ الدردير[٢]، وتتلخص وقائعها فى أنه سنة ١٢٠٠ هـ نهب حسين بك شفت[٣] وجنده داراً بحى الحسينية لشخص يدعى أحمد سالم الجزار، وقد أثار هذا ثائرة الأهالى فاتفقوا على الالتجاء إلى الشيخ الدردير، وكان من أقوى العلمـــاء شخصية، وأوسعهم نفوذاً، وفى اليوم التالى لهذا الحادث اجتمع فريق من الأهالى، وقصدوا شطر الأزهر، وأخبروا الشيخ الدردير بما حدث، فأثار النبأ الشيخ الذى عبر عن استيائه لاستهتار الأمراء بمصالح الشعب، وتعسفهم فى معاملته، وأعلن فى الجماهير انضمامه إليهم، وأمر بدق الطبول على منارات المســجد، (إيذاناً بالاستعداد للقتال)، وأسرع الأهالى نحو الأزهر، وعولوا على النضال، ولمـــا اتصلت أنباء تجمع الجماهير الثائرة بمسامع إبراهيم بك، وبلغــه تصميم الشيخ الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء خشى أن يستفحل هــذا الخطر ويفقد بذلك ما يتمتع به من نفوذ فى مصر، فأوفد نائبه فى صحبة أحد الأمراء إلى الشيخ الدردير يعــبرون له عن أسف الأمير لمــا حدث، كما قرر الأمير لوم حسين بك شفت، وأمره برد ما نهبه إلى صاحبه.

د- وعندما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة حكم الطاغيتين: مراد بك وإبراهيم بك بقيادة القبودان حسن باشا، ذعر مراد بك وإبراهيم بك، خوفاً من أن ينتهز الشعب هــذه الفرصة ليثور على حكمهما، فحاول المماليك التقرب إلى العلماء زعماء الشعب، والتذلل لهم: يقول الجــبرتى[٤]: «فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ثم الشيخ العمروسى ثم الشيخ الدردير،

---

(١) راجع تاريخ الجبرتى جـ ٢ ص ١٠٣.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوى الشهير بالدردير (١١٢٧ - ١٢٠١ هـ).

(٣) أحد أمراء العثمانيين.

(٤) تاريخه جـ ٢ ص ١١٨.

وصار يبكي لهم ، وتصاغر فى نفسه جداً ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه ، أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جداً .

هـ — ويتطلع الشعب إلى العلماء لإنقاذهم من ظلم الوالى التركى خورشيد بك[1] وظلم جنوده ، ويقود الحملة السيد عمر مكرم[2] ، واتفقت الكلمة على عزل خورشيد ، وتولية محمد على عليهم بشروطهم ، وبأن ينزل على مشـورة العلماء ، وولاه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى سنة ١٨٠٥ م ، وحاصر عمر مكرم القلعة على خورشيد باشا ، وأعلنه بالعزل ، فقال له خورشيد باشا : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولو الأمر العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . فقال خورشيد « وليت بأمر الخليفة فلا أعزل بأمر الفلاحين » فقال عمر مكرم : للناس أن يعزلوا الحاكم الظالم ، وأن يخلعوا حتى الخليفة إذا سار فيهم للجور . وحسم السلطان الأمر باصدار فرمان فى سنة ١٨٠٥ يتضمن تثبيت محمد على فى الولاية على مصر ، حيث رضى العلماء والرعية ، وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » .

و — ويقـود الأزهر الشعب لمقاومة الغزو الفرنسى ، حينما جاء نابليون إلى مصر ، ويقتل طالب أزهرى هو سليمان الحلبى[3] القائد الفرنسى « كليبر » فأعدم الحلبي مع أربعة من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالمـاً من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ حرضوا الناس على الثورة وقادوا المظاهرات احتجاجاً على الغزو الفرنسى

---

(١) فى نهاية القرن التاسع عشر .

(٢) (١٧٥٥ — ١٨٢٢) .

(٣) طالب سورى كان يدرس بالأزهر واغتال القائد الفرنسى « كليبر » سنة ١٨٠٠ م .

كما قاد السيد عمر مكرم الشعب ضد حملة « فريزر » لصد الغزو الإنجليزى لمصر[1] ، وحشد السيد عمر مكرم المقاومين ، وأقام الاستحكامات الدفاعية ، وحفر الخنادق حول القـــاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة ، حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ، ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحياناً يشاركهم إقامة هـــذه الاستحكامات ، فيثير فيهم الحماس والوطنية ، وحب الاستشهاد فى سبيل الله والدفاع عن الوطن ، حتى باءت حملة « فريزر » بالفشل ، ورجعت بالخسران :

ز ـ ويعتذر شيخ الإسلام زكريا الأنصارى[2] عن منصب قاضى القضاة ، حينما عرضه عليه الحاكم قايتباى ، فأبى الأنصارى ، وألح قايتباى ، وقال للشيخ : إن أردت نزلت ماشياً بين يديك أقود بغلتك إلى أن أوصلك إلى بيتك «مسترضيا الشيخ » . وهنا قبل الشيخ المنصب على كره منه ، وحدث أن أعسف قايتباى مع الشعب ، فلم يرحمه الشيخ من اللوم والتأنيب والتعنيف الشديد ، مع أنه هو الذى ولاه ، وقال له :

« أيها الملك ، ثب لنفسك ، فقد كنت عدماً فصرت وجوداً ، وكنت رقيقـــاً فصرت حراً ، وكنت مأموراً فصرت أميراً ، وكنت أميراً فصرت ملكاً ، فلما صرت ملكاً تجبرت ونسيت مبدأك ومنتهاك[3] » .

* * *

الأزهر منذ بداية القرن العشرين :

ابتدأت فاعلية الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ م مع بداية القرن العشرين ، فيما يتعلق بالأزهر وأداء رسالته ، فالبريطانيون احتلوا مصر الآن لصالح مصانع

(١) سنة ١٨٠٧ .
(٢) (٨٢٣ - ٩٢٦) .
(٣) وردت القصة فى الكواكب السائرة ص ١٩٦ .

النسيج فى « لانكشير » ، ولا ينسون دور الأزهر فى مقاومة الغزو الفـــرنسى فى عهد نابليون Napoleon Bonaparte (١٧٦٩ — ١٨٢١) حينما احتل مصر فى غزواته فى الشرق والغرب ، ولذا ركزت السياسة البريطانية فى التعليم على أمرين :

أولا : على ازدواج التعليم فى مصر ، بعد فصل التعليم فى الأزهر عن التعليم فى الدولة . وقد كان نمـــط التعليم فى الأزهر إلى عهد محمد على هـــو النمط الوحيد أو الأصيل ، كما كان التعليم فى قرى مصر جميعها مؤهلا فقـــط للالتحاق بالأزهر والتخرج فيه .

وعلى أساس من ازدواج التعليم يصبح هناك دينى فى الأزهر ، وآخر غير دينى أو علمانى .

ثانياً : على إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله ، وإلحاقه بجهة حكومية ، حتى يكون للإدارة القائمة فى مصر فى عهد من العهود إشراف على التعليم فيـــه ، وعلى توجيه رجاله بقدر ما يمكن ، فيما يعلنونه من آراء وفتاوى باسم الإسلام ، ضماناً للوجود البريطانى ، أوللوجود الأوربى على الأقل ، وهو وجود رأسمالى فى اقتصاده ، وعلمانى فى سياسته ، ومسيحى فى إيمانه ، وإن لم يكن إيمـــانا كنســـياً .

أما الأمر الأول فقد سارت فيه حكومة الاحتلال البريطانى فى مصر خطوات واسعة ، حتى أنها عمدت إلى نمط التعليم الأزهرى ، وأنشأت بعض المؤسسات التعليمية التى تنافس الأزهر فيه ، فأنشأت مدرسة القضاء الشرعى ، ومدرسة دار العلوم ، الأولى لتخريج قضاة فى المحاكم الشرعية ، والثانية لتخريج معلم اللغة العربية فى مدارس وزارة المعارف الابتدائية والثانوية ، ثم قصدت كذلك إلى التعليم فى القرى فأنشأت « المكاتب الراقية » تتبع وزارة المعارف بجانب

« الكتاتيب » التى كانت تؤهل لحفظ القرآن الكريم ، وتعد الحافظين فيها إلى الالتحاق بالأزهر . ولكى تعد معلما غير أزهرى لهذه المكاتب الراقية أنشأت مدارس المعلمين الأولية ، وهى تنافس مرحلة التعليم الابتدائى فى الأزهر .

والحجة فى إنشاء هذه المدارس التى تنافس الأزهر فى مراحل تعليمه المختلفة كانت تطوير صاحب الثقافة الإسلامية ، وجعله صالحاً لتولى الوظائف الحكومية فى الدولة . لأن الأزهرى — وهو صاحب ثقافة إسلامية — يرتبط فى طريقة تعليمه وتعلمه بما يجعله غير صالح لنقل المعلومات الإسلامية إلى تلاميذ فى مستويات مختلفة من القدرة على الفهم والتفكير ، بجانب أنهم لا يحفظون القرآن الكريم ، وهو الأساس الذى تدور عليه الثقافة فى الأزهر .

وتبدو هذه الحجة فى ظاهرها مقنعة ، ولكن الغرض الأصيل لسياسة الاحتلال البريطانى فى التعليم فى مصر ، هى إضعاف الأزهر بخلق منافس فى مجال تعليمه . بجانب المنافس الآخر وهو صاحب التعليم غير الدينى والعلمانى أو التعليم المدنى ، وتبعاً لهذه السياسة التعليمية فى عهد الاحتلال البريطانى فى مصر انقسم المجتمع المصرى فى التوجيه إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : صاحبة التعليم فى الأزهر .

والطائفة الثانية : الطائفة المنافسة للأزهر فى الثقافة الإسلامية ، وهى التى تتخرج من مدارس القضاء الشرعى ، ودار العلوم ، والمعلمين الأولية .

والطائفة الثالثة : وهى صاحبة التعليم « اللادينى » والعلمانى أو المدنى ، وهى التى تتخرج من مدارس وزارة المعارف .

وأخذت الانفصالية بين هذه الطوائف الثلاث فى المجتمع المصرى تلعب دورها فى الخصومة والتنابذ بينها بالألقاب ، كما أخذت رواسبها تؤدى أثرها فى المجتمع ، وفى تحديد « النظرة » التى تنظر بها كل طائفة .

فبينما الأزهريون ينظرون إلى من عداهم من الطائفتين الأخيرتين بنظرة تقوم على عدم الرضاء ، كما تقوم على التوجس منهم — إذا بهاتين الطائفتين معا تنظران إلى رجال الأزهر على أنه ينقصهم عنصر الملاءمة مع الحياة المعاصرة ، وأنهم من أجل ذلك يعيشون بتفكيرهم مع الماضى وحده ، وهم عندئذ « رجعيون » .

وبينما طائفة التعليم المدنى تنظر إلى الأخرى المنافسة فى الثقافة الإسلامية للأزهر ورجاله على أنها لم تبلغ مبلغ ما وصلت إليه هى ذاتها من « التجديد » وبذلك فهى لا تختلف كثيراً عن طائفة الأزهريين : إذا بالطائفة المنافسة فى الثقافة الإسلامية لا تنظر بعين البغض والكراهية إلى « تجديد » العلمانية أو المدنيين ، ولذلك بقدر ما تبتعد عن الأزهر ورجاله فى أسلوب الحياة والتفكير تقترب من المجددين فى مسعاها ، وفى خط تفكيرها :

وهكذا وصل الاحتلال البريطانى إلى نقل بعض النشاط الفكرى للمصريين من معارضته هو إلى معارضة كل طائفة ومخاصمتها للأخرى ، وتحققت بذلك حكمته القائلة :

« فرق تسد » : والتفرقة فى الثقافة والتوجيه هى أخطر ضروب الفرقة .

كما ابتدأ الاحتلال البريطانى ينتفع بهذه الفرقة عن طريق تقريب البعض من المتعلمين فى مصر إلى اتجاهه فى السياسة والفكر والثقافة .

و « التجديد » الذى ظهرت موجته بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فى مصر ، وتجلى بعد قيام الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٥ م ، ووصل إلى قمته بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، كما ظهر فى كتاب « تجديد الثقافة فى مصر » — يرجع إلى سياسة الاحتلال البريطانى فى التعليم فى مصر — أكثر مما يرجع إلى تقدير الفكر الغربى نفسه ، وإلى قيمة السياسة الغربية فى مصر ، وفى غيرها من البلاد التى احتلت فى إفريقيا وآسيا .

أما الأمر الثانى : وهو إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله ، وإخضاعه إلى جهة حكومية فى الإدارة المصرية ، فان الاحتلال البريطانى — وهو صورة من صور السياسة الأوربية الغربية — له خبرة بموقف « الكنيسة » من «الدولة» فى الغرب ، وهو موقف لا تملك فيه الدولة هناك أن تملى رأيها السياسى على الكنيسة ، لا بسبب منزلة الكنيسة فى نفوس التابعين لها وسيطرتها عليهم سيطرة تمكنها من « الانتقام » ممن يخرجون عليها من هؤلاء الأتباع ، ولكن بسبب رئيسى آخر ، وهو : استقلالها فى التمويل والإنفاق على رسالتها من أموال تملكها ، وتشرف عليها إشرافاً مباشراً أو غير مباشر :

وهذه التجربة للاحتلال البريطانى أراد أن يفيد منها فى إضعاف مقاومة الأزهر لسياسة الحكومة المصرية التى تخضع لتوجيهه ،إن لم يستطع القضاء عليها تماماً ، وهنا فى سنة ١٩١٥ بعد إعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وبعد قيام الحرب العالمية الأولى ، رأى المستشار المالى للحكومة المصرية — وهو من رجال سلطة الاحتلال — أن يقوم بتجربة مثيرة فى مجال الأوقاف الخيرية المرصودة على التعليم فى الأزهر ، أو التى يتنظر عليها شيخ الأزهر ، فأرسل إلى شيخ الأزهر يعرض عليه مساعدة الحكومة المصرية المالية بدعوى تحسين « الوضع المالى لعلماء الأزهر » ، واقترح أن تقدم وزارة المالية المصرية كل عام ما يحتاجه الأزهر من مال ، على أن تقوم الوزارة منذ هذا العام ، وهو عام سنة ١٩١٥ بتقديم مبلغ خمسة آلاف جنيه ، بدلا من الثلاثة آلاف التى أتت بها حصيلة أوقاف الأزهر ، على أن تزيد الوزارة كل عام بمقدار الحاجة التى يراها شيخ الأزهر ، وفى مقابل ذلك تشرف الحكومة المصرية على أوقاف الأزهر ، ضماناً لحصولها على الريع الذى تأتى به :

ومنذ ذلك الوقت ابتدأ يضمحل استقلال الأزهر ، وتقوى التبعية للإدارة الحكومية ، والتوجيه السياسى للحكومة ، كما ابتدأ الأزهر يعنى أصحاب

الرأى فيه . ويخرج جيلا جديداً تتبعه أجيال أخرى فى الإمعان فى التبعيـــة السياسية ، يصغى للسياسة وتوجيهها فيما يبديه علماؤها من فتاوى وآراء باسم الإسلام ، والاستناد إلى مبادئه :

وكانت ثورة ١٩١٩ م الوطنية تكاد تكون آخر المواقف الأزهرية التى تميز بها عهد استقلال الأزهر ، والتى وقف فيها مواقفه المشهورة ضد الاحتلال البريطانى ، والحماية البريطانية ، وضد الغزو الأجنبى أو الظلم على العموم ، ويكاد كذلك يكون المغفور له الشيخ عبد المجيد سليم آخر شيوخ الأزهر الذين أثر فيهم وفى آرائهم عهد استقلال الأزهر إلى درجة كبيرة ، وما ينسب إليه من تصريح « تقتير هنا ، وإسراف هناك » فى مواجهة سياسة الملك فاروق فى الداخل بين الطوائف المختلفة ، وفى الخارج فى العبث والمجون ، وقد كان بجزيزة « كابرى » فى ذلك الوقت بايطاليا — أمر معروف :

وكذلك فتواه المشهورة بتحريم مراقصة الأجنبية ، وقد قصد بهـــا أيضاً الملك فى تردده على « أوبرج الأهرام » بالجيزة :

الاستغلال السياسى الحزبى للأزهر :

ومنذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ م من جانب بريطانيا باستقلال مصر وإعلان الملك فؤاد دستور ســـنة ١٩٢٣ ، وتكوين الأحزاب السياسية على أساس منه لممارسته الحياة البرلمـــانية التى كانت للغرب يومذاك ، أخـــذت السياسة الحزبية — سواء سياسة الأحزاب أو سياسة القصر — تقترب من الأزهر، كى تستغل سمعته العالمية ومكانته فى مصر ، ومواقفه التاريخية فى السياسة المصرية ، وأصبح هناك تصارع بين الأحزاب السياسية : الوفد ، الأحرار الدستوريين ، والحزب الوطنى ، ثم فيما بعد دخل معها حزب الاتحاد ، ثم الحزب السعدى ، فيما بين بعضها بعضاً ، وكذلك بينها من جانب والقصر أو « السراى » من جانب آخر :

وأضحى من علماء الأزهر :

(ا) بعض يتبع سياسة القصر مباشرة ، أو ضمن سياسة حزب الاتحاد، أو حزب نشأت باشا ؛

(ب) وبعض آخر يرتبط بسياسة الوفد الحزبية ؛

(ج) والبعض الآخر يسير مع الأحرار الدستوريين ؛

(د) وبعض رابع يخضع لتوجيه الحزب السعدى ؛

وانقسم الطلاب فى نشاطهم الخارجى والسياسى على هذه الأحزاب على نمط ما صنع العلماء ؛

وقوانين « إصلاح الأزهر » التى صدرت قبل سنة ١٩٥٢ — أى قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ — كانت لإغراء الأزهريين ، علماء وطلاباً ، إغراء حزبياً سياسياً ؛

فقانون سنة ١٩٢٥ م أصدره اسماعيل باشا صدقى ، وقد كان وزيراً للداخليه فى حكومة « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » ، وقانون سنة ١٩٣٦ م أصدرته حكومة توفيق نسيم باشا الائتلافية ؛

وكلا القانونين صدرا بإيحاء من « السراى » ، واستهدف إصدارهما تقريب الأزهر إلى سياسة الملك ضد « الوفد » على الخصوص ، وضد شعبية هذا الحزب التى كان يتمتع بها فى مصر إذ ذاك ؛

وقانون سنة ١٩٢٥ عالج تنظيم مراحل الدراسة فى الأزهر ومناهج التعليم، بحيث يكون للمتخرجين فيه « صلاحية » الالتحاق بوظائف التعليم فى المؤسسات الحكومية التعليمية — بجانب المعاهد الدينية الأزهرية — والمؤسسات الثقافية والتشريعية التابعة للدولة ؛

كما عالج نفس الغرض قانون سنة ١٩٣٦ ، لكنه استحدث فى مرحلة التعليم العالى بالأزهر نمطاً على غرار نمط التعليم فى جامعة « فؤاد » — الجامعة المصرية سابقاً — وهو تقسيم فروع الدراسة فى هــذه المرحلة إلى كليات ، وبفاعلية هذا القانون ، تم إنشاء كليات ثلاث فى الأزهر ، أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية .

وسياسة « القصر » أوحت بهذين القانونين اللذين وكل إليهما « إعادة تنظيم الأزهر » تلبية للصيحات المتكررة التى كان يصدرها علماء الأزهر وطلابه من وقت لآخر ، مضربين عن الدراسة مرة ، ومهددين بالإضراب مرات ، بغية « المساواة » فى الوظائف الحكومية ، سواء فى شغل تلك التى لزملائهــم الذين يتخرجون فى دار العلوم ، أو فى القضاء الشرعى ، أو فى المعلمين الأولية الحق فى شغلها فى مجالى التعليم والقضاء ، أو فى المرتبات التى يتقاضونها

وهنا نرى أن سياسة الاحتــلال البريطانى فى إلحــاق الأزهر فى تمــويله بالحكومة المصرية بدلا من « أوقاف الخــيرات » ابتدأت تنعكس على التوجيــه فى الأزهر ، كما ابتدأت تحــدد للأزهريين الغاية من الأزهر نفسه ، وهى غاية لا تخرج عن كونه مؤسسة للتعليم على نمط معين ، وثقافة معينة ، تســاعد المتخرجين فيها على الحصول على درجات مالية فى وظائف الحكومة المحلية .

وكلما مر الزمن على التبعية للتوجيه الحكومى للأزهر ، اســتقر فى نفوس الأزهريين أن رسالتهم هى :

أن يحققوا المساواة بالآخرين فى وظائف الدولة :

وفى الحصول على مرتباتها .

وبالتالى كذلك كلما رسبت من الزاوية التى ينظرون منها إلى الحيــاة ، بالإشارة إلى تلك الرسالة التى كانت لهم على عهد الاستقلال ، وهى رسالة

الإســـلام ، تعليما ، ودعوة ، وفتـــوى ، ورأياً ، وموقفاً إزاء الأحداث والمشاكل الهامة بين المسلمين :

وأصبحت مشكلات الأزهر فى نظر الحكومة المصرية ، أية حكومة — إن كانت للأزهريين مشكلة — هى : مشكلة المساواة فى الوظيفة والدرجة المالية للوظيفة ، وأصبح العرف الحكومى بعد تبلور سياسة الأحزاب المصرية ، وسياسة القصر ، فى الأزهر ، هو :

ان الأزهر يعلن الولاء للسياسة الحكومية القائمة ، فان خالفها فى فترة من الفترات فلسبب حزبى سياسى ، أى بسبب سيطرة أحد الأحزاب السياسية ، أو سيطرة سياسة القصر — على نشاط بعض العلماء والطلاب فيه ، ولكن ليس بسبب الدين لذات الدين :

والنصف الأول من القرن العشرين ، إن بدا فيه مظاهر الأستقلال ومظاهر التبعية للأزهر ، فتلك سنة الحياة الإنسانية فى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى تقابلها تماماً ، فالضد لا ينتقل إلى ضده دفعة واحدة ، وإنما لابد أن تكون هناك مرحلة انتقالية بين الضدين تمثل بعضاً مختلطاً من مظاهر كل منهما

ولكن بانتهاء هذا النصف الأول من القرن العشرين ينتهى عصر استقلال الأزهر ، وتبتدئ معالم تبعيته تتضح للعيان :

وكذلك بانتهاء النصف الأول من قرننا العشرين ، أصبح الأزهر معهداً للتخريج للوظائف المختلفة ، وليس مركزاً للفتـــوى والرأى ، وليس كذلك مرجعاً ترجع إليه الأمة الإسلامية فى مصر أو فى غيرها — فى تحديد الموقف الإسلامى من الأحداث والتغييرات مجرداً عن أية تبعية سياسية لأية جهـــة ، أو هيئة سياسية داخلية أو خارجية :

ثورة ٢٣ يوليو وتطوير الأزهر :

ونظرة الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لمشاكل الأزهر وإصلاحه لم تخرج عن إطار النظرة الحكومية السابقة إلى الأزهر فى مشاكله وإصلاحاته ، وهى مشكلة :

« تحقيق المساواة فى الوظيفة والدرجة المـــالية للوظيفة » :

وقانون تطوير الأزهر الذى أصدرته الثورة فى سنة ١٩٦١ هو محاولة

من محاولات « الإصلاح » التى تمت قبلها فى سنة ١٩٢٥ ،وفى سنة ١٩٣٦ والتى قصد منها القضاء على الانفصالية بين متخرجى الأزهر والمتخرجين فى معاهد التعليم الأخرى :

ولكنه ذهب خطوات أبعد فى القضاء على هذه الانفصالية التى رسمتها سياسة الاحتلال البريطانى فى التعليم فى مصر ، تحت إشراف القس «داناوب »

والخطوات الجديدة فى هذا التطوير ليست تحقيق المساواة التامة فى الوظيفة والدرجة المـــالية لها فقط ، وإنما فى إلحاق أنواع من التعليم فى المرحلة العالية من مراحل الدراسة فيـــه لم يستحدثها قانون ســـنة ١٩٢٥ ولا قانون ١٩٣٦ وهى الأنواع التى يمثلها عدد من الكليات العامية والفنية ، بجانب الكليات التقليدية الثلاث السابقة :

فإلحاق هذه الكليات العلمية والفنية بجامعة الأزهر أتاح الفرصة لطالب الأزهر فى مرحلتى التعليم الإعدادى والثانوى أن يدرس المقررات التى يدرسها المتخرج فى مدارس وزارة التربية والتعليم.

كما أتاح للحاصل على الشهادة الثانوية من مدارس هذه الوزارة الالتحاق بكليات الأزهر جميعها على أن يؤدى — فى صـــورة ما — امتحاناً فى مستوى

التعليم الديني والعربي الذى يحصل عليه طالب الأزهر فى المعاهد الأزهرية ، بأقسامها المختلفة :

وهكذا لا يبقى هناك مجال لأنفصالية التعليم فى مصر اليوم، تلك التى سعى إليها فى عهد الاحتلال البريطانى :

ولكن الفجوة الثقافية بين طوائف المثقفين ، والاختلاف فى النظرة إلى الحياة بين المواطنين ، وتعــدد التوجيه فى التفكير فى المجتمع المصرى ، كل ذلك لم يزل له أثره فى المجتمع ، وليس من السهل القضاء عليه فى جيل أوجيلين.

وكأن ثورة ٢٣ يوليوسنة ١٩٥٢ فى عنايتها بإصلاح الأزهر لم تعن به ، إلا ضمن دائرة القضاء على رواسب الاستعمار البريطانى فى مصر — فى خلقــه طوائف عديدة من بين المثقفين ، وفى ميله بالسياسة المصرية إلى السياسة الغربية وبالتفكير المصرى نحو المثل الغربية :

وإذا كان قانون الثورة المصرية لتطوير الأزهر سنة ١٩٦٢ بإضافة بعض المقررات فى مواد أخرى غير المواد العربية والإسلامية فى مناهج التعليم بالمراحل الثلاث : الابتدائية ، والإعدادية ، والثانوية ، استهدف تقريب طالب الأزهر من الطالب الآخر فى مدارس الوزارة ، فان فائدة ذلك لا تكتمل إلا باضافة المــواد العربية والإســلامية فى مناهج التعليم بمدارس الوزارة كى تعــادل فى مستواها مستوى المعاهد الأزهرية فيها ، حتى يقترب كذلك طالب الوزارة من طالب الأزهر فى اتجاه موحد للثقافة ، قبل مرحلة الجامعة :

إن الخشية الآن من قانون تطوير الأزهر لسنة ١٩٦١ أن يحمل طــلاب المرحلة الابتدائية فيــه على أن ينتقلوا منها إلى مرحلة الإعدادى والثانوى فى مدارس وزارة التربية — والقانون يجيز ذلك — اختصاراً لزمن الدراسة فى هــذه المدارس قبل الجامعة من جانب ، وتفادياً من ازدواج برامج التعليم فى معاهد

الأزهر– إن بقوا فيها – من جانب آخر ، وعندئذ يكون قانون تطوير الأزهر عاملا فى قصر التعليم الأزهرى على مرحلة الابتدائى :

وبذلك يضاف فى النصف الثانى من القرن العشرين إلى « تبعية » الأزهر للسياسة الحكومية التى تمت فى النصف الأول منه نقص آخر :

وهو عدم كفاية مستوى التعليم فى الأزهر لفهم الثقافة الإسلامية ، فضلا عن كفاية التصدى للدعوة الإسلامية ، والرأى الإسلامى ، والموقف الإسلامى إزاء الأحداث والتغييرات ، ومشاكل المجتمعات الإسلامية :

وهكذا يختلف حاضر الأزهر عن أمسه :

أصبح فى مكانته محلياً ، بعد أن كان عالمياً ، وفى رأيه لمصر وحدها ، بعد أن كانت فتواه للمسلمين جميعاً .

الحياة الثقافية بمصر والقاهرة والأسكندرية

فى سنة ٦٨٤ ، ٦٨٥ هـ من خلال رحلة ابن رشيد

الدكتور محمد الحبيب بن الخوجه

الحياة الثقافية بمصر والقاهرة والأسكندرية
فى سنة ٦٨٤ ، ٦٨٥ هـ من خلال رحلة ابن رشيد

الدكتور محمد الحبيب بن الخوجه

عرف بين أهل المغرب قديماً وحديثاً فن برزوا فيه كما وكيفاً ، كان محل أفكارهم وخواطرهم ، وديوان معارفهم ومشاعرهم ، ومستودع ملاحظاتهم ومشاهداتهم . وقد كتب أصحابه الرواة والأخباريون والحذاق والأدباء والفقهاء والمحدثون فى ذلك رحلاتهم التى تبلغ اليوم نحواً من خمسين كتاباً ، تختلف أنماطاً ، وتتنوع أغراضاً ، وهى وإن كانت فى عامتها حجازية لأن الهدف الغالب من سفر أصحابها فى الغالب ، والمحرك لهم عليه ، والدافع بهم إليه ، إنما هو الحج والزيارة . فقد تمايزت كتب رحلاتهم باختلاف مشاربهم ، وتباين أذواقهم ، وتفاوتت بتعدد وتلون ماهموا بتدوينه بها ، وتقييده فيها : وهى وإن اعتمدت كلها فى التصوير الحضارى للمدن والأمصار فعدها بعض الباحثين من مراجع البحث التاريخى ودراسة الجغرافيا ، شأن كتب المسالك والممالك ، فان منها ماهو حجازى يلم بأوصاف البلاد إلماماً قليلا ، ولكنه يعتبر من أهم المصادر فى تصوير الحياة الثقافية والفكرية فى عصره لكل بلد مر به ، أو مستقر نزل فيه . وهذا شأن «ملء العيبة بما جمع فى طول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين الشريفين مكة وطيبة». فان صاحبها محمد بن عمر بن رشيد الفهرى السبتى قد جعل منها سجلا لتدوين سماعاته ومراسلاته ،

وما تلقّاه من أشياخه من أسانيد وإجازات ، وما حضره عندهم من دروس ، أو قرأه من كتب . وقد غلبت هــذه الظاهرة على الرحلة فميزتها حتى عدّها بعض الباحثين المعاصرين فى الرحلات الفهرستية على حد تعبيره . ونحن نختار تسميتها بالبرنامج موافقــة منا لتسمية عبد المهيمن الحضرمى تلميذ ابن رشــيد لها ، وذلك فيما قيّــده بآخرها بخطه من قوله : أكملت قراءة هذا البرنامج فى يوم الأحد الحادى عشر لرجب عام عشرين وسبعمائة »

اصطحب ابن رشيد فى رحلته الحجازية صديقه ووفيّه الوزير ابن الحكيم » وكان هذا ذكياً فطناً أديباً شاعراً . وحمل رحّالتنا معه إلى العلماء فى كل صقع من أطراف المغرب والمشرق توصيات من شيوخه ، واستدعاءين كبيراً وصغيراً يستجيز فيهما لبنيه وأخواته. وكان وهو يتنقل فى عرض البلاد وطولها يردّد فى نفسه مقالة الحافظ السلفى :

واظب على كتب الأمالى جاهداً　　　من ألسن الحفــاظ والفضلاء

فأجــلّ أنواع السماع بأســرها　　　ما يكتب الإنسان فى الإمــلاء

كان سفره وإجتيازه البحر من المريّة سنة ٦٨٣ : ولم تتم له العودة إلى سبتة إلا فى جمادى سنة ٦٨٦ .

فى الورود والصدور عنــد الذهاب إلى الحرمين الشريفين قصْد الحج والزيارة وفى طريق الرجوع إلى بلده سبتة لم يكن يشغل بال أبى عبد الله محمد بن عمرو بن رشيد الفهرى السبتى شىء مثل حرصه على الرواية وطلب الأسانيد العالية ، والبحث عن الشيوخ والمحدثين ، بغية جمع السماعات والظفر بالإجازات فكان يتنقل من الأندلس إلى بجاية ، ومن بجاية إلى تونس ، ويركب البحر فينزل بالإسكندرية ثم يتوجه إلى مصر والقاهرة، ومنهما ينفصل إلى الشام فى طريقه إلى مكة وطيبة ، ثم يعود إلى مصر والإسكندرية، ومنها

إلى طرابلس فالمهدية فتونس فالثغـور المشرقيّة الجنوبية من بلاد الأندلس حتى ينتهى إلى سبتة . وهو فى ذلك كله ملازم للطـلاب ، حاضر مجالس الأشياخ ،آخذ عن الفقهاء والمحدثين ،والأدباء واللغويين ، مستجيزاً أومدبجاً، مستملياً ومناقشاً ، راوياً ومعارضاً .

وكما تكرّرت زياراته لأفريقية وتجدد لقـاؤه بأعلامها ، زار البـلاد المصرية مرتين فى الذهاب والإياب . يصور لنا ذلك أتم التصوير الجـزءان الثانى والثالث من الأجزاء الباقية من رحلته التى تحدث فيها عن مقـامه بمصر والقاهرة والإسكندرية ، وعددهما بمكتبة الأسكوريال : ١٧٣٩ ، ١٦٨٠ :

وبالرغم عن اعتوار هـذين الجزءين النقص للأول من أوله ، وللثـانى من آخره ، إذ لا ذكر فى الأول لتاريخ وصوله إلى الإسكندرية ، ولكونه قد افتتحه بقوله : — وممن لقيناه أيضاً بثغر الإسكندرية — مما يدل على سبق ذكر رجال آخرين ، قبل الذى افتتح به الجزء وهو ابن ساطر البونى . أمّا الثانى فلكونه لم ينه بذكر الانصراف من الإسكندرية إلى طرابلس ، وإنمـا ذكر ذلك فى الجزء الرابع ، وهو الجزء المتعلق بتونس فى العودة ، والجزءان المذكوران أعلاه يمثلان بمـا احتويا عليه ثبتـاً تاريخياً ووثيقة ذات بال من أحد أعلام القرن السابع ، كان شاهد عيان وخبيراً بمـا نقل وصوّر وتحدّث وأنبأ به من أحوال الثقافة والعلم بالبلاد المصرية فى السنتين ٦٨٤ — ٦٨٥ :

وجملة التراجم الباقية بالجـزءين المذكورين من الرحلة أربع وخمسون بعضها نجد له نظيراً من بعض الوجوه، فيما احتوى عليه، فى المصادر والمراجع من كتب الطبقات والرجال ، وبعضها الآخر لون انفرد به وحده ، وخصّ به دون غيره :

ويشتمل الجزء الأول فى الصدور١٧٣٩ على عشر تراجم للإسكندريين وثلاث وثلاثين لمن لقى بمصر والقاهرة من الرواة والعلماء : أما جزء الورود

١٦٨٠ فقد ترجم فيه أولا لأحد عشر عالمـاً بين قاهرى ومصرى ، منهـم أربعة تجدّد له بهم اللقاء ، وثانياً لأربعة فقط من أهل الإسكندرية :

وترتيب هذه التراجم لم يكن مصنفاً على أساس الاختصاص أو الأهمية ، ولكن على ما تهيأ فى نسق الزمن من أسباب اللقاء الأول فالأول :

ولتحقيق الرغبة الجامحة ، والنهم العلمى كان ابن رشيد يغشى المجالس كلها ، ويزور الرواة والمحدثين ، والعلماء وأهل الأدب ، فى كل مكان من مصر والإسكندرية ، فهو مرة بأحد المساجد من الشارع الروحى بالإسكندرية فى مجلس الشيخ الجليل الأصيل وجيه الدين أبى محمد عبد اللهبن خير القرشى، أو بحلقة ابن النحاس بمصر فى جامع عمرو بن العاص ، أو بالقـاهرة بمسجد الأقمر ، أو مع المقيّد المتقن الوراقة رئيس المؤذنين بجامع الحاكمى، يأخذ عنه مناولة بعض الكتب من سماعاته . وهو مرة أخرى مع الإمام المحدث تاج الدين الغرافى بالمدرسة النبيبية ، أو مدرسة ابن الأبزار ، أو مع ابن التونسى بمدرسة الزكوية من الإسكندرية ، أو هو بمصر والقاهرة بالمدرسة الصالحية، أو النجمية مع الشيخ الفقيه المراغى ، أو مع الإمام تقى الدين بن دقيق العيـد بالفاضلية فى دراسة المذهبين ، أو بالكاملية فى دراسة الحديث . وربما ذهب ابن رشيد إلى مشهد الإمام الحسين ، ليأخذ من أبى البركات الخلاطى ، أوزار الرواة والحذاق بمحلات عملهم مثـل زين الدين السكاك الذى لقيه بحانوته، والأديب البارع نصير المنياوى الذى روى عنه من لطائفه وملحه بحمامه ، أو طلبهـم فى منازلهم للتيسير عليهم كالشيخ الحسيب الأصيل الراوية المسند زين الدين بن الأنمـاطى ، والشيخة الصالحة أم الفضل زينب بنت الإمام أبى محمـد عبد اللطيف البغدادى .

وقد ظفر ابن رشيد بهذه المجالس والمنازل وفى تلك المنتديات والحلقات بمصر والقاهرة والإسكندرية بأئمـة العلم وأهل الرواية والدراية من مصريين

وغيرهم : إذ كانت ربوع البلاد المصرية آنذاك قبلة للحفّاظ والعلماء ، وملتقى لرجال الفكر والحذّاق من الأدباء والشعراء :

فيهـا تسنّى لصاحبنا أن يلقى من الشاميين : ابن الأنماطى الدمشـقى ، وشهاب الدين بن خطيب المـزة ، وابن الظاهرى الحلبى ، وابن أبى الزبن الغمـرى :

ومن العراقيين الغرافى والواسطى :

ومن الإفريقيين القسنطينى والقسطلانى والتجانى وابن التونسى :

ومن المغاربة موفّق الدين الخراسانى التلمسانى والشريف الكركى الفاسى .

ومن الأندلسيين الخزرجى الغرناطى ، والجمال المغربى من أهـل المريّة ، وأبا حيّان الجيّانى . لم يكن ابن رشيد فى سبيل الرواية الواسعة ، وطلب الإسانيد العوالى يقتصر فى الأخذ والسماع على الخاصة دون العامة ، وربما وجد لدى هؤلاء من الطرائف والغرائب والنوادر والملح مالا يجد عند غيرهم ، فقدقصد أبا إبراهيم مثقال الحبشى البزاز بقيسارية العجم بالإسكندرية للأخذعنه ، وقال فى ترجمته : شيخ أمى ، ولكن له رواية ، وكانت إجازته له مشافهـة ، وأخذ عن أبى عبد الله محمـد الصفّار المطرّز الشيخ الصالح . وقال عنه : شيخ أمى ، له سماع صحيح ، وروى عن أبى يونس ذى النـون ابن عمر بن عباس القرشى الأسعردى الشراربى بدكّانه جوفى مسجد عمرو بن العاص ، وقال فى ترجمته : روى عنه الكثير ممن لا يحصى عدداً لغرابة اسمه ، وهو شـيخ من العامة ، له سماع صحيح . ولم يكن شأن نصير الحمامى المنياوى ، أقلّ من شأن الثلاثة الأول ، فإنه بالرغم من عاديته كان يأتى بعجائب من النظم والنثر ، ولم يتردد ابن رشيد فى وصفه بالأديب البارع ، العذب المنازع ، الغريب الأمر ،

وقد اعتبره من مشاهير أدباء المصريين ، وإن كان من عداد العامة والأميين ، مقفياً على ذلك بقوله : له طبع معين ، ومخالطة للفضلاء من الأدباء .

وربما قصد ابن رشيد فى الرواية بعض النبلاء من أبناء الأسر الرفيعة الذين يطمع أن يجد لديهم من الكتب والأسانيد والسماعات ما قد لا يتحقق مثله لغيرهم . وقد عدّ من هؤلاء أحد وجوه الإسكندرية أبا منصور الهمذانى ، أخ الراوية الفاضل ذى السماعات الكثيرة ، والتصانيف العديدة القاضى المسند الرحال ابن العمادية . وممن عدّه فى هذا القسم الفنّى الطواشى صواب الصلاحى القاهرى . وقال عنه : شيخ حسن البزّة ، موقّر الجلسة .

وإذا كان تعلق ابن رشيد بالرواية وحرصه على الاستزادة منها ما أمكن قد دفعاه إلى الأخذ عن أمثال هؤلاء فإن نقده للرجال وعلو همته واستبراءه لدينه وعرضه . ومنعه من أن يستمر فى الأخذ عن جمال الدين ابن ساطر البونى الشرابى المتطيب بالرغم عن أسمعته الكثيرة وإجازاته الصحيحة ، واكتفى برواية أول حديث من الأربعين البلدانية للسلفى عنه ، قائلا فى تعليل ذلك : ولم أقرأ عليه غير هذا الحديث زهداً فيه ؛ وأضاف معرفاً به فى رسم ترجمته : شيخ فى أخلاقه ، شكاسة وكبر وعدم فهم .

ومثل هذا الموقف من رحالتنا تجاه ابن البونى موقفه من جمال الدين ابن التونسى الأديب الشاعر ذى الخط البارع والسماعات والإجازات الكثيرة ، فهو بعد أن لقيه بالمدرسة الزكوية بالإسكندرية وسمع منه مخمّسات ابن مهيب لشعر أبى زيد الفازازى ، تحرّج من رواية الحديث عنه قائلا فى ذلك : هذا الرجل — أصلحه الله ووفّقه — يشهد فى المكوس . فلم نر أن نخرّج عنه حديث النبى — صلى الله عليه وسلم . ولا أن نجعل مثله وسيلة تتصل بها إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — لنا سلسلة الإسناد ، والله أسأل السلامة والعصمة .

أما من أخذ عنهم ولزمهم من أهـــل المعرفة الواسعة أو أهل الرواية بالديار المصرية فإنا نصنفهم طوائف وأقساماً :

فمن الرواة : ابن منصور الأنصارى ، ومحمد بن مكين ، وكلاهما بالإسكندرية .

ومن المحدثين : لقى بمصر والقـــاهرة الشيخ الراوية الحسيب الأصـــيل شرف الدين السعدى ، والشيخ الحسيب الأصيل ابن الأنماطى ، والشـــيخ المحدّث الصدوق جمال الدين العطار ، والشيخين رشيد الدين ، وجلال الدين ابنى القـــاهرى ، والشيخ أبا العباس الواسطى الأعلاقى ، والشـــيخ الصالح زين الدين السكان ، وخطيب جامع عمرو بن العاص أبا عبد الله القسطلانى ، وصاحب ديوان الأحباس الرئيس بهاء الدين ابن أبى الكوم الثعلبي . ومن المحدّثين أيضاً بالإسكندرية الشيخ الجليل الأصيل وجيه الدين بن خير .

تعـــرّض لهؤلاء جميعاً ، ذاكراً سماعاتهم وإجازاتهم ، منبهاً على ما روى عنهم وتلقى منهم ، إلا أنه قد خص بالتنويه والتعظيم من أفراد هذه الطبقة من ترجم لهم الترجمة الواسعة ، إعلاناً عن شهرتهم وإعلاءاً لرتبتهم .

فمن بين هؤلاء آخر من لقى بالإسكندرية فى الورود ، وهو الإمام الأجل المحدّث تاج الدين شرف المحدثين الشريف أبو الحسن على بن أبى العباس أحمد بن عبد المحسن الحسينى الطالبى الغرّافى ، وقد قال عنه : له خط حسن وتواضع وفضل وقبول على من يرد عليه ويقتبس ممـــا لديه وله مشاركة فى الطلب وذكر لعيـــون من الأدب ، ومشيخة عالية وأسمعة بتصيحح أبيه حاليـــة . ولما شعر به ابن رشيد من علوّ منزلته وارتفاع درجته اعتذر عن ذكره آخراً فيمن لقى بالإسكندرية ســـنة ٦٨٤ قائلا فى ذلك : وممن لقيناه بالإسكندرية وحقه أن يقدم ولكن أردنا أن نجعله لمن لقيناه بالإسكندرية مسك الختام ودليل التمام الشيخ .... الخ .

ومنهم الشيخ الجليل الأصيل العدل شريف الدين أبو الحسن يحيى بن أحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن على بن عبد الباقى بن على بن الصواف المولود سنة ٦٠٩ ، وهو جيد الخط عارف بما يكتب ، سمع عليه صاحبنا جميع الجزء العاشر من الخلعيات :

ومنهم نائب قاضى الحنابلة بمصر أحد الشيوخ المسندين الفقيه المعمّر الإمام العالم الزاهد الورع بقية السلف الكرام مفتى الإسلام صفى الدين أبو الصفاء خليل بن أبى بكر بن محمد بن صديق المراغى ؛ ذكر سماعاته والكتب التى قرأها ثم عقب على ذلك بقوله : قرأت على الصفى أصفى الله موارد إحسانه وأضفى عليه ملابس امتنانه ، مشيراً بذلك إلى ما تلقاه عنه مباشرة بالقراءة حين الإجازة ، وكان أخذه عن هذا الشيخ بدكانه ما بين القصرين بالقاهرة المعزية :

وممن لقى بالقاهرة أحد الحفاظ المشار إليهم بالديار المصرية ، والمكثرين الرواية الشيخ المحدث الحافظ تقى الدين أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عباس لأسعدى ؛ لهمعرفة بالحديث ويخرج للشيوخ أسمعتهم ، لقيه ابن رشيد جوار جامع ابن طولون ما بين القاهرة ومصر.

ومنهم جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن الظاهرى ، أحد الجلة الفضلاء ديناً وخلقاً ، له علم بالتفسير والفقه الحنفى على مذهب محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو إمام فى علم الحديث ، مكثر حافظ ، له التخاريج الحسنة ، والملتزم التام بعلو الحديث ونزوله ، وهو ذو مروءة كاملة ، متنزه عن مناصب الدنيا كان له رباط يسكن فيه ، به خزائن كتبه يقول بن رشيد : لقيته بمنزله وبغيره ، وكان بى براً حفياً ، وهو ممن تكرر له لقاؤه ، تحدث عن سماعاته وذكر ما رواه وأخذه عنه .

ومنهم المحدث المسند المعمر رحالة الديار المصرية عز الدين أبو العز عبد العزيز الحرانى المولود ببغداد سنة ٥٩٥؛ سمع الكثير ، وأجيز له وعمّر حتى انفرد بعالى الإسناد ، وألحق الأحفاد بالأجداد ، كان سمحاً بالقراءة عليه ، حسن اللقاء ، كثير البر ، دائم البشر لمن يلقاه : انفرد فى الدنيا باجازة حمّاد بن هبة الله الحرانى وأبى الفرج بن كليب؛ وتفرّد فى الديار المصرية بسماعات منها : مشيخة أبى بكر بن عبد الباقى قاضى المارستان ، ومشيخة ابن حسنون . ومن تلامذته أبو الفتح بن دقيق العيد . وقد خرج له ابن الظاهرى مشيخة حافلة فى أربعة أجزاء ، تكرّر لقاء صاحبنا له ، إذ كان آخر من اتصل به فى الصدور بمصر . وأول من لقى فى الورود بها ، ومن قيله فيه : قرأت على شيخنا المسند بقية السلف رحلة الوقت عز الدين أبى العز الحرانى — أبقاه الله — ومدة الانتفاع به متواصلة ، والطرق بالراحلين إليه آهلة فى يوم ..... الخ .

ومنهم الفقيه الإمام الأوحد المفتى السيد الشريف شريف الدين أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبد العزيز بن محمد بن حزم بن حمير بن سعد الحسينى ، ولد بفاس ونشأ بها ، وتفقّه على الشيخ أبى محمد صالح فقيه أهل المغرب فى زمانه ، ثم رحل إلى المشرق ، وتفقّه بمصر على عز الدين بن عبد السلام ، وأخذ الحديث على زكى الدين ، ثم ذهب إلى الحجاز والكرك من أعمال الشام ، ثم دخل مصر سنة ٦٧٠ يدرس ويفتى بالمذهبين ، له دروس فى العربية واللغة والحساب وغير ذلك من العلوم ، وإليه انتهت الرئاسة بالديار المصرية : وعليه مدار الفتيا بها فى زماننا ، حضر مجلسه ابن رشيد ، وسمع صاحبه ابن الحكيم يقرأ عليه شرحه لعقيدة المهدى المرشدة . وقد أسمى الكركى هذا الشرح اللمحة المسدّدة فى شرح المرشدة .

ومن القراء : لقى بالإسكندرية الشيخ المقرى المجوّد مكين الدين أبا محمد عبد الله بن منصور بن على ، أحد الصلحاء الفضلاء ، وهو المتصــدر لإقراء القرآن بالإسكندرية ، قرأ عليــه صاحبنا بدكان منزله جميع المجالس الخماسية السلمانية التى أملاها بسلماس أبو طاهر السلفى . وعنه يروى مقــالة أبى بكر ابن أبى شيبة : من لم يكتب عشرين ألف حديث إملاء لم يعد صاحب حديث.

ولقى بالقــاهرة الشيخ المقرى الفاضل شهاب الدين أبا البركات أحمــد بن النصير بن قبا بن سليمان ، المولود سنة ٦٢٠ بالفسطاط ؛ وفيــه يقول : فاضل متواضع ، ووصف لى أن له معرفة بالقراءات .

ومن القــراء المحدثين : القاضى محيي الدين أبو الفضل عبد الرحيم الدميرى ، وهو الإمام الصدر العدل الرئيس المقرى ، قارئ المصحف المنسوب لعثمان — رضى الله عنه — بفسطاط مصر .

ومن الفقهاء المحدثين الشيخ المربى الصوفى النحوى أبو بكر القسطنطينى : والشيخ شهاب الدين ابن الخطيب المزة .

والشيخ الإمام المحدث الحافظ الفقيه تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين أبى الحســن على بن وهب بن أبى الطاعة القشيرى المعروف بابن دقيق العيد ولد سنة ٦٢٥ بساحل ينبع بالحجاز . وهو قوصى المربا والمنشأ . جاور مدة بمكة ، قرأ على ابن أبى الفضائل القشيرى والمرعى ، ومن شيوخه ابن المقــير وابن ظــافر وابن الجيّاب وابن الحاسب والمنذرى والنابلسى ، كان يدرس بالصالحية والفاضلية والكاملية . وله مؤلفــات عديدة فى المعقولات والأدبيات ، من كتبه الاقتراح فى بيــان الاصطلاح فى الحديث ، أملى على كتاب ابن الحاجب ، وصنف فى الأحكام الإمام ، وشرح العمدة مسمياً هذا الشرح أحكام الأحكام فى شرح كتاب العمدة فى أحاديث الأحكام ، وله

كتاب التشديد فى الرد على غلاة التقليد ، وكتاب الحفاظ تقييــد على كتاب المحصول ، وتقييد على مقدمة كتاب الأحكام الصغرى .

ومن الفقهاء الصالحين : شمس الدين أبو محمــد عبد الواحد الكافورى .

ومن الصالحين : موفق الدين الخراسانى التلمسانى ، وأبو أحمــد الولى ، البعلبكى .

ومن المتصوفين الصالحين المحدثين : أبو عبد الله محمد الدلاصى وأبو بكر ثابت العسقلانى الرزاز .

وضياء الدين أبو الهدى عيسى الأنصارى السبتى .

والشيخ الصــوفى الأديب المصنف المفتى قطب الدين أبو بكر محمــد بن أحمد القيسى القسطلانى التوزرى ، ولد بمصر ونشأ بمكة وتاتى السماعات والإجازات وصاحب العلماء بهما وبدمشق ، لقى الأبصرى والعطار وعمويه ، وسمع من أصحاب السلف وأصحاب ابن عساكر ، كان شيخ المدرســة الكاملية بالقاهرة ، وله تصانيف كثيرة منها المنهج المبهــج عند الاستماع لمن رغب فى علوم الحديث على الاطلاع ، والمحاسن الخــالدة فى فضائل الوالد والوالدة ، ومناسك الحج ، وفتاوى ، ولسان البيان عن اعتقاد الجنان ومختصره ، وارتقاء الرتبة باللباس والصحبة .

ومن المحــدثين المتصوفين والفقهاء الأصوليين : الإمام الأوحد رئيس النظار المتأخر ، ين شمس الملة والدين ، ناصر السنة فخر الأئمة تاج الملة كبير المتكلمين حكم المتناظرين أبو المكارم وأبو المعالى محمد بن محمود الأصفهانى ، ولد سنة ٦١٦ إمام فى النظريات عالم بالخلافيات ، متمكن من القــواعد الصوفيات ، تخرج بالأثير الأبهرى ، له تآليف كثيرة منهــا : الكاشف عن المحصول فى علم الأصول ، ومقدمة له أسماها نهاية الطالب فى تحقيق المطالب ،

والقواعد الكلية فى خمس من الفنون العلمية ، الفقه والمنطق والخلاف والأصولان وله أيضاً كتاب حسن فى تحرير القدر المهم من الحدود فى علم الخلاف . قال ابن رشيد : رأيت بعضه ولم أقف على تسميته .

ومن المحدثين الأدباء : الشيخ الصالح شهاب الدين أبوالبركات الخلاطى .

ومن اللغويين والأدباء المحدثين : جمال الدين الجابى البزاز ، وطائفة ممن كان يحضر مجلسه مثل أبى عبد الله محمد بن موسى النعمان المزابى الفاسى . وهو رجل معظّم بمصر ، معروف الجلالة والقدر .

ومنهم الشيخ بهاء الدين أبوعبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبى نصر الحلبى المعروف بابن النحاس ، إمام فى العربية والأدب والخلاف له نظم رائق ، ونثر فائق، وكرم ذات ، وفضل أدوات ، ومروءة وخلق ، ورواء وبهاء . أعجب ابن رشيد بواسع علمه ، وعرف عظيم منزلته ، جلس إليه بالمسجد الجامع ثم حضر تدريسه لكتاب سيبويه بمسجد الأقمر بالقاهرة ، ودعاه ابن النحاس بعد ذلك إلى بيته فقدم له ما حضر من الطعام . ثم أقبل عليه بالتأنيس ، وعرض عليه جميع كتبه أو أكثرها ، كتابا كتاباً ، قال ابن رشيد : حتى مللت ، وقد أباحها له قائلا : حكمك فيها ماض ، وهى مباحة لك . قال صاحبنا : فشكرته أتم الشكر ، وعرفت أنى حين لقيته لقيت جليل القدر فلأذكره أطيب الذكر . وقد أورد ابن رشيد فى ترجمته بعد ذكر سماعاته ونتف من أخباره ومروياته شيئاً من نثره ونظمه وبدائع من أدبه .

ومن الأدباء المتصوفة الشعراء : الأديب البارع الإمام العالم ، الصوفى الفاضل المعمر ، الحسن السمت والصمت أبو عبد الله محمد بن أبى محمد عبد المنعم بن الخيمى اليمانى الأنصارى . أورد ابن رشيد كثيراً من أشعاره موقالاته فى صباه . وذكر صحبته لابن الفارض . وقال عنه بعد ذكر سماعاته :

له أشعار عذبة المطالع حلوة المقاطع تستميل السامع والمطالع كأنما يفرغ منها في أصداف الآذان دراً أو يلقي في الأفواه سكراً أو عطراً . ثم لاحظ بعد ذلك أن الناس كانوا يتخذون من أشعاره أمثالا يرسلونها ، وهو عظيم المنزلة ، رفيع المكانة ، مبدع في نظمه بالإغراب والتعجيب :

ومن أصحاب المشاركات الواسعة والحفاظ المفسرين : الشيخ علم الدين أبو محمد عبد الكريم العراقي الأنصاري ، أصله من وادي آش بالأندلس وهو مصري المولد والمنشأ ، ولد سنة ٦٢٣ ، لقيه صاحبنا بجامع عمرو ابن العاص ، قال ابن رشيد في ترجمته : الإمام العلامة الحافظ البارع ، المفسر المتفنن ، إمام أئمة البيان ، وهو أحد المتصدرين المشهورين بالديار المصرية في علم التفسير والبيان وأصول الدين والفقه وأصوله . ومن تآليفه تقييدات في علم البيان على كتاب الكشاف للزمخشري . وقد تعرف رحالتنا بمجالسه إلى نخبة من أعيان العلماء والأدباء أمثال الكاتب البارع جمال الدين أبي عبد الله محمد ابن إبراهيم الأنصاري ، والأديب الناظم السكين بن عزيز حسام العسقلاني :

ومنهم الشيخ الفقيه المقرى الفاضل الحافظ الأديب البارع الناظم الناثر الحافل أبو الحسن علي بن إبراهيم بن محمد التجاني ، أحد صدور طلبة تونس ومقرئيها للعربية والأدب قدم مكه والمدينة واستقر بالإسكندرية ، نوّه رحّالتنا به وذكر من شيوخه جدّه لأمه قاضي الأنكحة بتونس عبد الرحمن ابن عبد السلام ، وأبا عبد الله السوسي وأبا الحسن الأصبحي وأبا عمرو عثمان التميمي ومحمد بن حسن الكندي ، كما ذكر له من الأندلسيين ابن الأبار وابن بُرطُلة ، والتجيبي ، والبلفيقي ، وقال في الحديث عنه وتصوير مقدرته : أبو الحسن يبلغ من سرعة النظم وسهولته مبلغاً لم ينته أحد من أهل زمانه إليه مع ما جبل عليه من حسن الخلق حتى يقال : إنه لا يظهر عليه أثر الغضب لولا أن يعرف ذلك بحمرة تعتريه في وجنتيه .

ومن الكتاب والأدباء والشعراء : الأديب الفاضل الكاتب البــارع الحافل جمال الدين أبوعبد الله محمــد بن إبراهيم بن يحيي الأنصارى ، وهو معروف بالجمال المغربى ، وقد ذكر له ابن رشيد رسائل كثيرة وأجوبة من معاصريه عليها ، وعرف بمجلسه أبا عمــروعثمان بن سعيد ابن تولوا الأديب النحوى الذى كان صدراً من أهل إفريقية ، قبل أن يستوطن مصر والقاهرة.

ومن الأدباء رجال لقيهم ابن رشيد بالإسكندرية كابن التونسى .

والشيخ الأديب يوسف بن عبد العالى التيمى القاح ، أورد له قطعاً من شعره متميزة بصناعة التجنيس :

والشيخ الأديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبي الحسن على الخــزرجى الساعدى ، من أهل غرناطة ، قال ابن رشيد : شيخ صالح فاضل ، ثبت ، حاضر الذهن ، يتصرف فى حوائجه بنفسه ، عدل بالديار المصرية ، أديب ناظم ، مطيل مطيب ، وصف لنا ولعالم العامل . ثم أورد رحالتنا ذكر سماعاته ومن لقى من الشعراء والكتاب والعلماء ، وذكر له ديوانه المواجد الخزرجية . وأورد له ثلاثة قصائد عينية ورائية ولامية ، كما ذكر نتفاً من قصيدته المسمطة التى عارض بها عينية الحريرى ، وأبدى بعد ذلك إعجابه الكبير بقدرته الفائقة فى المدائح النبوية .

ومن الكتاب : الشيخ الأجل أبوالبدربدر الدين بن عبد الله بن أبى الزين ، لقيه صاحبنا بزاوية الامام الشافعى من جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر .:.

تلك هى صورة الحياة الثقافية كما تبدو فى أواسط العقد التاسع من القرن السابع بمصر والقاهرة والإسكندرية ، يقدمها ابن رشيد فى رحلته بعد تعرف ونقد وتمحيص فى أحوال الرجال وآثارهم . فلا تكون الترجمة لهم قصد التحلية والمجاملة ، ولكنها ترد منه بسخاء وقدر فى آن واحد لكل علم من الأعلام التى

ذكرنا بحسب منزلته ومقامه ودرجته ، وهو حين يورد السماعات الكثيرة ويذكر المشيخات ينبه على من انفرد بالغريب النادر منها أو العالى المتميز بينها ، وربما ناقش الأخبار التى ينقلها والسماعات التى يوردها ، مصححاً أو منقحاً ، ذاكراً المصادر والمراجع ولابدع فى ذلك ، فهو الحافظ الخبير بعلمى الرواية والإسناد ، العارف بالطرق والرجال ، المتقن لصناعة الحديث .

وفضل هذين الجزءين من رحلة ابن رشيد ، المتعلقين بالبلاد المصرية ، يبدو فى الوصف الدقيق الذى اشتملا عليه للمجالس العلمية وما كان يدور فيها ، والمنتديات الأدبية وما كان يعرض بها ، والأحوال العامة والخاصة من الرجال الذين نجد من بينهم التاجر ،وا المحامى ، والأمى العامى الراوية والرجل الزاهد الصالح ، والنبيه الوجيه ، والعالم المتفنن والحافظ المتقن والأديب البارع .

فكتب الطبقات لايمكن أن يستوعب واحد منها كل هذه الأصناف من الأعلام والرجال ولا يتأتى ذلك إلا لرحالة كلف بالرواية والسماع ، يعطينا عن مصرفكرة واضحة ، تصورهذه المراكز العلمية بها ، من مساجد ومدارس ومنتديات ودكاكين ومنازل ، كان يلتقى بهـا الصفوة من العلماء ، والنخبة من أهل الرواية والدراية ، المقيمين بهذه الديار ، أو الوافدين عليها من أهل المشارق والمغارب . ولا يمكن الجـزم بانحصار ألوان الحياة الثقافية فى ذلك العهد بمصر فى الإطار واللوحة التى رسمها ابن رشيد لها ، إذ من الجائز أن يكون ثمة وفى ذلك الوقت حظ للعلوم الرياضية والطبيعية والحكمية وغيرها . ولكن الذى يعنينا من هذا الثبت الذى تمثله الرحالة النظر إلى الحياة الثقافية بمصر فى أواخر القرن السابع من الزاوية التى نظر منها ابن رشيد لإبراز نقط الاهتمام بأنواع من العلوم ، وعدد من الرجال ، كانوا عنوان المعرفة ومصدرالثقافة الإسلامية فى تلك الديارآنذاك .

النظم الإدارية بمصر في القرن التاسع الهجري
من خلال كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب
لمحمد بن ابراهيم بن ظهير الحنفي الحموي

د. محمد الحبيب الهيلة

النظم الإدارية بمصر فى القرن التاسع الهجرى من خلال كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب لمحمد بن ابراهيم بن ظهير الحنفى الحموى

د. محمد الحبيب الهيلة

مقدمة

لئن كانت النظم الإسلامية فى العصور الأولى متشابهة أو متحدة تبعاً لاتحاد السلطة العليا التى بسطت نفوذها على كامل أو أكثر البلاد الإسلامية من دمشق فى عهد الأمويين أو من بغداد فى عصر العباسيين الأول ، فانها عند تشتت الشمل وتفرق الوحدة وتعدد الدول والإمارات ، بدأت كل واحدة من هذه الدول، المختلفة المشارب والاتجاهات، تتميز بنظم خاصة بها تعين على إبراز شخصيتها ، ومتطلبات ظروفها .

وقد وجد الباحثون صعوبة فى الظفر بالمعلومات الدقيقة التى تمكنهم من تصور كامل لخاصيات هذه النظم واختلافها بحسب الأقطار والأزمنة .

ورغم وجود عدد هام من الكتب القديمة التى تناولت موضوع النظم الإدارية بالدولة الإسلامية ، فانها كثيراً ما كانت تهتم ببعض النواحى دون بعض مع ما فيها من تناقل لنفس المعلومات التى تكون أحياناً عامة تعوزها الدقة المطلوبة من باحث معاصر لينتج عملا علمياً مركزاً .

وإذا ما فقدت بعض هذه الأقطار التآليف الكافية ، لإقامة تاريخ كامل يحدد نظمها الإدارية ، فإن فى المكتبة المصرية عدداً معتبراً من الكتب المتعلقة بالدواوين ، والآداب السلطانية ، وصناعة الإنشاء والنظم المالية والقضاء والخطط ، إذا ما أضفنا إليها ما حددته الكتب الفقهية على اختلاف مذاهبها فى أبواب المعاملات وغيرها ، تمكنا من تصور هذه النظم فى مختلف الحقب بصفة تكاد تكون كاملة الوضوح بالنسبة للبلاد المصرية ، وإن كنا فى بعض الأحيان نلفى بعض الفراغات التى لم نجد سبيلا لسدها وإكمالها ، وذلك مايفرض على المحققين والدارسين مواصلة البحث فيما بقى مغموراً من تراثنا حتى يقع كشف الغطاء عما له علاقة بهذا الموضوع .

وعملا على تحقيق خطوة متواضعة فى سبيل هذه الغاية ، أقدم مخطوطا احتفظت به دار الكتب الوطنية بتونس احتوى على بعض من المعلومات الدقيقة ، الخاصة بالنظام الإدارى المصرى خلال القرن التاسع من الهجرة ، وإن كان فى الكثير من فصوله يعتمد على كتب سابقة ، شأنه فى ذلك شأن جل التآليف المتناولة لنفس الموضوع .

ولست فى هذه الخطوة الأولى إلا عارضاً لما فى المخطوط من معلومات ، بعضها معروف متداول وبعضها انفرد به الكتاب ، حتى تساعدنى الظروف على تحقيق فصوله المتعلقة بالنظم الإدارية المصرية ، مع مقارنات بغيره من المؤلفات المشابهة ، وربما أكون عندها قد وفقت إلى ازالة أسباب الغموض المحيطه بشخصية المؤلف الذى وإن كان معروف الاسم فقد بقى عندى مجهول الترجمة

محاولة للتعريف بالمؤلف

هـو شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى الحموى مؤلف كتاب « روضة الأديب ونزهة الأريب » الذى نلفت إليه الانتباه لما جاء فى بابه الأول من معلومات عن النظام الإدارى بالبلاد المصرية فى عصره :

ورغم أننا بذلنا بعض الجهد فى البحث عن ترجمة للمؤلف فاننا لم نعثر عليها فى مكانها من كتب الطبقات ولم نتمكن من إثبات تاريخ محدد لحياته ولا لوفاته ولا لزمن تأليف الكتاب، غير أن AHLWARDT فى فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة برلين (٤ :١٠٩١١٠٨) يذكر أرجوزة الكفاية فى نظم بنت الغاية التى ألفها محمد بن الظهير مؤكداً بأن ابن الظهير هذا كان حياً سنة ٧٧٧، ١٣٧٥ اعتماداً على ما فى المخطوط ، وينقل الأبيات الأولى من الأرجوزة ونصها :

يقول راجى رحمة القدير ... محمد نجل فتى الظهير
الحمد لله على ما وهبا ... حمداً مباركاً كثيراً طيبا
وهذه أرجوزة مختصرة ... ألفاظها واضحة محورة
سميتها (....) الكفاية ... فى نظم بيت الغاية النهاية

وبالرجوع إلى حاجى خليفة نجده يذكر هذه الأرجوزة وينسبها أيضاً إلى شمس الدين محمد بن إبراهيم بن الظهير الحموى (كشف الظنون٢ :١٤٩٩)

غير أننا نشك فى صحة ما ذكره AHLWARDT ، وحاجى خليفة ، لأن الأرجوزة كتبت فى الفقه الشافعى ، فى حين أن مؤلف كتاب روضة الأديب حنفى ، كما أثبته هو بنفسه على نسخة مبتورة من روضة الأديب توجد بالاسكوريال ، وكما دل عليه كلامه فى مخطوطة تونس ورقة (٣٣ أ). وقد يقال أنه بالإمكان أن يجمع الشخص الواحد بين مذهبين اثنين ينتسب إليهما ، واشتهر بذلك أشخاص كثيرون تُرجموا فى طبقات المـالكية ، كما تُرجموا فى طبقات الشافعية كالإمام ابن دقيق العيد المتوفى سـنة ٧٠٤- ١٣٠٤ ، ولكن أموراً أخرى فى صلب الكتاب تجعلنا لانستطيع أن نجزم بصحة التاريخ الذى ذكره AHLWARDT وهو ٧٧٧ هجرى ، إذ أننا نجد المؤلف ينقل مرات من تاريخ العبر لابن خلدون ومن مقدمته ويقول فى ورقة (٣١٠ أ) : « انتهى ما قاله الإمام الحافظ ابن خلدون رحمه الله » . والمعروف أن ابن خلدون توفى سنة ١٤٠٦،٨٠٨ ، فاذا اعتبرنا أنه فى الإمكان أن يؤلف الأرجوزة قبل سنة ٧٧٧ بوقت غـير محدد ويؤلف روضة الأديب بعـد سنة ٨٠٨ بوقت غير محدد ، فإن فقـرة أخرى من المخطوط تشير إلى أنه كان حياً سنة ٨٧٠ ، وهو ماسنذكره فيما بعد :

ثم اننا عندما نقارن بعض فصول كتاب روضة الأديب بشبيهها فى كتاب «صبح الأعشى » ، نجد ما يدل على أن ابن ظهير سابق للقلقشندى ، حيث أنه فى الفصل الذى عقده لذكر الموظفين وأصنافهم يسند عنوان « صاحب الديوان » لمن سماه ابن ظهير « متولى الديوان » ، ويقـول ما نصه : وكانوا فى الزمن الأول يعبرون عنه « بمتولى الديوان » . ثم هو عندما يذكر وظيفـة « الصيرفى » يقول ما نصه : وكان يقال له فيما تقدم « الجهبذ » وهو نفس العنوان الذى أسنده ابن ظهير « للصيرفى » . وبالإضافة إلى ماسبق ، فنحن لانلقى ذكراً لكتاب صـبح الأعشى للقلقشندى الذى له من الشهرة والقيمة مالا يجوز أن يغفله المؤلف ، خصوصاً فيما يتعلق بموضوع الباب الأول من

كتابه ، فى حين أننا نجده يعتمد على كتاب الخراج للمخزومى والأحكام السلطانية للماوردى ومن المعلوم أن القلقشندى توفى سنة ٨٢١ ، ١٤١٨ ، ولكن عدم ذكره للقلقشندى وعدم استفادته من كتابه صبح الأعشى لايعتبر حجة على تقدم ابن ظهير عن القلقشندى ، إذ من الممكن أن يكون قد أهمل ذكره ،مثلما فعل مع ابن مماتى وكتابه قوانين الدواوين الذى لم يذكره ، رغم أنه نقل عنه فصولا وكاد نقله لها أن يكون حرفياً .

ثم إننا إذا ما بحثنا عن الأعلام المذكورة فى نص الكتاب ، وأفردنا منها أسماء السلاطين من المماليك ، وجدناه يذكر المعز أيبك ٦٤٨ — ٦٥٥ ، والمظفر قطز ٦٥٧ — ٦٥٨ والظاهر بيبرس ٦٥٨ — ٦٧٦ ، والمنصور قلاوون ٦٧٩ — ٦٨٩ والناصر محمد قلاوون ٦٩٣ — ٦٩٤ ثم ٦٩٨ — ٧٠٨ ثم ٧٠٩ — ٧٤١ والصالح اسماعيل ٧٤٣ — ٧٤٦ يذكرهم ويتحدث عنهم جميعاً بما يدل على سبق زمانهم ، وتقدم تاريخهم .

وبطريقة التتبع لما فى المخطوط من قوانين ومن قصص لم نعثر على ما يدل أو يشير إلى استيلاء الدولة العثمانية على البلاد المصرية وهو ما يجعلنا نجزم بأن المؤلف سابق لسنة ٩٢٣ — ١٥١٧ وتاريخ تأليفه للكتاب متأخر عن سنة ٨٠٨ — ١٤٠٦ .

وخلال الفصل الذى خصصه ابن ظهير للفرق بين الجسور السلطانية والجسور البلدية ، تطالعنا فقرة يمكن اعتمادها فى وضع تاريخ تقريبى لتأليف الكتاب وهذا نصها :

(وإذا كان مقطع الناحية سنة تسع وستين مثلا ، وله فيها قصب سكر ، وخرجت تلك الناحية لغيره لاستقبال سنة سبعين وثمانمائة ، فللمقطع الأول

سنى قصبه) . (انظر ورقة ٥ ا ب) ، فليس من المعقول ولا من الطبيعى أن يمثل المؤلف بسنة قبل حلولها بحقبة طويلة :

فلم يبق إذن شك فى عدم صحة نسبه أرجوزة الكفاية فى نظم بنت الغاية لمؤلف روضة الأديب ، رغم نسبتها له من طرف حاجى خليفة ، خصوصاً إذا علمنا أن اسم محمد بن ظهير فقط ، كما ورد على نسخة الأرجوزة ، وفى نصها خبر كاف لتعريف مؤلفها لأننا نستطيع أن نجد عدداً كبيراً من العلماء يمكن تسميتهم بمحمد بن ظهير ، من بينهم محمد بن أحمد المعروف بابن الظهير الأربلى المتوفى سنة ٦٧٧ ، ١٢٧٨ ، وصاحب قصيدة « تذكرة الأريب وتبصرة الأديب » التى توجد منها نسخة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٣١٢٩ ، وهو غير صاحبنا ، رغم التشابه فى الاسم ، إذا أهملنا ذكر الأب :

نكتفى بهذه المعلومات المحدودة عن حياة المؤلف ، حتى تمكننا الظروف من العثور على ترجمة كاملة له .

شخصية المؤلف من خلال كتابه

عندما نطالع كتاب « روضة الأديب ونزهة الأريب » نستطيع أن نكشف بعض الخطوط الواضحة الجلية لشخصية محمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى الحموى ، فرغم أنه اعتمد فى جل كتابه على جملة من التآليف السابقة ، فنقل منها حرفياً أحياناً ، وبتصرف أحياناً أخرى ، وهو مانبه إليه حاجى خليفة ، عندما ذكر الكتاب فقال : « جمع فيه بعض المختصرات » فان المميزات الشخصية للرجل ، ثقافية أو مذهبية ، تتضح لنا فى جلاء لأنه خلال هذه النقول كثيراً ما يطالعنا برأيه فى مسألة علمية أو أدبية أو بموقفه تجاه مذهب من المذاهب ، فلا يجد القارئ نفسه أمام ناسخ عادى أو جماعة فحسب ، بل أمام رجل اتسعت معلوماته ومطالعاته ، فقدم حصادها فى نظام مستحسن ، وعرضها فى أسلوب لايخلو من ذكاء وموضوعية .

كما نستطيع أن نلاحظ أن الظاهرتين الكبيرتين المسيطرتين على الكتاب ، هما الأخلاقية والتاريخية ، تليهما فى الدرجة ظاهرة الميل إلى الفقه ، ثم إلى النوادر واللغة والأدب .

وإذا ما حاولنا أن نستقرئ الكتاب ، ونستشف منه النوع : والمستوى الثقافى للمؤلف كان علينا أولا أن نلقى نظرة على مجموعة عناوين الكتب التى اعتمدها . ورغم أن هذه الكتب التى ذكرها عند النقل عنها ليست كل

المصنفات التى استغلها ، فهى تصور جانباً من ثقافتــه الشخصية ، استعماله لإنجاز تأليفه هذا تبعاً للموضوعات التى اهتم بها .

مع الملاحظة بأنه لايذكر مصادره إلا فى القليل النادر ، إذ أن أكثر قصصه التى يرويها وجل أخباره التى يوردها ، لم ينسبها إلى مصادرها ، رغم كثرتها وتنــوعها .

لقد كان الرجل واسع الاطلاع ، متشعب المعارف ، يجمع فى جرابه زاداً من شتى أنواع الثقافة ، ومختلف المعلومات :

ورغم أن هذا النوع من التآليف لايحتاج إلى ذكر واستعمال كثير من الكتب الشرعية ، فقد جعل كل آرائه الاخلاقية منبثقة ومعتمدة على الشريعة. فهو يفتتح كل أبوابه وفصوله المتعلقة بالمسائل الأخلاقية بآيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية كثيرة مناسبة لها. ثم هو فى غيرها من الفصول لايترك فرصة تمر دون إثارة بعض المسائل الفقهية أو الأصولية ويعرضها بطريقة موسعة مفصلة على المذهبين الحنفى والشافعى ، مما يدل على معرفته بهذين المذهبين اللذين انتشرا فى عصره، مع عدم اهتمام منه بالمذهب المالكى وإهمال تام لمذهب الإمام ابن حنبل . ونستطيع أن نميز تمكنه من المعارف الدينية العقائدية عندما نطالع الفصول الأولى من الباب الرابع التى يتناول فيها طرق النظر والاستدلال وقضية الاعتقاد وتفسير النبــوة والتمييز بين الفــرق الإسلامية وذكر العقيدتين النصرانية واليهودية والرد عليهما :

أما ثقافته الأدبية ، فينم عنها مافى الكتاب بصفة عامة ، وما فى البــاب الثانى بوجه خاص من تعريف بالذوق الأدبى وأنماط البلاغة ، مع كثرة إيراده للآراء والنصوص الأدبية من شــعر ونثر ، تشهد له بذوق وبوجهة

نظر نقدية ، لا تخلو من دقــة وعمق ، إذا ما راعينا الميول الأدبية السائدة فى عصره .

وأحياناً يصدر بعض الأحكام الدالة على مستوى لائق ، من ذلك مثــلا أنه يورد قصة بعض الأكابر مع أعرابية نقلا عن كتاب العقد الفريد ويعلق عليها بقوله : والذى أعتقده أنها موضوعة . وهــو فى أكثر الحالات يورد القصص والنصوص التى تناقلتها كتب الأدب ولايذكر عناوينها إلا لمــاماً . فما نص عليه من مصادره : العقد الفريد (٢٣ — أو ٨٠ — ب) ، وشرح لامية العجم للصلاح الصفدى (١٠٨ — أ) ، وزهر الآداب للحصرى القيروانى (١٣٠ — أ) ، والبيان والتبيين للجاحظ (١٣١ — ب) .

ومع أن تأليفه ليس كتاب تاريخ ، فانه استعمل عدداً هاماً من كتب التاريخ ككتاب الأخبار للزبير بن بكار (١٣٥ — ب) ، وفتوح العــراق للهاشمى (٢٢ — أ) ، وتاريخ الطبرى (٣٦ — ب) ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته (٣١٠ — أ ، ٣٢١أ — أ ، ٣٢٦ — ب) ، ولم يتخذ المــادة التاريخية غاية فى فصوله ، وإنما جعلها حجة يدعم بها مبدأ أخلاقيا ، أو رواية يذكر بها تطوراً سياسياً ونظاماً إدارياً ، أو قصة يضيفها إلى مجموعة الملح والطرف .

أما اللون السائد على أكثر فصول الكتاب فى كل أبوابه ، فهو الإكثار من عرض القصص الغريبة الطريفة ، أو ذات المغزى الأخلاقى السلوكى ، يقدمها بطريقة شيقة ويقحمها فى ما يعرضه بوجه يجعل القارئ لا يشعر بأنه ينقل عن المصادر السابقة ، ويختار منها فى جل الأحيان ما كان غــير شائع الاستعمال ، وما كان طريف الحوادث ، غريب النتائج ، بليغ الحوار ، تخفيفاً على القارئ ، وترويضاً للذهن ، وتمكيناً من الفائدة . هذا الاختيار البــارع والعرض الجذاب ، يجعلنا نكشف جانباً آخر من شخصيته ، ويفرض علينا

أن نعتبره من أهل الظرف شبيهاً بالوشاء صاحب كتاب الظرف والظرفاء ، وغيره من ذوى الميول إلى النوادر والطـــرف ، فيستعملونها درساً وعبرة ، أو دليلا وحجة ، أو ترفيهاً وتنشيطاً ، وقد استغل لهذا الغرض كتباً تاريخية كثيرة ، ومؤلفات أدبية جمـــة ، وتصانيف أخلاقية ، كالبصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى (١٤٣ — أ) ، أو كتاب الهفوات لمحمد بن هلال الصابى (١٤٧— ب، ٢٥٦ — ب)، وكتب نوادر وملح كالبخلاء للجاحظ (١٤٥—ا) والأذكياء لابن الجوزى (١٢٤ — ب) والتحف والطرف للدارمى (٣١٧—أ).

بقيت جوانب أخرى من شخصيته واتجاهاته ، ظهرت واضحة فى تأليفه هذا ، منها موقفه من استخدام الأقباط والنصارى فى الدواوين الحكومية . فهو لا يألو جهداً فى الإنكار على بعض الملوك ممن استخدموهم فى إداراتهم ويحاول خلال فصول الباب الأول اتهام جميع الموظفين الحكوميين من غـــير المسلمين بالخيانة والغدر ، ويحذر ذوى السلطان من انتدابهم للوظائف الهامة بالدولة ، مستدلا بأمثلة متعددة لموظفين ثبتت إدانتهم ، ثم يعود مرة أخرى لنفس الموضوع خلال الباب الرابع بمناسبة ذكره للأديان والرد عليهـــا ، فيعقد فصلين لهذا الغرض هنا :

(١) فصل فى من ولى منهم شيئاً من أمور المسلمين .

(٢) فصل فى من أســـلم منهم خبثاً ونفاقاً ليبلغ غرضه .

أورد فيهما قصصاً كثيرة ، وحوادث متعددة ، مبيناً بالأدلة المنطقية ، والتجربة التاريخية خطرهم على الدولة الإسلامية .

ولعل موقفه هذا يمكن أن يعدّ من الأسباب التى دفعته إلى وضع الباب الأول من الكتاب الخاص بالسياسات ، وكأنه يريد أن يقيم الدليل على أن هذا الميدان ليس من اختصاصات غير المسلمين .

وإذا كان مافى الكتاب يدل على مستوى ثقافة المؤلف ، واتساع معلوماته وإحاطته بجانب عظيم من الحضارة الإسلامية بالمشرق ، فإننا لم نجد فيما وقفنا عليه شيئاً يدل على معرفته بهذه الحضارة الإسلامية فى المغـرب والأندلس ، فثقافته من هذه الوجهة محدودة جداً ، مماجعله لا يروى من الأخبار المغربية الأندلسية إلا مقداراً ضئيلا وأحياناً يتهم أهل الجناح الغربى بالعقم العلمى ، وينسبهم إلى البداوة ، وربما كان فى ذلك مثل البعض من المتحاملين المتعصبين ممن يعتقدون أن الحياة الثقافية والعلمية استقرت فى الجناح الأيمن ، وانعدمت من الجناح الأيسر ، ونحن إذا ما نزهناه عن التعصب والتحامل ، فلا سبيل إلى تنزيهه عن الجهل بهذا الجانب الهام من الثقافة الإسلامية العربية .

هذه لمحات عن بعض الجوانب من شخصية مؤلف كتاب « روضة الأديب ونزهة الأريب » .

الكتاب

هو « روضة الأديب ونزهة الأريب » .

تأليف شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى الحموى .

توجد منه ثلاث نسخ مخطوطة :

النسخة الأولى

تحتفظ بها دار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ٣٧٨٠ ، وهى حديثـة الكتابة ، تم اقتناؤها يوم ٢٠-١١-١٩٦٦ ، مقاسها ٢٣ × ١٥,٥ ، مسطرتها ٢١ ، عدد أوراقها ٣٥١ ، بها نقص بين ورقتى ١٠٠ و ١٠١ ، خطها تونسى غير جميل ، الناسخ مجهول الاسم ، ذو ثقافة محدودة . كثيراً ما يقع فى أخطاء رسمية ولغوية ، وأحياناً يكتب الأبيات الشعرية على طريقة النثر ، وإذا لم يفهم بعض الاصطلاحات أو الكلمات الغامضة ينقلها مشوهة ، على الورقة الأولى

من النسخة نص تملك ممحو لم تبق منه إلا العبارات التالية : « هذا كتاب ...... محمدبن الحاج » ، لم يذكر اسم المؤلف فى الغلاف ولا فى المقدمة ، ولا ضمن بقية ورقات المخطوط ، وهى نسخة منقوصة الآخر لم تحتو إلا على الأبواب الأربعة الأولى ، رغم أن المقدمة تفيد أن الكتاب يشتمل على ثمانية أبواب .

النسخة الثانية

محفوظة فى مكتبة المخطوطات العربية بالاسكوريال تحت رقم ٥٠٠ ، مسطرتها ٢٧ ، وعدد أوراقها ٢٣٨ ، وهى قديمة بخط المؤلف الذى كتب فى آخرها ما يلى : (على يد كاتبه ومحــبره ومؤلفه ... محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى) . لا تحتوى هذه النسخة إلا على البابين السادس والسابع فقط من الكتاب . ولما وجد ديرانبور « DERENBOURG » فى آخر النسخة عبارة (إن شاء الله) مسبوقة بمحو استنتج أن ذلك المحو هو تمام لجملة نصها : (ويتلوه الجزء الثالث إن شاء الله) ، وهو أمر غير مستبعد ، إذ من الممكن أن يكون المؤلف قــد اضطر لتقسيم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، نتيجة لضخامتــه .

النسخة الثالثة

توجد باسطنبول ، ذكرت فى فهرسة أسعد افندى ، وأشار إليهــا « بروكلمان » فى ملحقاته (٢ : ١٠٢٦) لم نتمكن من الاطلاع عليها ، ولا على وصف لها .

تحقيق نسبة الكتاب للمؤلف :

نظراً لعدم إثبات الناسخ لاسم المؤلف على النسخة التى بين أيدينا فاننا نستطيع أن نعتمد فى تحقيق نسبة الكتاب له على أمور ثلاثة :

(١) مطابقة العنوان الذى ذكر فى المقدمة لعنوان النسخة التى كتبها المؤلف بخطه ، والموجودة بالاسكوريال .

(٢) ما يوجد فى نسخة الاسكوريال التى كتبت بخط المؤلف ، وذكر اسمه عليها بنفسه . ويزيدنا يقيناً فى ذلك ان عنوانى البـاب السادس والسابع الموجودين فى هـذه النسخة ومحتواها ، يطابق ما ذكر فى فهرسة النسخة التونسية الواردة عقب المقدمة ونصها :

(وفهرسة هذا الكتاب ثمانية أبواب : الأول فى السياسات ، الثـانى فى الأدبيات ، الثالث فى الأخلاق المحمودة والمذمومة ، الرابع فى فوائد يتيمة الزمان وفرائد نزهة الإخوان، الخامس فى عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، السادس فى الفرج بعد الشدائد والكربات ، السابع فى تحفة الشباب[1]) .

وفى نسخة الاسكوريال ما نصه :

(كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب ، فيـه ذكر ما يتعلق بالفرج بعد الشدائد ، و ما يتعلق بالشباب والشيب وأوصاف النساء ، وذكر أنواع الجماع ، وذكر الشعراء وملحهم من الألغاز وغيرها ، وذكر الحمق ونوادرهم وغيرها من المقامات والأشعار واللطائف) .

وهكذا يظهر لنـا الاتفاق بين فهرسة المخطوطة التونسية ، وما ذكر فى عنوان المخطوطة الأندلسية .

(٣) ما ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون (١ : ٩٢٣) وأثبت فيـه نسبة الكتاب للمؤلف بما نصه :

(روضة الأديب ونزهة الأريب للشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى ، وهى مجموعة أولها : أما بعد حمد الله الذى منّ علينا بفضله الخ ....) .

---

(١) كذا بالأصل لم يذكر بقية عنوان الباب السابع ولا الباب الثامن وعنوانه ولعل الناسخ أسقط سطرا كاملا .

ولكننا إذا ما نظرنا إلى أول المخطوط الذى بين أيدينا، لاحظنا اختلافاً بينه وبين ما نقله حاجى خليفة مما أوردناه سابقاً ، حيث أن هذه النسخة مبـدوءة بقــوله :

(أحمــدك اللهم أن بعثت قريحتى على التقاط درر الفوائد ، وأشكرك إذ هديتنى إلى اقتفاء آثار أهل الأدب ، ونظمها فى سلوك المقاصد) ، ولكن هذا الأختلاف يجب أن لا يضعف يقيننا فى صحة نسبة الكتاب لصاحبه : إذ من الممكن أن يكون المؤلف قد كتب نسختين اختلفت بداية المقدمتين فيهما. ولعلنا نلقى المزيد من التحقيق فى النسخة التى احتفظت بها مكتبة أسـعد أفندى وأشار لها بروكلمان .

محتوى المخطوط :

سبق أن أشرنا إلى ان المخطوط الذى بين أيدينا لايحوى غير الأبواب الأربعة الأولى من الكتاب ، وقد رأينا أن نفهرسها حتى نستطيع أن نكون فكرة عن المـادة التى تضمنها ،والموضوعات التى تناولها :

فهرسة الكتاب

١٧٩ ــ ب فصل فى ذم البلادة

١٨٣ ــ أ فصل فى من تخلص من يد الملوك وذوى الأقدار بالبلاغة وحسن الإعتــذار

١٨٥ ــ ب « « نجابة الأبناء

١٩٣ ــ ب « « فضائل الأجواد من السلف

٢٠٥ ــ أ « « اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف :

٢١٢ ــ ب « « الحلم وطيب ثمرته .

٢١٤ ــ ب « « مدح الجواب إذا وافق الصواب

٢١٧ ــ أ « « ذم من أخطأ فى ســؤال وجواب وظن أن كلامه عين الصــواب

٢١٩ ــ أ « « مدح السخاء

٢٢٣ ــ أ « « ذم المن

٢٢٣ ــ ب « « ذم المطل بالمعروف

٢٢٦ ــ أ « « فيما يتعين على المرء من شكر النعم

٢٢٥ ــ أ « « ذم السرف والتبذير

٢٣٤ ــ أ « « مدح الشجاعة

٢٤٠ ــ أ « « ذكر ما وقع فى الحروب من شدائد الأزمات والكروب

٢٤٨ ــ ب « « ذم الجبن

٢٦٠ ــ ب « « مدح من قبل من المسيء الإعتذار

٢٥٧ ــ أ « « فيما استحسن من لطيف الإعتذار

٢٥٨ ــ ب « « ذم العفو ، عمن انتهك حرمة الإيمان ، مصراً عليها

٢٦٠ ــ ب « « « الإنتقام والتشفى

٣٥٠ ـ أ فصل فى أخبار الصالحين (وهو خاتمة هذا الباب) :

وبمطالعة هـذه الفهرسة نلاحظ أن الكتاب يجمع مسائل شتى ومعلومات مختلفة ، حتى يكون للأديب روضة متعددة الألوان الثقافية . فمن بحوث حضارية وتاريخية ، إلى مقتطفات أدبية وفصول أخلاقية وعلمية ، تتخللها نوادر وحكم وأمثال ، مع إكثار من إيراد القصص والملح والطرف حتى تكاد لاتخلو ورقة فيه من قصة مناسبة أو نادرة مستحسنة ، وهو مايطابق قول المؤلف فى مقدمة الكتاب : (وبعـد ، فلما كانت العلوم وصنوفها مختلفة الشعوب ، متباينة الأسـلوب ، ومتعددة الضروب ، لا تنضبط بكتاب ولا تنحصر بمكتوب ، صارت النفس الزكية تترنح باقتطاف زهر الآداب ، وتسارع لاجتناء ثمر الفوائد ـ جهد الطاقة ـ من كل باب ، فاستخرت الله وجمعت منها كل نوع جليل ، وضمنت هذا الكتاب بحسب ما سمح لى من اختصار وتطويل ، وأنى قصصت بهـذا أحسن القصص فانى جمعتهن جمـع الطير فى القفص ، من فضالة الفضلاء ، ونفث نفوس العقلاء ، ولو أذن الله سبحانه لكل كلمـة منهن أن تذهب إلى مكانها لخـلا الوزن عنهن كما لو ترك القفاص كل طائر وشأنه ، لعاد كل هذا الطير إلى مكانه) :

وهكذا يوضح لنا المؤلف غايته من وضع الكتاب الذى أراد أن يجعله جامعاً لصنوف من المعارف النافعة فى عصره ، فوجدنا فى البـاب الأول الخاص بالسياسات مادة هامة ، تتعلق بالنظم الإدارية المصرية وتطورها بوجه لا يخلو من وضوح نسبى وهو ما يجعلنا نعتبر هذا الباب وثيقة جديدة عن هذه النظم ، نضيفها إلى جملة الوثائق الأخرى ـ سابقة كانت أو لاحقة ـ فهى تفيدنا بعض الإفادات الدقيقة وتنفرد ببعض المعلومات عن الإدارة المصرية فى القرن التاسع الهجرى .

ومما يوطد ثقتنا فى صحة مادة الكتاب ومعلوماته ، أن المؤلف لم يكن كغيره من مؤلفى كتب النظم السلطانية والديوانية ، ممن يصنفون كتبهم استجابة لرغبة السلطان أو تقرباً منــه ، حتى تكون تآليفهم دليلا على حذقهم وحسن معرفتهم بالنظم الإدارية ، ليحافظوا على مراكزهم السامية فى دواوين الدولة — إن كانوا موظفين — ولترشحهم كتبهم لمهام سامية طمحت لها نفوسهم ، وذلك ما يجعل أكثرهم يحشرون فى تآليفهم صنوفاً من المدح والإطراء للأمير الذى ينسبون إليه — بحق أو بغير حق — كل ضروب الكمال ، ويجعــلونه مصلحاً لمــا فسد من الأوضاع الإدارية ، فيضطرون إلى الإغضاء عن العيوب ويتحاشون ذكر النقائص والسقطات .

أما صاحب « روضة الأديب » فلم يكن مثل هؤلاء ، فان موقفه من رجال السلطة فى عصره تجاهل كامل ، فلم يورد لهم ذكراً ولا مدحاً ، بل اكتفى بعرض معلوماته مجردة عن الرأى الشخصى ، إلا ما كان يفهم من استنكاره لحالة من حالات الإدارة فى عصره ، مثل قوله بعد ذكر الوجوه التى يجب أن تصرف فيها أموال الجزية : « أما الآن فقد تغير ذلك ولله الأمر من قبل ومن بعد » . ذلك أنه لم تدفعه لتأليف كتابه مطامع شخصية ، أو غايات ذاتيــة ، تجبره على مداراة السلطة الحاكمة ، وإنما كان غرضه من إيراد هذا الباب الأول الخاص بالسياسات يندرج ضمن الغاية العامة التى قصدها بتأليفه للكتاب من جمع لشتى أصناف الفوائد . ولعل تقديمه لموضوع السياسات على غــيره من المواضيع الأخرى ، يمكن أن يدلنا على اعتنائه بهذه الناحية أكثر من غيرها .

ولئن كنا لا ننكر أن الكثير من المعلومات التى يحويها الباب الأول معروفة من مصادر أخرى سابقة ، فاننا نستطيع أن نعتبره دليلا على بقاء استعمال بعض النظم الإدارية فى عصره ، رغم أنها مما كان معمولاً به فى القرن السادس مثلا.

فإيراده لهـذه المعلومات المقدمة التاريخ يجب أن لايعد مجرد نقل ونسخ أو أن يعتبر أمراً عديم الفائدة . إنما هو دليل على استمرار العمل بتلك الأحكام والقوانين ، ودوام استعمالها ، وإذا ما وقع تغيير فيها ولو جزئيا أشار إليـه أحياناً ، وفى حالات أخرى يعرض عن ذكر التجديد والتغيير الحادث فى عصره . ويكتفى بقوله : « وصار الأمر إلى ما نراه الآن » ، وهو ما ذكره عند الحديث عن السرير السلطانى .

وابن ظهير فى هذا الباب الأول يسلك مسلك أمثاله من المؤلفين فى نفس الموضوع ، فيعتمد فى فصوله على القواعد الشرعية الفقهية أولا ، ثم يذكر بعد ذلك النظم التى يجرى بها العمل فى عصره ، متطرقا خلال ذلك إلى التغييرات التى طرأت عليها كما ترويها كتب التاريخ ، فيعطى الأهمية الكبرى للأحكام الفقهية ، وكأنه يريد أن يقدم لقرائه صورة للدولة الإسلامية المثلى ، المرتكزة على الأسس الشرعية . ولعلمه بأن اقتصاد البلاد المصرية يعتمد بصفة رئيسية على الزراعة ، اعتنى كثيراً بهذه الناحية من الخراج وحدد الضرائب الموظفة على جل أنواع المزروعات بمصر وذكر أوقات بذرها وأوقات الجنى ، حتى يعرف الموظفين أوان استخلاص هذه الضرائب .

وإذا كان ابن ظهير قـد ذكر فى كتابه أنواعاً كثيرة من المـوظفين والمستخدمين فى مختلف الدواوين فى عصره ، فإننا بالمقارنة الأولية لمـا ورد فيه من جهة أولى ، مع ماجمعه الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والدكتور على إبراهيم حسن فى كتابهما عن النظم الإسلامية ، ومن جهة أخرى مع كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، لاحظنا أن مؤلفنا أهمل ذكر عدد من موظـفى الدولة ، كما أهمل ذكر عدد من المنشآت الإدارية .

فممن لم يذكره من الموظفين :

النائب : وهو الذى يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ، ويسمى السلطان الثـــانى .

وزير الصحبة : وهو الذى يصاحب السلطان فى أسفاره وحروبه .

ناظر الخاصة : وهو من كبار الموظفين ، رتبته تلى رتبة الوزارة .

الحاجب : وهو الذى يأذن للناس فى المثول بين يدى السلطان .

الأستادار : وهو المكلف بإدراة القصر

الدوادار : وهو الذى يبلغ الرسائل للسلطان ، ويقدم له المنشورات ليوقعها

الأميرجاندار : وهو الذى يأذن فى استقبال رجال الدولة .

رأس نوبة الأمراء : وهو رئيس أمراء الدولة ، يحاكم المماليك عند نشوب خلاف :

أمير المجلس : وهو مكلف بحراسة شخص السلطان .

طبقتا كتاب ديوان الإنشاء وهما : ا — كتاب الدست ، ب — كتاب الدرج .

ومما لم يذكره من المنشآت الإدارية : البريد — البحرية وإمره الأسطول — الشرطة — صاحب العسس — الديوان المفرد — ديوان الأملاك .

عرض لما فى الباب الأول من معلومات عن النظم الإدارية

الباب الأول فى السياسيات

السلطان

يحتوى هذا الفصل على :

أ — تعريف لوظيفة السلطان .

ب — ثمرة السلطنة .

ج — الصفات التى يجب أن يتحلى بها .

د — ما يتعين عليه أن يعتنى به فى إدارة سلطنته .

ﻫ — نصائح وتوجيهات فى الناحيتين الأخلاقية والإدارية .

* * *

أ — السلطان هو القائم على رعاية العباد ، وحفظ أحكام الله وحراسة دينه ، ولذلك اختص بالحكم :

ب — ثمرة السلطنة : حراسة البلاد — سلامة النفوس — حفظ الأموال — تنمية الأرزاق — نشر العلم — إظهار الدين — قمع الظلمة ومنع — المعتدين أمن السبيل :

ج — على السلطان أن يتحلّى بالأخلاق الفاضلة وهى : أن يتجنب العجب والكبر والغرور ، والشح والكذب (مع أدلة من القرءآن والحديث

وقصص الملوك الأقدمين ، والخلفاء الأول) ، وعليـــه أن يكثر من الصمت ويمنع نفسه من الغضب ، ويسعى فى استمالة الأعداء ، ويكتم السر مع الإحتراز والحذر ، ولا يكثر من اللهو ، ويستعين بالأكفاء ،ولا يقدم هواه على مصالح الشريعة والمملكة .

د ـ على السلطان أن يعتنى بأمور عشرة :

(١) حفظ بيضة الإسلام بالأسرار والجنود ، وآلات الحرب والأستعداد للطوارئ وإرهاب الأعداء .

(٢) العناية بالولايات واختبارها .

(٣) الحزم فى دفع المفسدين ، وردع المعتدين .

(٤) إقامة حدود الله .

(٥) التمسك بحبل الشريعة .

(٦) إقطاع الأمراء والأجناد ، وضمان أرزاق الموظفين ، ووضعهـــم بحسب منازلهم .

(٧) الاعتناء بموارد بيت المـــال ، ومراعاة العدل فيها .

(٨) استخدام الأمناء ، والأكفاء ، والنصحاء .

(٩) الاعتناء بأمور العامة ، إذ عليه أن يخصص وقتاً معيناً للنظر فى المظالم

(١٠) الإطلاع عن ماحدث فى البلاد حتى يتجنب الثورات والانتفاضات.

هـ ـ ثم ينصح السلطان بما يلى : العدل ــ المعرفة بالقواعد الدينية ــ طاعة الله ــ الشفقة بالرعية ــ دفع الظلم عنهم ــ مجاهدة الكفار ــ المساواة بين القوى والضعيف ــ حسن اختيار الموظفين السامين كالوزير وكاتب الإنشاء ، وكاتب الجيش ، ومستوفى بيت المـــال .

طبقات الموظفين
(أو التقسيم الإدارى)

قسم الموظفين إلى طبقات خمس هى :

الطبقة الأولى — الوزارة .

الطبقة الثانيـــة — كتابة الإنشاء .

الطبقة الثالثـــة — كتابة الجيش .

الطبقة الرابعة — كتابة ديوان الأموال .

الطبقة الخامسة — الحاشيه .

الطبقة الأولى

الوزارة

تقسم إلى قسمين

(١) وزير تفويض : يفوض إليه الملك جميـــع شئون الدولة ، ولا بد لانعقادها من عقد وتصريح يتلفظ فيه الملك بقوله: قلدتك ما إلىّ نيابة عنى — أو : استنبتك فى ما إلى — وإذا قال له : فوضت إليك وزارتى ، أوفوضت إليك الوزارة ، ففى المسألة خلاف ، والمختار أن وزارة التفويض تنعقد بذلك .

وهذ التفويض يتناول التصرف فى أمور الدولة من تولية وعزل ،وإطلاق وبذل ، واستخدام وقطع وإعطاء ومنع ، ونقص وزيادة ، وإبداء وإعاده ، والتسلط على كل ما للسلطان فعله من أمور المملكة ، إلا على أمرين : همـــا إقامة ولى العهد ، وعزل ولاة السلطان .

وعليه أن يطلع السلطان على ما ينفذه من شئون الدولة ، ليتأملها فيوافقه عليها ، أو ينقض أوامره .

(٢) وزير تنفيذ — وهو واسطة بين السلطان وبين الرعية — يتلقى أوامره فينفذها ، ويعلمه بما يرد عليه من رسائل وأخبار ، يقع تعيينه بمجرد تكليف من السلطان دون عقد أو تقليد بل يكفى فيها مجرد الإذن

لا يباشر الحكم بنفسه ، ولا ينظر فى المظالم ، ولا يقيم الموظفين ، ولا يدبر أمر الجيش أو الحرب، ولا يتصرف فى أموال الدولة بالقبض أو البسط .

ويشترط فيه الإسلام خلافاً للماوردى .

الطبقة الثانية

كتّاب الإنشاء

- أول من وضع الخط العربى .
- كتاب الرسول .
- ثم عرف الكاتب بأنه عضد معين وعون مساعد لا غنى للملك عنه ، وهو من أكبر أعوانه .
- شروط براعته : حفظ القرآن ومعرفة أسباب النزول .

معرفة السنة النبوية من قول وفعل .

الأطلاع على سيرة الملوك الأول وأيام العرب .

سعة الأطلاع على الحكم والأمثال و أشعار العرب ليكون بليغاً .

- إذا كلفه السلطان كتابة رسالة،عليه أن ينجزها فى لغة بليغة وأسلوب فصيح ، يسير فيه على المسالك البلاغية ، وشعاب البلاغة عشرة وهى :

الاستعارة .

التشبيه .

الكناية .

الإيجـــاز .
الإطنـــاب .
المغـــالطة .
التضـــمين .
الإســـتدراج .
حسن المبادئ .
حسن التخلص .
(مع تعريف كل واحد منها ، والتمثيل له) .

ثم عاد إلى الموضوع فى الباب الرابع (٢٧٩ أ) فنقل رسائل الرســول ، وانتقد ملوك زمانه فى اختيار كتاب « ديوان الإنشاء » من النصارى واليهود ، داعياً إلى وجوب محاسبتهم ، ومصادرة أموال من ظهرت خيانته ، وبهــذه المناسبة يذكر : إن نهاية ما يكون للكاتب فى الشهر عشرة دنانير إلى ما دونها (ورقة ٣٠١ أ) ، ويعود مرة أخرى إلى نفس الموضوع ، فيعقــد فصلا خاصاً بوصف الكتاب والكتابة (ورقة ٣٢١ أ) نقل منه كثيراً عن مقــدمة ابن خلدون .

الطبقة الثالثة

كتابة الجيش

إن حراسة المملكة وسياسة الدولة، تعتمد على حفظ أمور الجيش التى هى : ترتيب أموالهم وأعطائهم منازلهم على قدر صفاتهم، تميزهم بأسمائهم وتعريفهم بأوصافهم وصلاحهم، وضبط مقادير إقطاعهم ونفقاتهم ورعاية تمادى مددهم وأوقاتهم :

يعتبر فى قبول المجندين خمسة شروط :

(١) الإسلام :

(٢) البلوغ :

(٣) السلامة من أسباب العجز ، كالعمى ، وكل ما يمنع القتال .

(٤) أن يكون قوياً على القتال ، عارفاً به ، غير جبان .

(٥) الحرية شرط عند الشافعى ، ولم يعتبرها أبو حنيفة .

فاذا توفرت هذه الشروط ، وطلب أن يكون فى الخدمة العسكرية ، مع خلوه من الشواغل ، يستجيب ولى الأمر لطلبه إن كانت له حاجة ، فيثبت اسمه فى السجل ، ويلحقه بمقدم أو رقيب .

نظام الجندية وترتيبه

يعتبر ترتيب الجند من ناحيتين عامة وخاصة ، وهو ترتيب يتعلق بالعطاء :

الناحية العامة : فإن كانوا جميعاً من العرب ، يقدم الأقرب من شجرة الرسول ، وإن لم يكونوا من العرب اعتبر تقدمهم فى الإسلام .

فان استووا فيه يعتبر قربهم من السلطان

فان استووا فيه يعتبر أعلاهم درجة فى طاعة الله .

الناحية الخاصة : فان استووا فيما سبق يعتبر السن ، ثم الشجاعة ، ثم النظر لولى الأمر ، إن شاء بالقرعة ، أو بالاجتهاد .

مرتبات الجيش

تعطى مرتبات الجيش باعتبار ما يحتاج إليه كل واحد منهم لنفسه وأولاده وأرقائه ودوابه ، من طعام وكسوة وعلوفة ، باعتبار غلاء المعيشة ورخصها ، مع زيادة عن ذلك بمقدار احتياطى ، لما عسى أن يولد له من أطفال ، كل ذلك لمدة سنة ، ويعطون هذا المرتب فى وقت معين من السنة .

إذا أراد الأمير إخراج جندى من ديوانه ، لا يجوز له ذلك إلا إذا ظهر منه ما يوجب الطرد ، أو حدث عذر يقتضيه .

وإذا أراد الجندى الاستقالة من الخدمة العسكرية والانقطاع عنها جازله ذلك ، إذا لم تكن لديوان الجيش به حاجة .

إذا امتنعت طائفة من الجيش من مقابلة العدو ، فان مرتباتهم واستحقاقاتهم تسقط إن كانوا أكفاء لذلك العدو ، وإن كانوا أضعف منه وأقل عدداً ، فليس للأمير إسقاط مرتباتهم .

الطبقة الرابعة

كتابة ديوان الأموال

— لا يتم نظام الدولة إلا بالأمن والأجناد، ولا يتم أمر الجيش إلا بالأموال .

— أكبر موظفى هذه الإدارة يسمى صاحب الديوان ، أوكاتب بيت المال.

— كتابة ديوان الأموال فرع من فروع الوزارة ، ومتوليها يحمل أكبر أعباء الدولة ، لأنه مطالب ببذل الجهد لنمو الدولة ، وحصر مصادر الأموال واستخلاصها ، مع مراعاة الإنصاف والعدل .

موارد بيت المـــال هى :

الجزية — الخراج — العشور — الأجور — الزكاة — الأثمان — المقاسمات — الغنيمة — الفئ

الجـــزية

عرفها واستدل عليها بالآية القرآنية (سورة التوبة رقم ٢٩) ، ثم ذكر أنها تجب على اليهود والنصارى والمجوس (وفى السمرة والصابئه خلاف) ، ولا تؤخذ من العاجزعن الكسب ، كالصبى والمرأة والمجنون ، والعبد والخنثى مشكل .

مقـــدارها : أقلها دينار ، وأكثرها مفوض إلى الإجتهاد . والأولى تكون حسب الترتيب التالى :

(١) الفقير المكتسب دينار .

(٢) المتوسط ديناران .

(٣) الغنى أربعة دنانير :

ويمكن تعويض الدنانير بالدراهم (الدينار = ١٢ درهماً) .

لا يسقط أداء الجزية على الكافر إلا إذا أسلم ، أو أصيب بما يجعله عاجزاً عن الكسب ، أما إذا افتقر يترقب حتى يصير موسراً .

-عرض تاريخى لقضية الأسعد بن السديد وزير المنصور قلاوون وإنقاصه من الجزية ، ثم مصادرة الكتاب من النصارى من طرف الشجاعى ، ثم حال الجزية فى عهد دولة الصالح اسماعيل ، إذ تكلف بهـا القاضى ضياء الدين المحتسب الذى نظم أمرها ، ثم كان يحمل ما يتحصل منها إلى الخزانة ضمن أكياس صفر ، تصرف منها كلفة السماط الذى كان يسمى (سماط الحلال) ، وبلغت قيمة الجزية فى عهده ١٦٣ ألف درهم .

وفيما يخص عصره فهو يكتفى بقوله : أما الآن فقد تغير ذلك ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الخـــراج

عرف الخراج بأنه المال المؤدى عن الأرض بشرط مخصوص . ثم قسم الأراضى إلى أربعة أنواع :

(١) الأرض التى اختارها المسلمون ، وهى أرض عشر .

(٢) الأرض التى أسلم عليها أهلها ، فهم أحق بهـا وهى أرض عشر عند الشافعى وأبى حنيفة .

(٣) الأرض التى افتكت من المشركين قهـراً ، وهى عنـد الشافعى وأبى حنيفة أرض عشر :

(٤) ا - أرض المشركين التى صالحوا المسلمين عليها وهى أرض خراج .

ب - الأرض التى انجلى عنها أصحابها ، فصارت وقفاً على مصالح المسلمين ، وهى أيضاً أرض خراج ، ولا يجوز بيعها .

الخراج المفروض على الأراضى يختلف مقداره باختلاف إنتاجها .

أختلاف الأراضى من ثلاثة أوجه ، بالنظر :

(١) لنوع الأرض :

(٢) لنوع المزروع ، إذ تتفاوت قيمة المزروعات .

(٣) لطريقة ريها :

تجب مراعاة هذه الأحوال عند فرض الخراج ، حتى لايقع الإجحاف بحقوق الدولة ، ولا بحقوق الفلاح :

ولضبط هذه الحالات المؤثرة على قيمة الخراج ، وضع فصولا تتعلق بالوجوه الثلاثة السابقة .

فصل فى بيان أحكام الأراضى وتفاوت قيمتها ، وبيان أحوالها وما اصطلح عليه من أسمائها ، وتعيين جيدها ورديئها

ذكر فى هذا الفصل ثلاثة عشر نوعاً من الأراضى ، مبتدئاً بأجودها ، ثم الذى يليه قيمة ، وأنواع المزروعات التى يستحسن أن تزرع فى كل نوع منها.

اسمها	تعريفها	قيمتها	ما يزرع فيها
(١) الباق	ما زرع فى السنة الماضية قرطاً أو قطانى	أجود الأنواع وأحسنها	القمح والكتان
(٢) رى الشراقى		تبع للباق فى الجودة	« «
(٣) العرائب	ما كان مزروعاً قمحاً أو شعيراً وإذا زرع قرطاً يصير فى السنة الموالية باقاً	دون الباق ورى الشراقى	قرط
(٤) البقاهة	ما كانت مزروعة كتاناً لاتنتج قمحاً وإذا زرع فيها كان دقيقه أسود	دون العرائب	
(٥) الشتانى	أثر ما روى وباردون	رى الشراقى	
(٦) شوشمس السلائح	مايكون حسناً إذا روى ويسوء إذا منع عنه الرى	مثل الباق ورى الشراقى	تنتج كل مايزرع فيها
(٧) البرش النقا	الارض التى خلت من أثر مازرع فيها بالسنة الماضية		تقبل كل أصناف المزروعات
(٨) الوسخ المزروع	الأرض التى أنبتت كلأ يشغلها عن الزراعة		مرعى
(٩) الخرس	الأرض التى فسدت بما فيها من موانع ولاتصلح إلا بازالتها	أخبث من الوسخ	مرعى
(١٠) الشراقى	مالم يصل إليها ماء النيل لعلوها أو عسر وصوله إليها		
(١١) الشريب	ما أتى عليها الماء ليلة ثم خرج		
(١٢) المستبحر	التى فاض عليها الماء ومكث ولم تمكن إزالته حتى مضى زمن الزراعة فلا ينتفع بهذه الأرض وإنما تنفع الأراضى المجاورة عندما تستخرج منها سواقى		
(١٣) السباخ	هى أرض غلب عليها الملح		الهليون والباذنجان

نوع المزروع	وقت الزراعة	مقدار الزريعة فى الفدان
القمح	نصف بابه — آخر هاتور	٥ ويبات — أردب
الشعير	« «	« «
الفول	أول هاتور	نصف أردب
الحمص	أول هاتور، آخر كيهك	أردب — ٨ ويبات
الحلبان	« «	٤ ويبات — أردب
العدس	« «	ويبتان فما دون
الكتان	هاتور	أردب وثلث
القرط (البرسيم)	بابه — كيهك	ويبتان ونصف
البصل	هاتور — نصف كيهك	ربع ويبة — ويبة
الثوم	« «	١٠٠ حزمة — ١٥٠ حزمة
الترمس	طوبة	أردب
الكمون، كرويا، السلجم	١٠ أمشير — آخر أمشير	قدحان
البطيخ الأخضر والأصفر	نصف برمهات ونصف برمودة	«
اللوبيا	« «	«

وقت الجني والحصاد	مايتحصل منه (في الفدان)	الضريبة على الفدان الواحد
بشنس	أردبان — ٢٠ أردباً	٥٠٠ — ٦٠٠ درهم — أو مشاطرة
برمـــودة	» »	» » »
	» »	أردبان ونصف — ٣ أرادب ،
برمودة	٤ أرادب —١٠ أرادب	٥٠٠ — ٦٠٠ درهم — أو مشاطرة
»	١٠ أرادب فما دون	» » »
»	٥أرادب — ٢٠ أردباً	» » »
»	ثلاثون حبلا فما دون	ثلاثة دنانير فأكثر
هاتور— أمشير	٤ ويبات — أردبان	باختلاف البلاد
برمـــودة	١٠ — ٢٠ ديناراً	دينـــاران
»	» »	»
»	٢٠ أردباً	دينار وربع
»	٥ دنانير — ٢٠ ديناراً	ديناران فما دون
بشنس	دينار — ٢٠ ديناراً	دينار — ديناران
»	» »	٣ دنانير

نوع المـــزروع	وقت الزراعة	مقدار الزريعة
السمســـم	برمـــودة	قـــيراط
القطـــن	«	٣ أرادب
القصب السكرى	نصف برمهات	ثمن فدان
القلقـــاس	« «	عشرة قناطير
البـــاذنجان	برمهات — برمودة	(شتل) بدينار — دينارين
	بشنس — بؤنة	« « «
السمسم النيـــلى	آخر بؤنة	قـــيراط
النيـــلة	بشنس — بؤنة	٤ / ٣ ويبة
الفـــجل	كامل شهور السـنة	قدح — قدحين
الخـــس	طـــوبة	(شتل) من ربع دينار إلى نصف دينار
الكرنب	تـــوت	(شتل) ديناران فما دون
اللفت	ابيب — مسرى	قـــدح
	تـــوت — بابة	«

وقت الجنى والحصاد	مايتحصل منه (فى الفدان)	الضريبة على الفدان الواحد
أبيب — مسرى	أردب — ٦ أرادب	دينــار
تــوت	قنطاران — ٨ قناطير	دينار ونصف
طــوبة	٢٠دينار ، ١٠٠ دينار	ديناران و ٥ قراريط ٥دنانير
بشنس	٥ دنانير ، ٤٠ دينارا	٤ دنانير
بؤنة — أبيب	٣٠ دينارا	» »
أبيب — مسرى	» »	» »
تــوت	أردب — ٥ أرادب	» »
مســرى	٢٦ ديناراً فما دون	٣ دنانــير
كامل شهور السنة	٤ دنانير — ٦ دنانير	دينــار
بعد شهرين من زرعه	١٠ دنانير	دينــاران
هاتــور	٢٠ ديــاراً	»
بعد ٤٠ يوماً من زرعه	٤ دنانير — ٦ دنانير	دينــار
» » » » »	» »	»

فصل فى البساتين

ذكر فيه أنواعاً من الأشجار ، وتحدث عن أوقات زراعتها وتحويلها وتقليمها ، فمن أنواع الأشجار التى ذكرها :

التين — التفاح — اللوز — الخوخ — المشمش — النخل — التوت — الموز — النرجس — الورد — الياسمين — المرسين — الريحان — المنثور — الخيار الشنبر — الكرم — السدر .

وخراج هذه الأشجار يختلف باختلاف سنها : فالكرم مثلا يدرك فى السنة الرابعة ، ويكون خراجه فى السنة الأولى ربع دينار ، وفى السنة الرابعة يترتب عليه ثلاثة دنانير .

فصل فى رى الأراضى وحرثها

— الهمالية تسقى من الفدان القريبة عشرة فأكثر .
ومن الفدان البعيدة سبعة فأقل .

— الرشا الطويل يسقى من أربعة فدادين إلى ما حولها .

— كل وجه من السواقى يتكلف به وقافان ، وهما اللذان يحولان المياه

— لكل همالية سواق واحد .

— كل خمسة وعشرين رأساً من الأبقار العوامل إلى رجل واحد، يقوم بما تحتاج إليه .

— يحرث الرأسان من البقر فى اليوم ثلثى فدان من الأرض القوية .

— أجرة الرأسين من البقر المستعملة للحرث فى كل يوم أربعة دراهم فضة ، وتكون أجرة الحراث على المستأجر ، والمحراث والعلف على المـــالك .

— أول السنة البستانية أمشير ، وآخرها طوبة .

— مدة الحرث من خمسين يوماً إلى ستين .

فصل فى الفرق بين الجسور السلطانية والجسور البلدية

الجسور السلطانية: هى ما كان نفعها عاماً، رسومها توظف على الأعمال الشرقية والغربية ، ومنها ينفق على هذه الجسور ، والباقى يحمل إلى بيت المال فهى جارية مجرى سور المدينة .

الجسور البلدية: هى ما كان نفعها خاصاً — يقيمها وينفق عليها المقطعون والفلاحون — وهى جارية مجرى الدور التى داخل السور .

المستخدمون فى الخـــراج

الناظر : يراقب أعمال متولى الديوان ، ومن تحت نظره من المستخدمين، يجب أن يعلم كل ما يجرى بالديوان ، وهو مسئول على كل ذلك (يقوم مقام الاستادار ، إن لم يكن بالديوان هذا الوظيف) .

متولى الديوان: يضبط كل ما يجرى بالديوان بصفة رئيسية (بخطه) ، أما المسائل الفرعية فيكلف بها الكاتب ، وهذا الموظف ينال مركزه بالأمانة ، أو بالبذل أو بالإلزام .

المستوفى : صاحب مجلس الديوان، يطالب العمال بما يجب عليهم من دفع الحسابات فى الأوقات .

الشاهد: يضبط كل ما شاهده فى سجلاته :

الموقـــع : يكتب التوقيعات والمراسيم،ويطالع على الأجوبة ، ويكتب توقيعاته بعد أن يتصل بأصولها كتابيا من المتدلى، يطالب إذا كتب بدون هذه الأصول .

المعين: كاتب تابع للمستوفى يساعده ، غير مسؤول إلا إذا كتب ما لم يأمره به المستوفى .

المشارف: تابع للناظر ، يقوم بالأعمال الفرعية يكلفه بها ، ويكون حاصل الخراج تحت نظره ، بعد أن يختم عليه .

العامل: وهو الذى يتولى مباشرة النواحى ، ويقوم بالحسابات بعد أن يكتب عليها موافقته ، وهو تابع للناظر والمشارف ، وكل ما نقص من المال هو مطالب به .

الكاتب: شبيه بالعامل ويقوم بعمله ، إذا لم يكن عامل معه .

الجهبذ: كاتب لرسوم ووصولات الدفع والقبض .

النائب : كاتب تابع لصاحب الديوان ، وربما يطالب بالحسابات ، والإجابة عن الرسائل .

الأمين: كاتب تابع لصاحب الديوان، يعين الشاهد وينوبه إن لم يوجد .

الماسح : كاتب يجرى العمليات الحسابية لمعرفة مساحة الأرض ، وهو مسؤول عن ذلك .

الدليل : يرفع القباذيق والقوانين والسجلات عند المساحة ، يميز به أنواع الأراضى ، ويعرف أسماء المزارعين ، ويكتب بخطه، وهو مسؤول عن ذلك .

الحائز: كاتب مكلف بالاجران ويختمها كل لياه ويمنع المزارعين من التصرف إلا بإذن كتابى من العامل .

الخازن : يقبض الغلال و يخزنها ، ويخرجها إذا طلب منه ذلك .

الحاشر : المكلف باحصاء أهل الذمة .

العشــور

نوعـان

(١) ما يجب فى الزرع الذى يسقى بماء السماء (انظر كتب الفقه) .

(٢) ما يجب فى أموال الكفار الواردة إلى البــلاد الإسلامية للتجارة ومقداره الخمس أو العشر أو أكثر أو أقل ، حسب اتفاق بين الدولتين .

الثغور بمصر : الإسكندرية – دمياط – رشيد – البرلس .

وقديماً كانت أكبر الثغور عيذاب وأسوان .

يأخذ المباشرون لهذه الثغور ضرائب (لم يذكر مقاديرها ، وإنما اكتفى بقوله : لا حاجة لنا فى استيعاب ذكرها) .

المتجر: هو ما يبتاعه الديوان من البضائع الواردة على البلاد للتجارة طلباً للربح.

الشب : معادنه بصحراء الصعيد ، يحتاج إليه فى أشياء كثيرة من صبغ الأحمر ويرغب فيه الروم كثيراً ، تنفق الدولة على كل قنطار ثلاثين درهماً أو أقل .

وبلغ ما بيع منه فى المتجر ١٣,٠٠٠ قنطاراً، بسعر خمسة دنانير للقنطار الواحد ، وهو من اختصاصات الدولة، فلا يسوغ لأحد بيعه، وإذا وجد شىء منه مع شخص عوقب عقاباً شديداً .

الأطرون : يوجد فى مكانين بالبلاد المصرية .

أ) بقرية الطرانة .

ب) بقرية الفاقوسية :

وهو صنفان ، أحمر وأخضر ،وما يستخرج من قرية الطرانة أحسن مما يستخرج من قرية الفاقوسية .

وينفق الديوان على استخراج القنطار الواحد درهمين ، ويبـاع بمصر بسعر مائة درهم للقنطار الواحد .

وهو من اختصاصات الدولة أيضاً .

الحبس الجيشى :وهو بالبر الشرقى (بهيت والأميرية ومنية الأمراء) .

يسجل الديوان على المزارعين زراعتهم، وتمسح فى كل سنة — وأكثر زراعتها الكتان ، بقطيعة ثلاثة دنانير ونصف للفدان ، فكان يتأخر الخراج بسبب كثرة الكتان ، ممـا يجعل المباشرين يمنعون الزراع من نقله حتى يؤخذ منـه الخراج ، فتنقضى السنة قبل استخلاص الخراج .

فأبطلت هــذه الطريقة فى عهد المؤلف ، وصار الخــراج يوخذ مشاهرة .

الحبس الغربى : وهو ناحية سفط — أكثره يسجل مناجزة دون مسح ، وفى عهد المؤلف صار غالب بلاد الجــيزة يخصص لخيول الأمراء والجند والعساكر ، فيزرع أقراطاً لربيعها .

الأجـــور

مايدخل بيت المـــال من إجارة الأراضى التابعة لها .

الزكاة

هى على الذهب والفضة ، والإبل والبقــر والغنم ، وعروض التجارات والزرع والثمار والمعدن ، ولها أحكام معروفة ومضبوطة فى كتب الفقه .

أثمان المبيعات

هى أثمان ما يباع من الأملاك التابعة لبيت المـال ، ولا تباع هذه الأملاك إلا عند الحاجة إليها ، وكذلك أثمان ما تبيعه الدواوين مما يعود لها .

يجب أن تكون هذه الأثمان :

(١) كثمن المثل .

(٢) نقـداً

(٣) حالا بدون تأجيل

تصرف أثمان المبيعات فى عمارة الثغور ، وتجهيز الجيوش ونفقاتهم ، وغير ذلك .

المقاسمات

وهى الأموال التى تنوب الدولة من الأراضى التى تقررت قسمتهـا مع أصحابها من ثلث أو ربع أو غير ذلك . ولا يجوز للديوان أخذ الزائد على ما وقع عليه الاتفاق .

الغنيمة

هى ما يؤخذ من الكفار بالقتال ، فخمسها لبيت المـال ، وأربعـة أخماس للغانمين .

الفىء

هو الأنواع التالية :

— ما أخذ من الكفار بدون قتال .

— ما هرب عنه الكفار .

— ما تركه صاحبه وليس له وارث .

توابع الموارد المالية للدولة

بعد أن ذكر الموارد الأصلية لبيت المال ألحق بها فروعاً وتوابع من موارد ميزانية الدولة ، مما لا يندرج تحت العناوين السابقة :

الجاموس : يقع تضمينه فى سجلات الدواوين .

دخل الرأس من الجاموس من خمسة دنانير إلى ما دونها

دخل الرأس من البقر من دينارين ونصف إلى ما دونها .

الأغنام: أكثر نتاج الأغنام فى السنة مائة رأس من كل مائة نعجة ، وخمسون رأساً من كل مائة ثنيه

أثمانها

ثمن الكبش أو النعجة	دينار
ثمن الثنى أو الثنية	ثلثا دينار
ثمن العبورة	نصف دينار
ثمن الخروف	ثلث دينار

المعز : مقدار ما يتحصل عليه عن كل مائة رأس عشرون ديناراً (بين لبن ونتاج شعر) يقع إحصاؤها فى شهر برمودة .

النحل : يجنى عسله فى برمودة ، أجود مراعيه القرط والحلبان

مقدار ما يتحصل من المائة خلية : العسل من خمسة قناطير إلى ستة ، الشمع عشرون رطلا .

المراكب النيلية : تفرض عليها الدولة ضماناً يدفع نصفه فى خمسة أشهر ، (من بؤونة إلى بابة) ، والنصف الثانى يدفع فى بقية الأشهر اقساطاً متساوية .

معلومات عامة عن المبادلة وتحديد أوزان بعض البضائع

المبادلة :

يبدل الأردب من القمح بأردبين من الشعير
أو أردب ونصف من الفول
أو نصف أردب من الحمص
يبدل الأردب من الفول بثلثى أردب من القمح
يبدل الأردب ونصف من الفول بأردبين من الشعير
أو بثلثى أردب من الحمص

والأصح أن تقع المبادلة بالنظر إلى القيمة ، لأن السعر يختلف بحسب الزمن :

الأوزان والمكايل وغيرها :

القلة زيت = ١١٢ رطلا بالمصرى
الحملة الحطب= ١٦٥ رطلا بالمصرى
البندق =١٠ أرطال بقشر=اربعة ارطال الا ربعا مقشراً
اللوز = القنطار بقشره = ٢٠ رطلا مقشراً
الفستق =١٠ أرطال بقشره = ٤ أرطال مقشرة
البيعة العنبر = بالقاهره : ثمانية مثاقيل إلا ربعاً
بالأسكندرية : عشرة مثاقيل
الزعفران = ثمن المن منه إن كان شعراً ١٦٠ درهماً
وإن كان مصحوناً ٢٤٠ درهماً
والمن ٢٤ أوقية
الأوقية = ١٠ دراهم ونصف وثلث

الحمل البقم = ٦٠٠ رطل بالمصرى .
الحمل الفلفل = ٥٠٠ رطل بالمصرى
القطن المحلوج = ٥٥٣,٣٣ رطلا بالمصرى
الراوية القطران = ٢٨٠ رطلا بالمصرى .
المطر الزيت بالإسكندرية = ٢١,٣٣ رطلا جدوياً
الويبة من الأرز الرومى = ١٦قدحاً وزنها٣٠ رطلا جدوياً
والقنطار = ٣,٣٣ ويبات
الأردب = ١٨٠ رطلا جدوياً
الأرز قبل حلجه ونزع قشوره = ١٠٠ أردب منه يصير ٨٣,٣٣ أردباً
الذراع رخام = ثلاثة أشبار :

أقسام المعاملات

المعاملات ثلاثة أنواع :

(١) المعاملات الهلالية : وهى التى ينتظم حسابها على أساس السنة القمرية. ومنها استخراج الحوالى التى يجب أن يبدأ استخراجها بالديار المصريه فى شهر محرم ، ويستحسن أن يكون حساب ما يدخل من البحر أو البر على نظام السنة القمرية .

(٢) المعاملات الخراجية : وهى نوعان = أ) خراج الزراعة ، وأول عامه توت .

ب) خراج البساتين ومايروى بالسواقى ، أول عامه أمشير

(٣) ما كان مخالفاً للهلالى والخراجى : إذ أن عامه ثلاثة عشر شهراً هو المراكب النيلية . أبقار الجاموس.

فصل فى ذكر وصايا تليق بالموظفين

هو فصل يحوى من الأحاديث النبوية ، والأخبار والحكايات والآداب ، ما يفيد المواطنين والولاه فى سلوكهم الإدارى ، وعلاقاتهم بالملوك والأمراء، أقحم فيه الرسالة الشهيرة التى توجه بها عبد الحميد بن يحى إلى الكتاب .

الطبقة الخامسة

حاشية السطان

تشترط فيهم المعرفة والدين ، والأمانة والصدق ، ونزاهة النفس، لئلا يستمالوا بالرشوة ، فتضيع مصالح الدولة .

وظائف أهل الشريعة

الافتاء : صفات المفتى : العقل—البلوغ — العدالة — اجتناب المعاصى — معرفة اللغة — فهم كلام العرب — علم النحو — الإحاطة بالقرآن والأحاديث العلم بالناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك من قواعد الأصول ، كل ذلك مع استقامة الذهن ، ونباهة النفس .

القضاء : شروط القاضى وصفاته (بحسب ماهو مذكور فى كتب الفقه) .

— على القاضى أن يتخذ كاتباً وقاسماً أمينين :
— ينفرد القاضى فى مجلسه بسجاد خاص به .
— على القاضى أن لا يبيع ولا يشرى بنفسه .
— عليه أن يسجل القضايا التى يبت فيها .

الحسبة : هى وظيفة تشارك القضاء فى كثير من خاصياته ، وأهم قواعدها إعانة الفقير — إغاثة الأسير — إسعاف طالب العلم — إطلاق المسجون — عيادة المريض — إقامة وظائف مدارس العلم — تعمير المساجد .

إذا تولاها فاسق أو خائن أو عاجز لا تصح ولايته،ويعد من ولاه الحسبة عاصياً إذا كان يعلم حالة .

فالحسبة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهى تشتمل على ثلاثة أنواع :

(١) حق الله: وذلك بأن يمنع المحتسب كل ما ينافى الشرع كترك الصلاة والصوم ، وعدم أداء الزكاة .

(٢) حق العباد : وهو يتمثل فى العقود والمعاملات ، والموازين والمكاييل ، والمزروعات والصناعات والأثمان وغير ذلك .

(٣) مشترك بين حقوق الله وحقوق العباد ، كالطرقات العامة والأسواق ، وكل‌ما اتصل بشوارع المدينة ، مما يضر بالمارة ويضيّق على العامة .

— للمحتسب حق التأديب على قدر الجرائم ، كالتعزير والضرب والصفع وحلق الرأس دون اللحية ، وأن يصلب المجرم حياً دون أن يزيد ذلك على ثلاثة أيام ، لا يمنعه فيها من الطعام والشراب ، وله أن يحبسه إلى غاية ستة أشهر عند بعض الشافعية ، وإلى غاية سنة عند بقيتهم .

الأوقاف: هى من باب التعاون على البر والتقوى ، يكلف بها موظف، هو متولى الوقف العام ، وتصرف أموال الأوقاف على الأصناف التالية حسب الترتيب الآتى :

— الأشراف ، وهم المتصلون بنسب الرسول .

— الفقهاء : أ — الشافعية ، ب — الحنفية ، ج — المالكية — د—الحنابلة

— الصوفية .

— الفقراء .

— القراء .

— الأسرى .

– ابن السبيل .
– المـــريض .
– المجنـــون .
– تجهيز الموتى .
– أسوار الثغور وقناطر الطرقات .
– عمارة المساجد .
– مصالح المدارس .
– الرباطات والخوانك .
– المشاهد .
– مواطن العبـــادة .

ويشترط فى متولى الوقف العام أن يكون متصفاً بالكفاءة والأمانة والعدل.

فصل فى ذكر آلات من شعار الملك

السرير: هو تخت الملك لجلوسه ، يكون مرتفعاً عن جلسائه . أول من اتخـــذ سريراً من ملوك المسلمين معاوية معتذراً بالبدانة . وسايره الملوك بعده بما لم يكن للأكاسرة والقياصرة مثله، ولم يذكر شيئاً عن السرير فى زمانه بل اكتفى بقوله : « وصار الأمر إلى ما نراه الآن » .

السكة: هى ختم الدنانير والدراهم ، المتعامل بها بين الناس :

تاريخ وطريقة ضرب الدنانير والدراهم قبل الاسلام وبعده فى عهد الأمويين ثم العباسيين ثم العبيدين ، ثم قال : (ثم كان الأمـــر من بعدهم غـــير مقدر فى السكة وصار الناس يتعاملون بالدراهم تارة وزناً وتارة عددية ، والدنانير عددية ، ويضربون عليهـــا بالسكة من أحد الوجهين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ،

و فى الوجه الثانى السلطان والتاريخ ، وتعين الدار التى ضربت فيها إما القاهرة أو دمشق ، ويعتبر الفرع على الأصل القاهرى بالميزان والجودة ، فان تساويا أجازه متولى دار الضرب ، وإلا فانه يعاد حتى يعتدل) :

الخاتم : ديوان الخاتم يضم الكتاب الذين ينفذون كتب الملك ورسائله بعد أن يختموها بالعلامة أو الختم ، كان الختم فى الدولة العباسية من اختصاص ديوان الرسائل ، وهو تابع للوزير ، ثم أختلف هذا العرف وصار لديوان الإنشاء الشريف الآن (فى عهد المؤلف) .
ثم ذكر عرضاً المظلة فى الدولة العبيدية وقال: هى تسمى الآن بالقبة.

الطراز: بعد أن عرفه قال : وأما الآن فعمل الطراز من الحرير والذهب ، إما خالصاً أو سلطانياً ، ويسمونه الزركش — لفظة أعجمية — ، ويرسم عليها لفظ السلطان وبعض ألقابه ، واختص النظر على عملها لمن يكون متولى نظر الخواص الشريفة بالديار المصرية :

الفسطاط: بعد أن عرف الفساطيط ،وذكر حالها قبل الإسلام وبعده وصف أشكالها المختلفة من قوراء إلى مستطيلة ، إلى مربعة ، بحيث إن السلطان إذا خرج فى جيشه تكون الخيام ذات مظهر أنيق لاختلاف ألوانها وصفاتها ، ثم قال : واستمر الحال فيها إلى هذا الحين .

الرايات : بعد ذكر رسومها فى مختلف الدول الإسلامية والعبيديين يقول : وأما دولة الترك لهذا العهد بمصر وأعمالها فيتخذون راية واحدة عظيمة، فى رأسها خصلة من الشعر، يسمونها الجاليش ، تكون مع العسكر عموماً ، ثم على رأس السلطان راية أخرى تسمى العصابة والشطفة إشارة لوقوف السلطان أو مسيره ، ثم تتعدد الرايات ،

وتسمى السناجق والشطفات ، وأما الطبول فتسمى الكبار منهـــا دهولا ، وصغارها كوسات ، ويبيحون لكل أمير من مقـــدمى الألوف ، أو نائب من النواب بالمماليك الشريفة ، باتخاذ ما شاء منها ومن الشطفات عليها إلا الشطفات الزركش السلطانية ، فانهـــا خاصة بالسلطان وحده :

المقصورة : يذكر بأنها بقيت على حالها الأول منذ عهد معاوية ، ولم يدخل عليها تغيير ، رغم تعدد الدول :


الدعاء على المنابر فى الخطب :

إن الدعاء فى الخطب كان خاصاً بالخلفاء وحدهم ، ثم قال : فلما جاء الحجر والاستيلاء صار المتغلبون على الدول يشاركون الخليفة فى ذلك ، ويشار بأسمائهم عقب اسمه ، والله على كل شىء رقيب :



مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني

د . محمد انيس



مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني

د. محمد انيس

تاريخ مصر فى العصر العثمانى من الفترات التاريخية التى لم يهتم المؤرخون بها اهتماماً كافياً ، لا فى مصر ولا فى الدوائر العلمية فى الغرب ، ولم يبدأ هذا الاهتمام بشكل جدى إلا فى السنوات الأخيرة . ففى الغرب خرج الاهتمام من انجلترا ، ومن مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية فى لندن ، فقد كتب الأستاذان Gibb. Bowen كتابهما « المجتمع الإسلامى فى القرن الثامن عشر » عام ١٩٥٠ ، ولا أعلم ما إذا كان هذا العمل سيكمل بعد وفاة بوين . على أن الاهتمام بتاريخ مصر العثمانية استمر فى مدرسة الدراسات الشرقية ، فقد كتب P. Holt مقالين فى مجلة هذه المدرسة لعامى ١٩٥٩ ، ١٩٦١ ، الأولى عن « وثيقة رضوان بك وأصل المماليك الجراكسة » ، والثانية عن « الباكويه فى مصر العثمانية فى القرن السابع عشر » ، كما كتب دافيد ايالون D. AYALON فى نفس المجلة عام ١٩٦١ بحثه عن عبد الرحمن الجبرتى .

ويبدو أن الاهتمام بهذه الحقبة التاريخية قد بدأ يظهر فى الدراسة الجامعية الأمريكية أيضا ، فقد نشر استانفورد شو S, Shaw رسالته عن « التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية » ١٩٦٢ .

ولعل السبب فى إهمال هذه الحقبة التاريخية لهذه الفترة الطويلة أن التطورات السريعة التى نزلت بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، بعد اتصال مصر بالغرب ، والحضارة الغربية ، والاستعمار الغربى ،جعل الدراسات التاريخية عن مصر تتركز حول القرن التاسع عشر :

وقد نحت الدراسات التاريخية فى مصر نفسها هذا النحو ، فالحركة التاريخية النشطة التى شاهدتها مصر فى أواخر العشرينات ، وفى الثلاثينات ، كان يقوم بها مؤرخون أجانب ، ويرعاها القصر ، ولما كانت هذه الحركة قد قصد بها كتابة تاريخ مصر ، دفاعاً عن سلوك وسياسة أسرة محمد على ، لذلك لم تهتم بفترة الحكم العثمانى ، ومع ذلك فحين تولى المصريون زمام الحركة التاريخية شاهدت المكتبة التاريخية اهتماماً واضحاً بالعصر العثمانى ، فقد نشر الأستاذ محمد شفيق غربال فى عام ١٩٣٦ مخطوط (مصر عند مفترق الطرق ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى) ، وفى هذه الفترة أيضاً قدم الأستاذ محمد محمد توفيق رسالته عن (خط القرمة) ، وهو أحد الخطوط التى كانت تكتب بها حسابات المالية ، والأوامر الإدارية فى العصر العثمانى ، كذلك كتب محمد رفعت رمضان رسالته للماجستير عن (على بك الكبير) ، ولكن بصرف النظر عن هذه المحاولات لم تستكمل دراسة تاريخ مصر العثمانى فى مصر .

ماهى أهم مصادر تاريخ مصر العثمانية المعاصرة :

نستطيع أن نقسم هذه المصادر المعاصرة إلى أنواع ثلاثة :

أولا : الوثائق الرسمية ، وهذه الوثائق منها المصرى والتركى والأوربى . أما الوثائق المصرية فهى إما بدار المحفوظات بالقلعة ، أو فى دفاتر المحكمة الشرعية أو وزارة الأوقاف المصرية ، وفى مقال الأستاذ استانفوردشو فى مجلة معهد

المخطوطات التابعة للجامعة العربية[1] عرض المؤلف للوثائق العثمانية ، الموجودة بدار المحفوظات بالقلعة وفى دفاتر المحكمة الشرعية، وخلاصة المقال أنه بينما تشتمل دار المحفوظات على وثائق ذات أهمية كبرى من الناحيتين المالية والإدارية ، تتركز أهمية وثائق المحكمة الشرعية ووزارة الأوقاف فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية[2] .

أما بالنسبة للأرشيف التركى ، فالمعلومات التى لدينا مستمدة من مقال شو السابق الذكر ، ويتضح منه أن الجهود التى بذلت فى تركيا لجمع المحفوظات وترتيبها فى العشر سنوات الأخيرة قد أسفرت عن معلومات كثيرة وهامة فيما يتعلق بالشام والعراق ، وأن ما وجد متعلقاً بمصر قليل، ويبدو من هذه الدراسة التى قام بها شو فى الأرشيف التركى أن مركز الثقل فى وثائق العصر العثمانى بمصر موجود فى دار المحفوظات بالقاهرة ، وقد حان الوقت لأن تهتم الدوائر العلمية بهذه الوثائق ، وأن تعد الطلاب إعداداً كافياً لدراسة وثائق دار المحفوظات المتعلقة بالعصر العثمانى .

وأما الأرشيف الأوربى فى الخارج ، فهو غنى أيضاً بما يتعلق بتاريخ مصر فى العهد العثمانى ، ونخص بالذات أرشيف البندقية ومرسيليا ولندن ، والأرشيف فى هذه المدن الثلاث يتناول بصفة رئيسية نشاط الدول الأجنبية السياسى والتجارى فى ذلك الوقت ؛ وإن كانت تحتوى كذلك على وثائق خاصة بالأحوال الداخلية فى مصر — وقد درس شارل رو Sharles Roux الأرشيف الفرنسى ، وأخرج كتابه Les echelles Francais de Levent ، كما درس

(١) المجلد الثانى — الجزء الاول — مايو ١٩٥٦

(٢) راجع مقال الدكتور محمد انيس (حقائق جديدة عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية) المجلة التاريخية لسنة ١٩٦٢ ص ١٤٦ وما بعدها .

الأرشيف الإنجليزى وأخرج كتابه L'Angleterre et l'isme du Canal de Suez كذلك قدر لكاتب هـذه السطور أن يدرس الأرشيف الإنجليزى فى العصر العثمانى وأن يخرج من هذه الدراسة ببحث
The development of British interest in Egypt in the 18th century.
أما أرشيف البندقية فمع أنه أغنى الأرشيفات الأوربية فيما يتعلق بهـذا الموضوع ، إلا أنه لم يكن فيما نعلم موضع دراسة علمية حتى الآن[1].

ثانياً — الكتاب المعاصرون — من هؤلاء مجموعة الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر خـلال العصر العثمانى ، وكتبوا عن أحوالها ، فى مقدمة هؤلاء مجموعة الدراسات التى كتبها علماء الحملة الفرنسية فى مؤلفهم الكبير (وصف مصر) ، وهذا المؤلف رغم خطورته لا يصور أحوال مصر السياسية والاقتصاد والإجتماعية تصويراً دقيقاً إلا فى الفترة السابقة للاحتلال الفرنسى مباشرة ، وبالنسبة للرحالة الفرنسيين جمعهم الأستاذ M. Carré فى دراسة تحت عنوان :
Les Voyageurs et ecrivains Francaises en Fgypte

وهذه الدراسة تتناول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر وما قبله ، وإن كان يكاد يقتصر فى دراسته على الفترة السابقة للقـرن التاسع عشر على عدد محـدود من هؤلاء الرحالة ، أما Clement فقـد عنى بدراسة الرحالة الفرنسيين فى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وذلك فى كتابه Les Francais d'Egypte au XVI et XVII sieddes ، ولذلك تعتبر دراسة كلمنت مكملة لمـا فعله كاريه :

---

(١) نعلم ان الدكتور توفيق اسكندر استاذ الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة ومديرية دار الوثائق بعابدين سابقاً قد درس أرشيف البندقية وصور مثله الكثير مايتعلق بمصر ويقوم الآن بدراسة ماصوره عن هذه الوثائق .

يراجع مقال الدكتور محمد انيس (مصر عند منحى القرن الثامن عشر . مصادره ووثائقه التاريخية) المجلة التاريخية المصرية ١٩٥٠ .

أما بالنسبة للرحالة الانجليز فلم نظهر دراسة كاملة لهم فى العهـــد العثمانى وإن كان كاتب هذه السطور قد حاول دراسة مجموعة منهم من الذين زاروا مصر فى النصف الثامن من القرن الثامن عشر (١) :

ويلاحظ حول هذا النوع من المصادر بالذات رغم أهميته أنه يجب أن يؤخذ بحذر شديد ، فالأوربيون بسبب الأوضاع العامة فى مصر فى العصـــر العثمانى لم يتمكنوا من التغلغل فى الحياة المصرية ،ودراستها دراسة وافية. وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسى فى تاريخ مصر لم تبدأ إلا بالقرن التاسع عشر بكتاب E. W. Lane (عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم) .

والنوع الثـــانى من كتابات المعاصرين للعصر العثمانى ما كتبه المصريون أنفسهم . وهذه المراجع ذات أهمية كبرى فى عملية بناء التاريخ العثمانى ، لأنها تصور الأوضاع من الزاوية المصرية ، وهى المراجع التى تعالج تاريخ هـــذه الفترة بطريقة مباشرة ،ولذلك تبدو أهمية حصر هذه المصادر وجمعها ونشرها ، من أهم الخطوات التى يمكن أن تخدم مصر فى العصر العثمانى .

أسباب تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى :

نلاحظ حول المراجع التاريخية المصرية المعاصرة للعهد العثمانى :

أولا : أن أغلبها لم ير النور بعد ، فهى لا زالت مخطوطة ومبعثرة فى المكتبات الشرقية والأوربية ، والمرجع فى حصر هذه المخطوطات كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربى) وإن كان بروكلمان قد فاته ذكر بعض هذه المخطوطات (٢) ، والسبب فى بقاء

(1) M. ANIS British travellers' impressions on Egypt in the late 18th century. Bulletin of the Faculty of arts Cairo University dec. 1951.

(١) على سبيل المثال مخطوط عبد الغنى شلبى . لم يذكرها بروكلمان وهى فى مكتبة جامعـــة ييل بأمريكا .

أغاب هذه المراجع مخطوطة ماسبق أن ذكرناه من إهمال المؤرخين لهذه الفترة التـــاريخية :

ثانيا : رغم الحقبة السابقة ، فالمصادر التاريخية المعاصرة قليلة إذا قورنت بالعصر المملوكى ، مما يؤكد تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى ، فمـــا هى الأسباب التى أدت إلى هذا التدهور :

١ — فى مقدمة هذه الأسباب تسرب الكتب التاريخية من مصر: والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى الذى ينتمى إلى أواخر العصر العثمانى يؤكد هذا السبب[1] ، فبعد أن عدد كتب التاريخ التى يعرفها يقول : « وهذه صارت أسماء من غير مسميات . فانا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشتة ، بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدى الصحافيين ، وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان[2] » :

٢ — كذلك أدت كثرة الفتن فى العصر العثمانى ، والنزاع بين الفـــرق العثمانية ، والبيوتات المملوكية إلى إتلاف الكثير من المكتبات ، وفى ذلك يقول الجبرتى عند حديثه عن تدهور التاريخ فى عصره (ثم ذهبت بقايا البقـــابا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوا إلى بلادهم . ولمـــا عزمت على جمع ما كنت سودته ، وأردت أن أصله بشىء قبله ، فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ، ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص فى مواقع من خلال بعض الوقائع . وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ، ولكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمـــد جلبى عبد الغنى ، مبتدئاً فيه من وقت تملك

(١) عجائب الآثار ج ١ ص ٦ .

(٢) يلاحظ ممـــا ورد فى بروكلمان وفهرس مخطوطات جامعـــة الدول العربية أن عددا كبيرا من مخطوطات هذه البلد موجود بمكتبة الجزائر .

بنى عثمان للديار المصرية وينتهى كغيره مما ذكرناه إلى خمسين ومائة وألف هجرية، ثم إن ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم، ووقع فى صندوق العدم ، ومن ذلك الوقت إلى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ، ولم يسطر فى هذا الشأن شيئاً يفيد ، فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين) :

والحقيقة أن الجبرتى أخطأ فى أنه ليس هناك تاريخ ما بين أحمد عبد الغنى شلبى ، أى من ١١٥٠ هـ حتى عصر الجبرتى نفسه ؛ ومع ذلك فاضطرار الجبرتى إلى الاعتماد على دفاتر الكتبة والمباشرين وما إلى غير ذلك دليل على ندرة المراجع التاريخية ، أو اختفائها فى عصره :

٣ — يشير الجبرتى فى موضع آخر إلى سبب ثالث لتدهور علم التاريخ (١) فى ذلك الوقت ، وهو عدم اهتمام العصر بكتابة ودراسة التاريخ ، ونظرتهم الهابطة إلى هذا النوع من المعرفة . قال : (ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنسانى تعتنى بتدوينه سلفاً عن سلف ، وخلفاً من بعد خلف ، إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه ، وتركوه وأهملوه ، وعدوه من شغل البطالين ، وقالوا أساطير الأولين ، ولعمرى أنهم لمعذورون ، وبالأهم مشتغلون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة : فإن الزمان قد انعكست أحواله ، وانخرمت قواعده فى الحساب ، فلا تضبط وقائعة فى دفتر ولا كتاب ، وإشغال الوقت فى غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ، ليس له استرجاع ، إلا أن يكون من مثل الحقير منزوياً فى زوايا الخمول والإهمال ، منجمعاً عما شغلوا من الأشغال ، فيشغل نفسه فى أوقات من خلواته ، ويسلى وحدته بين سيئات الدهر وحسناته)، ولم يكن الجبرتى وحده يشكو من ذلك.

---

(١) ج ١ ص ٤ .

فهناك مؤرخ فى الشام وهو المرادى صاحب كتاب « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » كان يشكو من ظاهرة تدهور علم التاريخ ، فيقول عند زيارته للآستانة (ثم جرى ذكر التاريخ وفقدانه فى هذا الوقت ، وعدم الرغبة إليه من أبناء الدهر ، مع أنه المادة العظمى فى الفنون كلها)[1] .

٤ — غير أن هناك سبباً آخر وهو أن تدهور التاريخ كان يعكس فى الحقيقة تدهوراً عاماً فى الحياة العلمية ، ولا سيما فيما يسمى بالعلوم العقلية . ويجرنا هذا الموضوع إلى أن نعرض سريعاً لخصائص الحياة العلمية فى العصر العثمانى :

كان الحكم العثمانى يقوم فى مصر — وفى أغلب الولايات — على قاعدة بقاء الأوضاع بصفة إجمالية على ما كانت عليه قبل الفتح العثمانى ، لذلك ورثت مصر العثمانية أغلب مظاهر الحياة من العصر السابق لدخول العثمانيين ، سواء فى نظم الحكم الإدارية أو المالية ، أو فى تركيب المجتمع نفسه ، فالحكم العثمانى حكم إقطاعى ضعيف لم يحدث تغييراً جذرياً فى حياة المجتمع المصرى ، رغم بقائه ما يقرب من ثلاثة قرون ، هذه الحقبة إلى جانب العزلة التى فرضت على المجتمع المصرى ، سواء من قبل العثمانيين ، أو بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق الأوسط إلى الطريق حول أفريقية ، كل هذا جعل من مصر بل من منطقة الشرق العربى عامة منطقة راكدة لم تتأثر بالتيارات الحضارية ، التى كانت تجتاح أوربا من عصر النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية .

وإذا كان الحكم العثمانى بطريق مباشر أو غير مباشر بفعل العثمانيين ، أو بسبب الظروف الدولية التى أحاطت بالفتح العثمانى لمصر قد أدى إلى تدهور مصر سياسياً واقتصادياً ، فإلى أى حد أثر هذا الفتح فى الحياة الفكرية والعلمية فى مصر ؟ . إن التأثير العثمانى فى هذا المجال ضعيف ، لا يكاد يذكر ، والسبب

---

(١) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢٥ .

الرئيسى لذلك ما ذكرناه من شكل الحكم العثمانى ، فالدولة العثمانية كدولة إقطاعية من نوع معين كانت ترى أن وظائف الدولة تنحصر فى حدود معينة كجمع الضرائب ، والدفاع عن البلاد ، والمحافظة على الأمن فى الداخل ، وما عدا ذلك مما يدخل فى مفهومنا الحديث لأخص خصائص الدولة كالإشراف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتعليمية ، لم يكن لها وجـود فى تقدير الدولة ، لذلك احتفظ المجتمع بتركيبه السابق على الفتح العثمانى ، مجتمع سمته الأساسية الطائفية وهو مقسم إلى طوائف ، تقوم كل طائفة برعاية مصالحها فيما بينها ، وبذلك ارتفعت يد الدولة عن الجماعات المشكلة للمجتمع وتحددت العلاقة بين هذه الطوائف والدولة فى حدود ضيقة للغاية ، وهكذا استطاعت المؤسسات العلمية أن تعمل بعيداً عن الدولة ، فلم تتأثر ، أو قل تأثرت قليلا بالتدهور السياسى والاقتصادى الذى اجتاح العصر العثمانى .

وقد ساعد على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العربية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى مصر ، فلم يتعلم المصريون اللغة التركية ، ولم يدخلوا اللغة التركية فى الكتاتيب ، وأما التعليم فى الأزهر ، والمدارس التابعة له ، فقد كان من الطبيعى أن تكون دراسة الفقه والحديث مستندة على مصادرها الأصلية العربية . حقيقة أن الأتراك عملوا فى نطاق الشرق العربى على دعم السنة ، وتقوية هـذه المذاهب ، ومحاربة التيارات الشيعية ولكن هذا الموقف كان له شأن فى التوازن بين الشيعة والسنة فى العراق أو الشام ولم يتأثر المجتمع المصرى بهذه السياسة ، لأنه كان بعيداً عن هذا التطاحن المذهبى الدينى . وحقيقة أن الأتراك عملوا كذلك على رفع شأن المذهب الحنفى ، على أنه لا يجوز المبالغة فى هـذا الأمر أيضاً ، فقد احترم الأتراك المذهب الشافعى

وهو المذهب الغالب فى مصر فى ذلك الوقت ، فمنصب مشيخة الأزهر طوال العهد العثمانى ظلت فى الشافعية :

طبيعة الحكم العثمانى اللامركزى ، وطبيعة تكوين المجتمع المصرى فى العهد العثمانى من أهم الأسباب التى ساعدت على بقاء الحياة العلمية والمؤسسات العلمية بصفة إجمالية كما كانت فى العصر السابق للعثمانيين ، وثمة سبب آخر على جانب كبير من الأهمية فى هذا الوقت الا وهو بقاء نظام الأوقاف المحبوسة على معاهد التعليم والعلماء .

لكل هذه الأسباب ظل المجتمع المصرى فى العهد العثمانى يحتفظ بكثير من التقاليد الأخلاقية والعلمية . فى مقدمة هذه التقاليد نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية ، وإقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهـــد ، وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة ، ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر ، كما شارك البكوات المماليك الأثرياء من المصريين فى هذا المضمار ، كذلك كان السلطان العثمانى يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة ، وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ، ولا سيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر ، ومن هـــذه التقاليد الإسلامية العلمية السعى فى سبيل الحصول على العلم ، فالعالم الحق هـــو الذى يقضى حياته كلها بتلقى العـــلم من غيره فى مثابرة وجد ويدافع لذاته فمن الحقائق المعروفة أن أغلبية العلماء فى ذلك العصر لم يكونوا يعيشون على دخلهم من العـــلم ، باستثناء أساتذة الأروقة بالأزهر بل كان أغلب العلماء يشتغلون بحرفـــة يكتسبون منها ، وكان العالم يتجشم الصعاب والسفر لطلب العلم ، لذلك

كانت العلاقات وثيقة بين العلماء العرب. وتاريخ الجبرتى حافل بتراجم العلماء من مختلف أنحاء العالم العربى من الذين استقروا فى مصر ، وان كانت ظاهرة الترحال فى سبيل العلم أكثر شيوعا بين علماء الشام . وكان من عادة العلماء فى ذلك العصر أنه اذا سافر أحد العلماء فانه ينزل فى منزل زميل له أو باحدى المدارس التى يدرس فيها هذا الزميل ، كذلك كان من عادات هذا العهد التصاق الطالب بأستاذه ، فيلازمه كلية ، أو كما يقولون (لازمه حساً ومعنى) وقد أشار الجبرتى الى والده الشيخ حسن الجبرتى الذى يمكن اتخاذه نموذجاً للحياة العلمية فى هذا العصر فقال : « واذا أتاه طالب فرح به وأقبل عليه ، ورغبه وأكرمه ، خصوصاً إذا كان غريباً ، وربما دعاه للمجاورة عنده وصار من جملة عياله ، ومنهم من أقام عشرين عاماً ، قياماً ونياماً ، لا يتكلف الى شيء من أمر معاشه حتى غسيل ثيابه من غير تعب ولا ضجر » ، هذه الروح المتفانية فى العلم كانت جانباً من التقاليد الأسلامية التى عرفتها المجتمعات الاسلامية فى العصور الوسطى ، وبقيت فى العصر العثمانى ، وكان يدفع اليها بطبيعة الحال أن العلم فى ذلك الوقت كان دينياً بصفة أساسية ، فتشجيع العلم والثقافة مظهر من مظاهر التقوى والورع . لهذا يمكن القول بأن الحياة العلمية لم تمتد إليها يد التلف ، كما امتدت إلى الحياة السياسية والاقتصادية ، والعلم كان يؤدى وظيفة اجتماعية فى المحافظة على كيان المجتمع الاسلامى فى مصر من التدهور الذى تعرض له المجتمع .

والأمر الواضح أن هذه الحياة العلمية لم يكن انكماشها وتضاؤلها بالقياس إلى عدد المدارس والمدرسين ، والأوقاف المحبوسة على المؤسسات العلمية ، ولكن بسبب تدهور المستوى العلمى نفسه ، والقياس هنا ليس بالنسبة للعصر اللاحق للعهد العثمانى ، أى فى الحملة الفرنسية وعهد محمد على ، ولكن بالنسبة للعهد السابق للعصر العثمانى أى العصر المملوكى ، ذلك أنه قد شاع خطأ بين

بحاث التاريخ المصرى أن الحياة العلمية قد تدهورت فى العصر العثمانى ، حتى بدأت حركة بعث وإحياء على أساس الأخذ من الغرب منذ مطلع القرن التاسع عشر. والأمر بعكس ذلك تماماً ، فاذا كان القــرن الثامن عشر قد أخرج مؤرخاً مثل عبد الرحمن الجبرتى ، فمن المــؤكد أن النصف الأول من القــرن التاسع عشر لم يعرف على الاطلاق تأليفاً مبتكراً فى التاريخ ، ولعــل السبب فى ذلك يرجع إلى تغير اتجاه المجتمع فى حياته الفكرية ، ففى الوقت الذى تدهور فيه الأزهر فى مطلع القرن التاسع عشر لم تكن معالم الاتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب قد تبلورت بعد .

ولا شك فى أن العصر السابق للعصر العثمانى كان عصر الاشراق الفكرى فى تاريخ المجتمع الإسلامى كله ، بعد سقوط بغداد فى يد المغول ، وخروج المسلمين من الأندلس. غير أن الحياة الفكرية فى مصر تعرضت لأزمة فى نهاية العصر المملوكى قبل دخول العثمانيين ، فخلدت هــذه الحركة إلى الركود وفقدت روح الإبداع والتجديد . ثم جاء الفتح العثمانى فلم يولد لدى المثقفين ردود فعل انتاجية خصبة . وهكذا مالت الحياة الفكرية من ركود إلى ركود و لم يضرب العثمانيون نطاقاً غليظاً على الفكر والتعليم فى مصر ، وأغلقوا المدارس ووقفوا سداً منيعاً فى وجه الأبتكار والتأليف ، بل إنهم على العكس من ذلك تركوا ــ كما رأينا ــ الحياة التعليمية فى مصر تسير فى مجراها الطبيعى . فأبقوا للمدارس أوقافها ، وفتحوا مدارس جديدة لرفع المستوى العلمى والدينى ، فالأحتلال العثمانى ليس وحده المسئول عن ضعف الحياة الفكرية ، وإنمــا النقلية والمحافظة ، وانكماش روح الابتكار والخلق هى السبب وراء هــذا الأنكماش الفكرى . وكان من مظاهر ضعف الحياة الفكرية انتشار الطــرق الصوفية ، وزحف التصوف على الحياة العقلية ، بل والحياة الأجتماعية ، ثم انحط التصوف من فلسفة إلى دروشة . وكان بعض العلماء أنفسهم قد آمنوا

بالأولياء ، بل إن بعضهم كان مرشحاً لهذه المرتبة . وهكذا انحط مستواهم الفكرى إلى مستوى العامة من الاعتماد على قراءة أدب الكرامات ، والطقوس الصوفية ، ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضاً فى العصر العثمانى التركيز بصفة مطلقـة على علوم الدين ، دون علوم الدنيا ، ولا شك فى أن للعثمانيين دخلا فى هذ الموقف ، فقد عملوا على تشجيع هذا التيار ، تدعيما للإسـلام والسنة خاصة ، ونتج عن ذلك إهمال تام للعلوم العقلية أو الدنيوية ، ومنهـا التـاريخ :

ونخلص من هذا كله إلى الحقائق التالية :

أولا : أن التدهور العلمى فى العصر العثمانى كان من ناحية الكيف والمستوى لا ناحية الكم :

ثانياً : أن تدهور المستوى العلمى كان قد بدأ قبل نزول العثمانيين بمصر، وأن العلم والمعاهد فى مصر فى العصر العثمانى كانت تؤدى ، وظيفة اجتماعية أكثر منها علمية أو ثقافية .

ثالثاً : أن تدهور علم التاريخ يرجع إلى تدهور المستوى العلمى وبالنسبة لعلوم الدنيا أو العلوم العقلية بالذات :

رابعاً : أن نقل الكتب التاريخية إلى استنبول بعد الفتح العثمانى مبـاشرة إلى جانب تسرب هذه الكتب تدريجياً إلى أوربا ، وشمال أفريقية ، والسودان ، ثم تلف مكتبات المدارس، والجوامع إبان الفتن ، ونتيجة للإهمال ، كل ذلك كان من شأنه تدهور علم التاريخ فى ذلك العصر .

ومع هذا كله فالصورة التى قدمها الجبرتى عن موقف الدراسات التاريخية فى مصر مبالغ فيها إلى حد بعيد . فمن الواضح أنه لم تكن لدى الجبرتى صورة

كاملة عن التأليف التاريخي السابق له ، وخصوصاً بالنسبة للقرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، أى قبل ١١٠٠ هـ ، وهى السنة التى يفتتح بها تاريخه :

* * *

ونستطيع أن نقسم مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى إلى ثلاثة أقسام

أولا : مجموعة المؤرخين من العلماء الذين ظلوا أو حاولوا — سواء من ناحية فهمهم للتاريخ أو طريقة كتابته — متأثرين بمدرسة التاريخ الاسلامى يمثل هؤلاء فى القرن العاشر الهجرى ، كل من ابن إياس وأحمد شلبى عبد الغنى ، وفى القرن الحادى عشر كل من الإسحاقى — وابن أبى السرور البكرى الصديقى ، ويمثلهم فى القرن الثانى عشر عبد الرحمن الجبرتى ، وعبد الله الشرقاوى :

ثانياً : مدرسة التراجم — وهذه ليست جديدة على التاريخ المصرى السابق للعهد العثمانى ، ولكنها نشطت فى العصر العثمانى بشكل واضح — وفى القرن العاشر برز العينى ، وفى القرن الحادى عشر المحبى ثم الزبيدى والجبرتى فى القرن الثانى عشر .

ثالثاً : مدرسة الاجناد ، وهذه تبتعد كثيراً عن مدرسة العلماء فى فهمها للتاريخ أو طريقة كتابته . فهى تفتقر إلى أية خطة فى البحث والكتابة ، وتميل إلى طريقة الكتابة الشعبية ، وان قدمت مادة تاريخية فريدة فى أهميتها ، ويمثلها بن زميل الرمال فى القرن العاشر ، ثم الدمرداش كتخدا عزبان ، ومصطفى ابن الحاج إبراهيم فى القرن الحادى عشر ،

أولا : مدرسة المؤرخين التقليديين :

ابن إياس — الإسحاقى — ابن أبى السرور البكرى — عبد الرحمن الجبرتى — عبد الله الشرقاوى :

افتتح العصر العثمانى بمؤرخ كبير هو ابن إياس ، واختتم بمؤرخ كبير أيضاً هو الجبرتى — وابن إياس ينتمى فى نظر مؤرخى العصر المملوكى إلى العصر المملوكى أكثر من انتمائه إلى العصر العثمانى ، ولذلك وضعه الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى عداد مؤرخى القرن الخامس عشر على الرغم من أنه مات فى سنة ١٥٢٤ ، أى بعد الفتح العثمانى بثمانى سنوات. شاهد وأرخ للفتح العثمانى وللتنظيمات العثمانية الأولى فى مصر — ويمكن الرجوع فى دراسة ابن إياس إلى ما كتبه الدكتور زيادة ، وإلى ما كتبه المؤرخ البريطانى مارجوليوث (محاضرات فى المؤرخين العرب) .

وقد عالج ابن إياس الفتح العثمانى والتنظيمات العثمانية الأولى فى كتابه : (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) ، ولم يكن ابن إياس من المؤيدين للسادة الجدد ، ولذلك تلمس فى حديثه عن الفتح العثمانى وسياسة العثمانيين فى مصر ، الكثير من التحقير والنقد اللاذع — غير أن أمانة ابن إياس العلمية ودقته فوق مستوى الشبهات ، فهو لا يزال المرجع الأول حول فترة الفتح العثمانى .

ولكن ابن إياس يقف عند بداية العصر العثمانى ، لذلك لا تصور كتاباته تحـول المجتمع المصرى من العصر المملوكى إلى العصر العثمانى — والواقع أن المراجع فقيرة فى هذه الناحية بالذات ، وحول هذا الموضوع بصفة خاصة ، وما لدينا بعد ذلك يدخل فى القرن الحادى عشر الهجرى .

واذا كانت مراجع القرن الحادى عشر تتناول المجتمع المصرى ، وقد أصبح عثمانياً ، فان أهميتها تأتى فى أنها تصور الموقف داخل المجتمع المصرى — العثمانى فى ذلك القرن — فى أوله انهيار النظام العثمانى وتدهور الباشوية المصرية لحساب الأوجاقات العثمانية ، ثم حوالى منتصفه تدهور الأوجاقات بدورها ، و بداية ظهور سيطرة البكوات المماليك .

* * *

وفى مقدمة المؤرخين الذين تناولوا القرن الحادى عشر اثنان هما الإسحاقى وابن أبى السرور البكرى الصديقى — والإسحـاقى هو محمد بن عبـد المعطى ابن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى على الإسحاقى المنوفى الشافعى — ذكر المحبى فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأنه كان أديباً وشاعراً ، قرأ ببلده على شيوخ كثيرين ، وكان يتردد إلى القاهرة ، وحضر على عدد كبير من علمائها ، وتوفى فى عام ١٠٦٠ هـ .(١)

وفى عام ١٠٣٣ هـ فرغ من كتابه (لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول) ، ويعرف بتاريخ الإسحاقى :

وقد قسم الإسحاقى كتابه هذا إلى مقدمة عن فضائل مصر ، وذكرها فى كتاب الله ، وما ورد عنها من أحاديث سيد المرسلين ، ثم يبدأ فى تناوله تاريخ مصر منذ أيام الخلفاء الراشدين ، والدول التى مرت عليها ، ويشق طريقاً طويلا فى ذلك ، حتى ينحصر نصيب مصر فى العصر العثمانى فى الفصلين التاسع والعاشر

وفى عرضه لهذا التاريخ المصرى فى العصر العثمانى يبدأ الإسحاقى أولا بالكلام عن كل سلطان من السلاطين العثمانيين فى عرض سريع ، ثم يفصل فى الكلام عن كل نائب أو والى ، من الذين حكموا فى العصر العثمانى تاريخ تعيين وعزل كل باشا بدقة واضحة . وأهم الأعمال التى تمت فى عهده حتى ينتهى عنـد سنة ١٠٣٢ هـ آخر تولى إبراهيم باشا السلحدار .

ويتميز الإسحاقى بميزتين ، إلى جانب ما ذكرت :

أولا : اهتمامه الواضح بأسعار الحاجيات بين وقت وآخر ، ولهذا أهميته فى دراسة الأحوال الاقتصادية فى ذلك الوقت .

---

(١) معجم سركيس ص ٤٣١

ثانيـــاً : رغم أنه من رجال العلم ، وبعيد نسبياً عن حوادث الدولة ، الاّ أنه يعطى صورة واضحة عن تدهور الباشوية المصرية .

أما المؤرخ الآخر الذى يمثل القـــرن الحادى عشر ، والمعاصر للإسحاقى ، فهو محمد بن السيد محمد أبو السرور البكرى الصديقى الشافعى المصرى ، المعروف بابن أبى السرور ، والمعلومات التى لدينا عن هذا المؤرخ قليلة للغاية فهو توفى فى سنة ١٠٨٧هـ، إنما يبدو أن ابن أبى السرور المؤرخ نشأ فى بيئـــة علمية من ناحية ، وواسعة النفوذ من ناحية أخرى ، وأن البيئة الخاصـــة التى عاش فيها ابن أبى السرور مكنته من أن يكون اكثر إلمـــاماً بأحداث عصره من الإسحـــاقى :

فقد ذكر الصديقى فى كتابه (النزهة الزهية) عند كلامه عن محمد باشا الذى تولى سنة ١٠٠٤ هـ (وعمر المشهد الحسينى وزينه وتقيد بأمره ، وأتقنه ودرس فيه والدى بحضرته ، فخرج متعجباً من هذا الدرس وبهجته .(١)

أما عن غنى الأسره وجاهها ، فقد ذكر فى حديثه عن محمد باشا أيضاً ، (وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحاً كان نادرة الزمان ، وفريداً فى الحسن والإتقان ، أبذل فيه أموالا كثيرة ، وتجمل فيه بتجملات عزيزة ، أصرف فيه من النقد نحواً من خمسة آلاف دينار ، ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد عن هذا القدر ، ونزل فيه البكاربك المذكور ، وذلك بمنزل والدى شيخ الإسلام أبى السرور المطـــل على بركة الرطل ، المعروف بالشادوران... فكانت مدة الفرح أربعين يوماً ، لم يذق فيها غالب أهل مصر نوماً ، مع الوقدات الوافرة ببركة الرطل(٢) ، وربما نفهم من حديثه عن أبيه أنه كان شيخاً للجامع الأزهر ، فشيخ الجامع الأزهر كان يلقب بشيخ الإسلام ، إلى جانب كونه شافعيـــاً ،

(١) ص ٣١ — النزهه الزهية

(٢) ص ٢١ النزهه الزهية .

ومما يؤكد أن والده كان شيخاً للأزهر ماذكره المؤرخ فى حديثه عن خضر باشا ، قال : (وكان يغلب عليه الشح الزائد ، وشرع فى قطع أرزاق العلماء من القمح ، فطلع له والدى — رحمه الله — وكالمه فى ذلك ، وانكاه بالكلام فقال للوالد : يامولانا هذا الغالب على الذين لهم القمح تجار ولبس فيهم علماء فقال له الوالد : يا مولانا الوزير نحن نكتب لكم دفتراً بأسماء العلماء الذين لهم القمح فأجاب الوزير الى ذلك وأمر المقاطعجى بالذهاب الى منزل الوالد فى غير أيام الديوان للنظر فى هذه القضية . ثم لم يزل الوالد — رحمه الله — يتطلب بالوزير الى أن أجاز الإعطاء الخاص والعام[1]) .

ويتضح من هذا أن ابن أبى السرور نشأ فى بيئة علمية ذات ثراء وأن ذلك كان له الفضل، فى أن المؤرخ كان على صلة بمجريات الأمور ولذلك جاءت كتاباته أكثر فهماً لتطور الأحداث السياسية من الإسحاقى .

ولا تزال مؤلفات هذا المؤرخ كلها غير مشورة للآن على كثرتها[2]. وفى مقدمة هذه الكتب كتاب (عيون الأخبار ونزهة الأبصار) وهو التاريخ الكبير لهذا العالم،ابتداء من الخليقة الى دولة الجراكسة ، ورتبه على تسعة عشر مقصداً : فى شرف علم التاريخ واختلاف الناس فيه ومقدار الزمان وفيمن سكن الأرض قبل آدم وذكر ملوك الفرس واليونانيين والروم وفى سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — والخلفاء الراشدين بعده وسلاطين دولة بنى أمية ، والعباسيين وبنى أمية فى الأندلس ، والدولة الديلمية و الفاطمية والسلجوقية ، والأيوبية ، والتركية .. إلى آخر دولة الجراكسة . فالكتاب كما

(١) ص ٣٤ . النزهه الزهية .

(٢) يقوم كاتب هذه السطور بنشر كتاب (النزهه الزهية) فى أطار مشروع لجنة نشر مخطوطات مصر العثمانية المشكلة من الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى و كاتب هذة السطور .

هو واضح ، لايقتصر على تاريخ مصر ، بل يشمل تاريخ الدول الإسلامية بشكل عام ، فهو بحث فى التاريخ الإسلامى العام .

أما بالنسبة لتاريخ مصر فى العصر العثمانى ، وهو ما يدخل فى مجال دراستنا هذه ، فقد كتب ابن أبى السرور البكرى (النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية) ، وهو بحث مختصر فى ذكر خلفاء وملوك مصر ونوابهم منذ أقدم العصور إلى دولة السلطان مراد بن السلطان أحمد فى سنة ١٠٤٢ هـ ، ثم يختم الكتاب بفصل عن (خصوصيات مصر وعجائبها ومتنزهاتها ، وما قيل فيها نظماً وشعراً) .

كذلك كتب هذا المؤرخ فيما يتعلق بمصر العثمانية بحثاً منفرداً عن حوادث مقتل إبراهيم باشا فى سنة ١٠١٢ هـ على يد أجناد الأوجاقات ، والمعارك التى دارت بعد ذلك بين الباشا الجديد محمد باشا الكرجى الخادم والأوجاقات ، حتى تصفية ثورة الأوجاقات ، وسمى بحثه هذا (تفريج الكربة فى دفع الطلبة) ولم نعثر على هذا البحث حتى الآن .

والمؤلف التاريخى الرابع للصديقى هو (المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية) ، ويبدو أنه كتب هذا الكتاب بعد عيون الأخبار ، وبتكليف من بعض (الفضلاء الأئمة النبلاء) ، وقد بدأ الكتاب بتاريخ الدولة العثمانية منذ أيام عثمان ، حتى إذا وصل فى الباب التاسع إلى السلطان سليم أخذ يذكر ولاة مصر الذين حكموا فى عهد كل سلطان ابتداء من سليم . ولما كانت النسخة الوحيدة الموجودة بدار الكتب تنتهى عند عام ١٠٢٩ هـ ، ولما كنا نعلم — حسبما ذكر هو فى مقدمة كتابه — أنه كتبه بعد تأليفه لعيون الأخبار الذى انتهى به إلى زمن السطان مراد سنة ١٠٤٢ هـ ، فلا بد أن للكتاب أجزاء أخرى مفقودة ليست فى متناول يدنا .

على أنه من الواضح من ناحية أخرى أن حديثه عن ولاة مصر فى هـذا الكتاب، الذى يتناول تاريخ الدولة العثمانية، لا يختلف فى كثير أو قليل عما كتبه عن هؤلاء الولاة فى كتابه النزهة الزهية . وعلى ذلك نستطيع أن نقـول إن ابن أبى السرور قد كتب ثلاثة كتب فى التاريخ المصرى تعتبر مكملة لبعضها البعـض :

أولا : عيون الأخبار فى التاريخ الإسلامى العام ، مع التركيز على تاريخ مصر حتى نهاية عهد المماليك .

ثانيا : المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية .

ثالثاً : النزهة الزهية فى تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى :

وينحصر اهتمامنا فى هذا المجال بكتابه « النزهة الزهية » :

أولا : هناك النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية ، وهى ناقصة فى أولها ولكن لدينا نسختين كاملتين : نسخة مكتبة Rylands بمانشستر بانجلـترا ، ونسخة المتحف البريطانى بلندن ، وينحصر ما كتبه الصديقى عن مصر العثمانية من ص ٦٢ إلى ص ١٠٩ (من دار الكتب) :

ثانياً : يسير المؤرخ فى الجزء الخاص بمصر العثمانية على طريقـة واحدة ، إذ يذكر تولية كل باشا ، وتاريخ عزله ، وما دار فى عصره من الأحداث — كما يعنى بذكر صفات الباشا ، وموقف المصريين منه — كل ذلك بتفصيل أكثر من الإسحاقى ، وبفهم أكثر لأمور الباشوية ، فهو مثلا يعنى بذكر أسماء الأوجاقات والوظائف العثمانية :

ثالثاً : على أن أهم ما يقدمه الكتاب أسماء قضاة مصر وتاريخ تعيينهـم وعزلهم ، ولذلك يعتبر هذا المرجع من المصادر النادرة فى تاريخ القضـاة فى مصر فى العصر العثمانى .

رابعاً : وأخيرا يتميز الكتاب بأن فصله الأخير يتناول فى حديث طويل النيل ومدن مصر ومتنزهاتها وعجائبها، فهذا الفصل عبارة عن دراسة للخطط المصرية فى ذلك العصر .

ما هى أوجه الشبه والتباين بين الإسحاقى والصديقى ؟ :

من الواضح أنهما ينتميان إلى مدرسة تاريخية واحدة ، فكلاهما يبـدأ تاريخه منذ أقدم العصور ، وليس فى هذا بدع ، فهى الطريقة التى كان يسير عليها المؤرخون بصفة عامة ، مثل إبن اياس والجبرتى .

ثم إن طريقة كتابتهما واحدة : الحوادث وفق عصر كل وال من الولاة العثمانيين . حقيقة أن إبن أبى السرور يفصّل أكثر ، ولكن قياساً إلى الكتابات التاريخية العربية يعتبر موجزاً ، ولذلك يمكن القول بأن كلا منهما يعطى الأبعاد فقط للتطور السياسى فى العصر العثمانى .

وكلاهما يتحدث عن نفسه وبعض تجاربه من خلال كتاباته ، فكتابتهما تجمع صفة المذكرات إلى جانب التاريخ ، وهـذه أيضاً ظاهرة تجـمع بين ابن اياس والجبرتى :

وثمة ظاهرة مشتركة بين الرجلين وهى عنايتهما بذكر محاسن مصر وصفات أهلها ، وما ورد بشأنها فى القرآن والحديث ، إلى جانب ذكر محاسنها وعجائبها حتى ليخيل لدارسى التاريخ أنّ الشخصية المصرية كانت قد بدأت تتكون فى ذلك العصر :

غير أن من أهم ما يجمع بين هذين المؤرخين — مع غيرهما من المؤرخين اللاحقين والسابقين — نظرتهما إلى علم التاريخ ، فالتاريخ فن وليس علم : وهو فن تنبغى معرفته لمـا فيه من عنصر التشويق ، والعجائب ، والمستحدثات

والفكاهات . على أن ذلك ليس الفائدة الأولى من التـاريخ ، بل اكتساب تجربة الأولين فى سبيل فهم أفضل للحياة ومشاكلها ، يقول الإسحاقى : (فانه لا يخفى على كل ذى ذوق سليم ، وفهم رائق مستقيم ، أن فن التاريخ من فاكهة المفاكهة بالغاية القصوى ، ونهاية الشأن فى الطلاوة والجدوى ، لأنه توقيـع وقائع الزمان ، وتدوين الحوادث الدائر بها الدوران .. وألف مطالعته من رق طبعاً وراق لبـاً ، يطلع الشاهد على ما كان من العجائب مخبأ ، ويودع السمع أسماء كان لرؤية أهلها محباً ، ويورد الإسحاقى بيتاً فى هـذا المعنى يقـول :

فاتنى أن أرى الديار بعيـنى　　فلعـلّى أرى الديار بسـمعى

فالى جانب الفكاهة بالغاية القصوى ، هناك التجربة الإنسانية التى يقدمها التـاريخ .

ودفاع ابن أبى السرور فى هذا المجال أكثر عمقاً ووضوحاً . وقال المقصد الأول فى شرف علم التاريخ : (اعلم أن شرف كل علم بقدر شرف موضوعه وفضيلته ، وهو أن يكون صحيحاً ، محيطاً بما تحته من المعانى ، وموضـوع علم التاريخ ذكر ما كان فى العـالم ، فلذلك سار السبيل إلى معـرفة ما يضر وما ينفع فيه) ، ثم يقسم هذا المؤرخ علم الأخبار إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : أخبار الأنبياء والرسل وسننهم ، وأخبار العلماء والحكماء وسيرهم (وهذا عظيم المعنى وظاهر المنفعة فيما يصلح به الإنسان أمر معاده ودينه وسريرته فى اعتقاده وسيرته فى أمور الدين ، ثم ما يصلح أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى)

القسم الثانى : ويشمل أخبار الملوك وسياستهم ، وأسباب مبادئ الدول ، وسبب انقراضها ، وأخبار الأمراء والوزراء (وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر وقوع مثلها أبداً فى العالم) . وبوجهة النظر هذه ، أى أن التاريخ يعيد نفسه ،

يستنتج ابن أبي السرور أن هذا القسم (غزير النفع ،جيد الفائدة،فان من عرفه وأتقنــه صار كأنه قد عاش الدهر كله ، وجرب الأمور بأسرها ، وباشر الأحوال بنفسه ، فكبر عقله ، ويصير مجرباً للأمور) .

والقسم الثالث : يشتمل على ذوى المروءات والأجداد،وأهل الوفا ومحاسن الأخلاق ، وأرباب الشجاعة ، ويقصد بذلك السير : ثم يقول : (وهذا القسم أيضا غزير النفع ، همته عالية ، وقريحته جيدة صافية ، فان فى طباع من هو كذلك، الارتياح لمكارم الأخلاق عند سماع أخبار الكرام،ومحبة الاقتداء بذوى المروءات، ليصير له نصيب من حسن الثناء ، وطيب الذكر) .

ولنحاول أن نحدد المعالم الرئيسية فى هذا التفكير : لمــا كان التاريخ يعيد نفسه ، فان من يقرأ التاريخ فانه يعيش نفس التجربة ، كما أن فى قراءة التاريخ تهذيباً للخلق ، خصوصاً قراءة سير الصالحين من الحكام والقادة ، لذلك نرى هذه النظرة بالذات تنعكس على موقف كل منهما من الأحداث ، فالفكرة السائدة فى تاريخ الإسحاقى والصديقى هى أن الحاكم العادل لا يشتط فى ضرائبه على الرعية ، ويعمل على استتباب الأمن .

* * *

رغم ما ذكرناه بالنسبة للإسحاقى والصديقى من أهمية كتاباتهما ، بالنسبة للعصر العثمانى ، ولا سيما القرن الحادى عشر ، فان الباحث يحس حين ينتقل من ابن آياس إلى الإسحاقى والصديقى ، أنه قد هبط هبوطاً شديداً ، فالنظــرة النافذة المتفحصة،والمثابرة على جمع الحوادث وترتيبها ، والإفاضة فى الكتابة، كل هذا مما نلمسه فى ابن اياس يكاد يختفى تماماً فى القرن الحادى عشر ، وكانت التقاليد التى عرفتها صناعة التاريخ فى العصر المملوكى قد ضعفت ضعفاً شديداً وبدأت تتكون من جديد،معالم مدرسة جديدة للتاريخ تتحسس خطاها مرة

أخرى . غير أن هذه الإرهاصات المتخلفة تخطو فجأة خطوة كبيرة فى القرن الثانى عشر عند عبد الرحمن الجبرتى الذى يختتم هذا الفريق من المؤرخين فى العصر العثمانى :

ويبدو الجبرتى وسط مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى عملاقاً ، وأكثر من ذلك أن الكتب التاريخية الأخرى لهذا العصر تستمد أهميتها من وجود تاريخ الجبرتى نفسه ، فهى تعتبر مكملة لتاريخ الجبرتى ، ومن هذه الزاوية فقط تبدو لها بعض الأهمية ، لذلك فلا محل فى الحقيقة لمقارنة الجبرتى بالمؤرخين المعاصرين له ، فالجبرتى يتميز عن هؤلاء بأنه يقدم صورة كاملة للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى ، والحق أن الجبرتى يعتبر أحد كبار المؤرخين فى العالم الإسلامى فى جميع أزمنته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة .

ويواجه باحث التاريخ مشكلة عويصة فى محاولة تفسير ظهور مؤرخ مثل عبد الرحمن الجبرتى فى العصر الذى عاش فيه ، فالمعقول ألا يظهر مؤرخ مثل الجبرتى على الإطلاق فى هذا العصر . ذلك أن الجبرتى بالنظر إلى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، يبدو وكأنه خرج من لاشىء ، ولا يرجع إلى شىء ، فالجبرتى ظاهرة من هذه الظواهر التاريخية المعزولة تماماً عن عصرها فيما يتعلق بمدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، ولم يمتد الجبرتى كظاهرة كذلك فى الفترة التى تلته ، فحتى الآن لم يحاول أحد لا فى داخل مصر ، ولا خارجها فى العالم العربى ، أن يسير على خطى هذا المؤرخ ، وهذه الظاهرة ظهور عبقرية منفردة ومعزولة عن الوسط الذى عاشت فيه تبدو غريبة حقاً ، ليس فقط بالنسبة لتاريخ الحضارة الإسلامية ، بل بالنسبة لتاريخ البشرية .

ومما يؤكد أن الجبرتى لم يخرج من مدرسة تاريخية معينة :

أولا : ضعف مدرسة التاريخ المصرى بصفة عامة فى العصر العثمانى ، هذا الضعف بدأ بعد ابن اياس ، والفترة الأولى من الحكم العثمانى خلت تماماً من المؤرخين الذين كان فى قدرتهم أن يقدموا صورة لتحول المجتمع المصرى من مملوكى إلى عثمانى ، أى فى القرن العاشر . أما القرن الحادى عشر فقد شاهد نهضة تاريخية ، أو حركة بعث فى حدود ضيقة ، ولا سيما فى التراجم ، ثم عاد الموقف إلى الركود زمن الجبرتى وقبله بقليل ، وحتى حركة البعث والإحياء هذه كانت ضعيفة بالنسبة لمدرسة التاريخ المصرى التقليدية فى العصر المملوكى .

ثانياً : إلى جانب هذا الضعف العام فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى كانت عناية الجبرتى بالتاريخ الإسلامى والتاريخ المصرى فى العصور الوسطى ضعيفة أيضاً ، فمن المؤكد أن الجبرتى لم يطلع على كتابات المؤرخين فى هذه الفترة ، بل حتى لم يطلع على كتابات الكثير من المؤرخين فى العصر العثمانى نفسه ، فهو لم يذكر سوى أحمد شلبى عبد الغنى الذى تناول تاريخ مصر من الفتح العثمانى حتى ١١٥٠ هـ ، واعتمد الجبرتى عليه فى الفترة السابقة للقرن الثانى عشر ، لأن الجبرتى بدأ تاريخه سنة ١١٠٠ هـ .

ما الذى يميز الجبرتى عن غيره من المؤرخين :

أولا : دقة الجبرتى ، للجبرتى دقة المؤرخ واستقصائه للحوادث ، وتحفظه فى ذكرها ، فهو يقول فى مستهل حديثه عن عام ١٢٢٥ هـ (وانقضت السنة بحوادثها التى قصصت بعضها ، إذ لا يمكن استيفاؤها ، للتباعد عن مباشرة

الأمور ، وعدم تحققها على الصحة ، وتحريف النقلة ، وزيادتهم ونقصهم في الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الأمور الكلية التي لاتقبل الكثير من التحريف ، وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ، ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محالها إن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة) ، ويقول في كلامه عن تراجم الأمراء (جـ ١ ص ٩٣) : « ولم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي ، والله مطلع على أمري وحدسي » .

ثانياً : الموضوعية ، وموضوعية الجبرتي تبين من دقته ، وتبين كذلك من أنه يؤكد أنه يكتب للحقيقة والتاريخ — فهو يقول في مستهل كتابه (ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح ، أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسي أو غرض جسماني) ، ولكن هذه الموضوعية لا تجعل من الجبرتي تاريخاً بارداً[1] — فكتابات الجبرتي تفيض بالحياة الدافئة ، والسبب في ذلك أن الجبرتي ينفعل بالأحداث انفعالا عميقاً — وأول ما يسترعي النظر لمن يقرأ الجبرتي ، حب الرجل لبلده التي شاركها في أفراحها ومصائبها بكل قطرة فيه ، فهو يكتب عنها وكأنه يكتب بلحمه ودمه . هذا أبرز ما في كتاب الجبرتي من أوله لآخره . حقيقة أنه مما يجعل تاريخ الجبرتي صورة زاهية جداً أن تاريخ مصروتاريخ مصر في العصر العثماني بسبب ظروفها المحلية غني أكثر بكثير من تاريخ سوريا أو العراق في هذه الحقبة . على أن هذه الحقيقة لا يجب أن تقلل من قدرة الجبرتي كمؤرخ ، فالقارئ للجبرتي يحس دائماً بأنه يضع يده على نبض الحياة ، وبأنه يعيش في الجو

(1) D. Ayalon. AL - Jabarti. Bulletin of the school of Oruiental and African studies .vol. XXIII Part II. (2) Ibid. (3) Iibd.

الحقيقى لمصر وللعصر ــ وقد ساعد على ذلك قدرة الجبرتى على الدخول مباشرة إلى قلب الموضوع ، ورسم صورة كاملة ببضع لمسات من فرشته .

ثالثاً : ما هى على وجه الدقة الأهمية التاريخية للجبرتى ؟ ، إن الجبرتى قد كتب عن عصور ثلاث : مصر العثمانية ، والحملة الفرنسية، وظهور محمد على . وكتاباته عن الحملة الفرنسية وظهور محمد على هامة للمؤرخ ، ولكن يشارك الجبرتى فى هذه الأهمية الكثير من المراجع الأجنبية ، ولا سيما بالنسبة للحملة الفرنسية ولعصر محمد على . ربما يؤخذ على الجبرتى كتاباته التى حمل فيها على محمد على، دون فهم واع لطبيعة حركة محمد على وأعماله، ولكن مع ذلك فأهمية الجبرتى إنما تعطى الصورة الثانية لعصر محمد على، على اعتبار ما كتبه المؤرخون الآخرون يعطى الصورة الساطعة المشرقة من حكم محمد على ، فالجبرتى يقدم الصورة الأخرى،أو الوجه الآخر من هذه الصورة وهو الوجه القاتم من هذا الحكم ، وبذلك تكتمل على يد الجبرتى صورة هذا الحكم . ولكن الجبرتى يصور الأحوال فى مصر فى العصر العثمانى فى أدق وأحسن صورة تاريخية ، وبالذات مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى ، ويبدو أن الفضل الأول فى ذلك يرجع إلى نشأة الجبرتى ، فالجبرتى نشأ فى بيت علم وثراء . نحس بهذا كله عند قراءة ترجمته ، فالشيخ حسن الجبرتى كان عالماً كبيراً من علماء عصره ، وكان بيته مركز التقاء لهؤلاء العلماء ، ثم كان عالماً ليس فقط فى علوم الدين ، بل فى علوم الدنيا ، ولا سيما الفلك والرياضيات ومن ناحية أخرى كان الشيخ حسن رجل دنيا ، إلى كونه رجل دين ، فقد كان على صلة بالدوائر المملوكية الحاكمة ، والدوائر العثمانية ، وتولى هو نفسه حكم قلعة الطور فى وقت من الأوقات ــ هذه الحقائق توضح البيئة التى عاشها عبد الرحمن الجبرتى بيئة العلماء وبيئة المماليك ، ولهذه البيئة فى نظرى الفضل الأكبر فى تفسير كتابة الجبرتى. فالجبرتى غنى جداً فى تصويره للمجتمع العلمى

والمجتمع المملوكي فى هذا العصر بسبب ما ذكرناه — ومع أن الجبرتى به مادة لا بأس بها بالنسبة للطوائف الأخرى كالتجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة إلا أن تصويره يكاد يتركز — سواء فى تاريخه أو فى تراجمه — على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى .

رابعاً : كيف سار الجبرتى فى تأليفه التاريخى ؟ ؛ للجبرتى كتابان : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، وهو مطبوع الآن طبعة غير محققة ؛ — ويتناول أحداث الحملة الفرنسية ، وكتاب آخر اشتهر به وهو عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، بدأه كما يبدأ المؤرخون بتاريخ مصر منذ أقدم العصور فى عملية سريعة ، حتى يدخل مفصلا فى العصر العثمانى ، وينتهى عند نهاية مشيخة محمد بك أبو الذهب ، والجزء الثانى عن مصر فى عهد إبراهيم باك ، والجزء الثالث عن الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على ، والجزء الرابع والأخير عن محمد على حتى ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) .

الجبرتى جمع مذكرات عن الأحداث والتراجم فى حياته إبان الحكم العثمانى وقبل نزول الفرنسيين ، ولكنه بدأ سنة ١٢٢٠ هـ — ١٢٢١ هـ يكتب تاريخاً ، ففى الجزء الأول يقول الجبرتى إن تاريخ جمع هذا الكتاب (وقتنا هذا) ، وقرب انتهاء الجزء الأول يشير إلى سنة ١٢٢٠ بقوله (وقتنا هذا) وفى أول الجزء الثانى يشير إلى وقتنا هذا بسنة ١٢٢٠ فيقول : (هذا التاريخ الذى نمشى فيه لغاية سنة ألف ومائتين وعشرين) ، وفى آخر الجزء الثالث يعود فيقول : (وسنقيد إن شاء الله تعالى ما يتجدد بعدها من الحوادث ، من ابتداء سنة إحدى وعشرين التى نحن الآن بها إن امتد الأجل) .

إذاً الجبرتى ابتداء من ١٢٢٠—١٢٢١ هـ يبدأ فى كتابة تاريخه كتابة منظمة مستمرة ، فماذا عن القرون السابقة لذلك ، يفهم من الجبرتى أنه اعتمد على أحمد شلبى عبد الغنى فى الفترة السابقة للفتح العثمانى حتى سنة ١١٠٠ هـ ، ثم

بعد ذلك اعتمد على رواية المسنين ، ونقوش المقابر ، ودفاتر الكتبة ، من ١١٠٠ حتى ١١٧٠ هـ، ثم يدعى الجبرتى أنه منذ ١١٧٠ بدأ يعتمد على ذاكرته. ولما كنا نستبعد ذلك لأن الجبرتى ولد سنة ١١٦٨ هـ ، فالأرجح أنه ظل يعتمد على المصادر التى ذكرها حتى سنة ١١٩٠ هـ ، والمؤكد أنه بدأ يدون ملاحظاته بشكل منظم فى شكل مسودات حتى بدأ فى سنة ١٢٢٠ هـ يعمل على جمعها وكتابتها فى شكل تاريخى :

خامساً : ما الذى دفع الجبرتى إلى تسجيل الحوادث على النحو الذى ذكره وأ لا ؟ ، ثم ما الذى ذفعه إلى جمعها فى سنة ١٢٢٠ هـ وكتابتها وتدوين الحوادث فى شكل منظم بعد سنة ١٢٢٠ هـ ؟ .

هذا الموضوع يرتبط بقصة علاقته باستاذه الزبيدى ، وبمؤرخ آخر فى الشام هو المرادى .

كيف ألف الجبرتى كتابه ؟ :

لقد جاء تفكير الجبرتى فى كتابة التاريخ أصلا : من محمد خليل المرادى الحسينى — مفتى دمشق (المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ) — فقد كان المرادى مشغولا بترجمة أعلام المائة الثانية عشر (سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، أربعة أجزاء) ، ولما كانت هذه الدراسة تتطلب جهداً ضخماً ، فقد تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره ، لذلك أرسل المرادى فى سنة ١٢٠٠ هـ إلى الشيخ أبى الفيض محمد مرتضى الزبيدى (ترجمته فى الجبرتى ، الجزء الثانى من عجائب الآثار سنة ١٢٠٥ هـ) ، وكان الزبيدى من علماء اليمن أصلا ، وينتسب إلى زبيد ، ولكنه أقام فى مصر فى أواخر حياته ، وطلب المرادى من الزبيدى أن يساعده فى جمع هذه التراجم ، ودأب الزبيدى بالفعل على جمع بعض التراجم. ولما كان الزبيدى أستاذ الجبرتى ، فقد دعاه فى جمادى الآخرة

من عام ١٢٠٣ هـ إلى الاشتراك معه فى هذا العمل ، ومن ثم بدأ الجبرتى كتابته للتاريخ ، بجمعه لتراجم أعيان القرن الثانى عشر من المصريين ، ويروى الجبرتى بنفسه قصة هذه التراجم فى ترجمته للشيخ محمد خليل المرادى (جـ٢ سنة ١٢٠٦ هـ) فيقــول : (وكان هو السبب الأعظم الداعى لجمع هــذا التاريخ على هــذا النسق ، فإنه كان راسل شيخنا السيد محمد مرتضى والتمس منه نحو ذلك ، فأجابه لطلبته ، ووعده بأمنيته ، فعند ذلك تابعه بالمراسلات ، وأتحفه بالصلات المترادفات ، وشرع شيخنا المرحوم فى جمع المطلوب بمعونة الفقير ، ولم يذكر السبب لذلك ، وجمع الحقير أيضاً ما تيسر جمعه ، وذهبت به يوماً وعنده بعض الشاميين فأطلعته عليه ، فسر بذلك كثيراً ، وطارحنى وطارحته فى نحو ذلك ، بمسمع من الجالس ، وتنوسى هذا الأمر شهوراً) ، وواضح من هــذا أن الزبيدى لم يطلع الجــبرتى على سر اهتمامه بهــذه التراجم ، وقد بلغ ما كتبه الزبيدى من هذه التراجم نحو عشر كراريس مرتبة على حروف الهجاء وسماها (المعجم المختص) ، وذكر فيه حسبما يروى الجبرتى شيوخه ، ومن أخذ عنه أو جالسه من رفيق وصاحب وصالح ، أو من المشاهير (وقد أذكر من أحبنى فى الله وأحببته ، او استفدت منه شيئاً ، أو أنشدنى شيئاً أو كاتبنى أو كاتبته أو بلوت منــه معروفاً وكرماً) ، وقد وصف الجبرتى هذا المعجم المختص بقــوله : (إلا أن الكراريس المذكورة لم تكمل ، وترك فى الحروف بياضات كثيرة ، وغالب ما فيهــا أفاقيون من أهل المغرب والروم ، والشام والحجاز والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات ، وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم) :

وفى عام ١٢٠٥ هـ توفى الشيخ الزبيدى بالطاعون الذى نزل بمصر ، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتى نقلوا الأشياء النفيسة والمــال والذخائر ، والأمتعة والكتب المكلفة ، ثم أشاعوا موته ، ثم بيعت متروكاته ، بما فى ذلك

الكتب والدشتات ، وقد اشتراها الجبرتى وفيها المعجم المختص الذى سبق ذكره :

وفى أواخر سنة ١٠٢٥ هـ وصل الجبرتى من الشيخ المرادى الحسينى مفتى دمشق كتاباً وقرنه بهدية على يد السيد محمد التاجر القباقيبى ، يستدعى تحصيل ما جمعه السيد الزبيدى من أوراقه ، وضم ما جمعه الفقير (الجبرتى) وما تيسر ضمه أيضاً وإرساله ، ويقول المرادى فى خطابه للجبرتى : (وهذا الأمر ما حرزنا لخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار ، واعتمدنا على الجناب بذلك اعتماداً على المحبة الموروثة ، ولعلمنا أن جنابكم أولى بذلك من كل أحد ولا سيما ما بلغنا من أن السيد ترجمكم .

ثم يقول : (تجد جنابكم أن سعيكم هذا من أعظم المساعى عندنا لكون محبكم فى غاية الاشتياق إلى ذلك ، فنرجو إرسال ذلك أصلا واستكتاباً) .

ولقد وصل هذا الخطاب قبل أن يكون الجبرتى قد ظفر بأوراق الشيخ الزبيدى من ورثته ، ولكنه أدرك من هذا الخطاب السبب الذى حدا بأستاذه الشيخ مرتضى إلى الاهتمام بترجمة أعلام المائة الماضية (الثانى عشر الهجرى) فلم يكن ذلك وليد قريحته ابتداء ، بل نزولا على رغبة القاضى المرادى . فلما ظفر الجبرتى بأوراق الزبيدى بدأ بدراسة التراجم التى كان قد أعدها الزبيدى ويعتقد بعض الباحثين المعاصرين أن الجبرتى استرد التراجم التى كان قد كتبها بتكليف من الزبيدى ، ولا يبدو هذا صحيحاً .

أولا : ليس هناك ما يشير أصلا إلى أن الزبيدى احتفظ بتراجم الجبرتى وأغلب الظن أن الجبرتى احتفظ بها ليكملها ، وأنه حين أطلع أستاذه عليها ، لم يكن قد أتمها .

ثانياً : واضح أيضاً من كلام الجبرتى عن (المعجم المختص) أنه كان يشمل تراجم رجال من أهل المغرب والحجاز والسودان ، ولا يشمل تراجم علماء وأعيان مصر ، ممن ينبغى للجبرتى أن يكون قد عنى بهم .

ثالثاً : ينتقد الجبرتى معالجة الزبيدى للتراجم فيقول : (إنه أهمل من يستحق أن يترجم من العلماء والأعاظم وغيرهم) .

ثم يروى الجبرتى بعد ذلك كيف أن خطاب الشيخ المرادى قد شحذهمته للعودة إلى هذه الدراسة فيقول : « فلما رأيت ذلك ، وعلمت سببه ، وتحققت رغبة الطالب ، لذلك جمعت ما كنت سودته وزودت فيه وهى تراجم فقط دون الأخبار والوقائع » ، وفيما هو منشغل بهذا العمل الشاق ، إذ ورد علينا نعى المترجم (المرادى) ، ففترت الهمة ، وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الإهمال مدة طويلة .. ويفهم من ذلك :

أولا : أن الجبرتى قد توقف عن متابعة بحثه ، حين وصله نبأ وفاةالشيخ المــرادى .

ثانياً : أن بحثه من الناحية التاريخية حتى ذلك الوقت لم يعد بعض تراجم ، ويبدو أن الجبرتى قد انقطع عن كتابة التاريخ بعد ١٢٠٦ ه ، حتى عاد إليها فى شكل جديد وهو المذكرات اليومية منذ ١٢١٣ ه ، عند نزول الفرنسيين بمصر ، وقدكتب الجبرتى تاريخ مصر تحت الأحتلال الفرنسى منذ ١٢١٣ه — ١٢١٦ه فى كتابه المخطوط (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) فى شكل مذكرات يومية ، ويشير الجبرتى إلى هذه الحقيقة فى مقدمة مظهر التقديس بقوله : « ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر . إلى أن دخلها مولانا الوزير فى أوراق غير منظومة . وكثيراً ما كان يخطر ببالى — وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالى — أن أجمع افتراقهـــا

وأكسبها بالترصيف اتساقها ، ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً للبيب عن عجائب الأخبار وغرائب الآثار تذكرة بعدنا لكل جيل) ، ولقد حدث أن صديقه الشيخ حسن العطار كانت تراوده الفكرة ، فكتب هو الآخر مذكرات عن تاريخ الاحتلال الفرنسى نثرا وشعراً ، وقد أضاف الجبرتى ما كتبه العطار إلى ما كتبه هو ، وأخرج منهما كتابه « مظهر التقديس » ، وعلى ذلك فمن المؤكد أن الجبرتى حتى عام ١٢١٦ هـ كان قد قام بعملين علميين هامين ، الأول عبارة عن تراجم متناثرة لأعيان القرن الثانى عشر الهجرى . والثانى يشمل تاريخاً كاملا فى شكل مذكرات يومية لأحداث مصر فى ظل الاحتلال .

وتبقى بعد ذلك العملية الأخيرة فى تاريخ الجبرتى ، وهى الربط بين البحثين ، ذلك الربط الذى تمخض عنه كتابه المعروف « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » بأجزائه الأربعة ، والجبرتى يشير إلى هذا الربط فى ترجمته للمرادى (١٢٠٦ هـ) بقوله : (وفى أثناء ذلك ورد علينا نعى المرحوم ، ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الإهمال مدة طويلة ، حتى كادت تتناثر وتضيع ، إلى أن حصل عندى باعث من نفسى على جمعها من الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق) ، ومعنى هذا أن الجبرتى جمع من مصادر متعددة ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثانى عشر الهجرى حتى عام ١٢١٢ هـ ، وأخرج من هذا كله الجزء الأول والجزء الثانى من كتابه الذى أطلق عليه عجائب الآثار ، ثم عدل فى مظهر التقديس ، وأخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار ، مع إضافة حوادث ما بين سنة ١٢١٦ وسنة ١٢٢٠ هـ ، وبعد أن حذف ما كتبه العطار إلا المنظوم منه ، فيشير إليه بقوله : « كما قال صاحبنا الشيخ حسن العطار » ، وكان فى مظهر التقديس قد اكتفى بتراجم الأمراء المماليك فأضاف فى عجائب الآثار تراجم المشايخ أيضاً ، ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع الذى يشمل تاريخ مصر من سنة ١٢٢١ هـ حتى سنة ١٢٣٦ هـ ، ويدل

ذلك على أن الجبرتى كان لديه متسع من الوقت لمراجعة وتنظيم وتنسيق الأجزاء الثلاثة الأولى من عجائب الآثار ، ولكنه مرض ثم مات إبان كتابته للجزء الرابع . وهذا هو التفسير لمـــا يردده المؤرخون من أن الجزء الأخير عجائب الآثار يتسم بالاضطراب وعدم التناسق .(١)

ويبقى أن نجيب على هذا السؤال : متى ظهر هذا الباعث النفسى الذى أشار إليه الجبرتى ؟ ، وما هى العوامل التى أدت إلى ظهوره ؟ . لقد بدأ الجبرتى فى كتابة عجائب الآثار على النحـــو السابق فى سنة ١٢٢٠ هـ ، ومعنى هـــذا أن الباعث النفسى لابد أن يكون قد ظهر فى هذه السنة ، أو قبل ذلك بقليل .

ويبدو أن الباعث النفسى كان رغبة الجبرتى فى أن يغير موقفه من الأحداث التى مرت بمصر منذ الغزو الفرنسى حتى عام ١٢٢٠ هـ ، وأن العامل الأساسى الذى دفع إلى ذلك هو خيبة الأمل التى أصابت الجبرتى فى الحكم العثمانى ، عقب عودة العثمانيين إثر خروج الفرنسيين من مصر . والتى جعلته يدرك أن الحكم الفرنسى من بعض الوجوه خير من الحكم العثمانى . ولذلك فالجبرتى يعيد موقفه من الحكم الفرنسى ،وعودة العثمانيين ، ليصبح أكثر موضوعية ، وأقل عاطفية ، مما كان عليه فى مظهر التقديس .

---

(١) المعنيون بتاريخ مصر يأخذون من اضطراب الجـــزء الرابع من تاريخ الجـــبرتى دليلا على أن بعض اجزائه قد حذفت عند الطبع والبعض الآخر يعتقد أن هـــذا الحذف يرجع إلى ما كتبه الجبرتى عن محمد على والحقيقة أن الجـــزء الرابع المطبوع من عجائب الاثار يشمل كل ما كان الجبرتى يود أن يقوله فى محمد على وفى رأينا أن السبب الذى جعل البعض يعتقد أن فقرات قد حذفت من الجزء الرابع هو اضطراب المسودات التى كتبها الجبرتى وهو كبير السن مريض ، ومات قبل أن يتمكن من تنسيقها . وفى البحث الذى قام به الاستاذ محمود الشرقاوى مقارنة بين النسخ المخطوط للجـــبرتى قديمها وحديثها والنسخ المطبوعة تؤكد أن الجـــزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار لم يحذف منه شئ بالمرة .

وأقرب سبيل لفهم هـذه الحقيقة المقارنة بين مظهر التقديس من ناحية ، والجزء الثالث من عجائب الآثار من ناحية أخرى ، وهو المستخرج المعـدل من مظهر التقديس ، والحقيقة أن هذا التعديل لايعنى مجرد التنظيم والتبويب لإخراج جديد ، بل يحمل تغييراً موضوعياً فى تفكير الجبرتى السياسى :

إن الشواهد الداخلية والخارجية تجعلنا نحكم على مظهر التقديس ، بأنه التاريخ الرسمى للحملة الفرنسية ، فالكتاب مهدى إلى الوزير يوسف باشا . إذ يقول الجبرتى فى آخره ، فى ذكر فضائل شهر رمضان المبارك : (وأيضاً إن شهر الصيام مقدمة شهر العيد ، الذى هو موسم السرور المديد ، قد كان قـدوم المشار إليه « الوزير يوسف ضيا باشا » — نظر الله بعين الرعاية إليه — مفتاح أبواب المسرات التى طال انغلاقها ، ومعيد بهجة مصر التى كثف بظلام الكفرة إشراقها ، ثم لسدته التى هى ملثم شفاه الإقبال ، ومحط أفاضل الرجال ، أهدى كاسد هذا التصنيف ، وخامل هذا الترصيف ، فان لاحظه بعين القبول ، وذلك هو المتيقن والمأمول ، راج فى معالم الأدب سوقه ، وبطالع السعود شروقه) ، وواضح من هذا أن الجبرتى كان يرحب برجوع العثمانيين ويعتبر هذا بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ، ونهاية حكم فرنسى ، لم يكن راضياً عنه ، وفى مقدمة الكتاب ما يشير إلى هذه الحقيقة على نحو أوضح ، من ناحية يلقى اللوم فى تمكن الفرنسيين من احتلال مصر على الأمراء والمماليك الذين اتكلت عليهم الدولة لحماية الأقاليم (فخربوا الثغور ، وأشادوا القصور). « فلما دهمت الفرنسيس ثغرها الخالى ، ووقعت منه على طلل بالى ، سهل عليهم الحـال فاقتحموه ، ودخلوا من باب الإقليم بدون أن يفتحوه ، وتقاعدت العساكر المصرية على التسارع لاستنفاذ الثغـر ، فعظم البلا ، وأخذ العـدو يطـوى بساط الأرض ، حتى إذا التقى الجمعان ، لم يسع القوم إلا الفـرار فى الفلا » ، إلى أن يقول : (وأناخت دولة الكفار بكلاكلها على هذا القطر

العظيم ، وانتشروا فى أرجائه انتشار السم فى جسد السليم ، ولقد كادت تعم الرزية ، وتصير القضية أندلسية ، لولا عناية مزايدة الله بالنصر والتمكين ، وتلى عسكره المنصور مهما توجه لمعقل آية الفتح المبين ، وهو الملك الأعظم والسلطان الأفخر غياث المسلمين ملاذ المؤمنين ، مالك رقاب الأمم ، ملجأ العرب والعجم ، حافظ ناموس الشريعة الغراء بقوة سطوته ، باسط بساط العدل والإحسان على كامل رعيته[1] .

ولا شك أن الجبرتى اتصل بالوزير العثمانى ، وأن الوزير أحسن استقبال الكتاب ، لأنه بعد عودته إلى دار السلطنة عرضه هناك على السلطان سليم الذى أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢هـ (١٨٠٣ م) ، ومن المرجح أن الوزير ، وقد أكبر الجبرتى كعالم فلكى عهد إليه بتحرير التقاويم والتوقيت ، ورتب له جعلا على ذلك[2] .

أولا : ورغم أن مظهر التقديس يمثل فى نظرنا التاريخ الرسمى للحملة الفرنسية ، إلا أنه يعكس بأمانة ، كذلك ، موقف الجبرتى من هذه الأحداث ، وهو يتلخص فى الحملة الشديدة على الحكم الفرنسى ، واعتبار البكوات المماليك مسئولين عن نجاح الفرنسيين فى غزو مصر ، ثم التنبوء بانبثاق عصر جديد من الاستقرار والرفاهية والعدالة بدخول العثمانيين ، وعودة الحكم العثمانى المباشر ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الجبرتى فى مظهر التقديس بعيد عن موضوعية المؤرخ ، لا ينظر إلى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية ، أو العاطفة الوطنية ، ومع أنه فى عجائب الآثار لم يتخل قط عن هاتين العاطفتين ، إنما من الواضح أنهما لم يتحكما كلية فى كتاباته ، كما حدث فى مظهر التقديس . فى مظهر التقديس كان الجبرتى يرى كل ما هو

---

(١) ص ٥ — ٦ — ٧ .

(٢) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ٨٩ .

فرنسى كريه ، ويكفى أن يكون الحكم غير إسلامى ليحمل عليه الجبرتى ، أما فى عجائب الآثار فقد أخذ الجبرتى ينظر إلى الأحداث بعين الناقد الموضوعى فليس كل ما هو غير إسلامى سيء ، وليس كل حكم إسلامى طيباً ، فقد أتى الفرنسيس من الأعمال ما يجعلهم أحياناً أفضل من العثمانيين ، وليس معنى هذا أن الجبرتى قد أخذ يدافع عن الحكم الفرنسى ، فهو لايزال الشيخ الأزهرى المتدين ، الذى يكره حكماً غير إسلامى ، ويرى بحق أنه امتلأ بالقسوة والعنف ولكن الجبرتى فى عجائب الآثار يشيد بالفرنسيين إذ استحقوا هذا .. وخلاصة القول أن الجبرتى فى عجائب الآثار يحمل على حكم البكوات المماليك أولا ، وعلى الحكم الفرنسى ثانياً ، وعلى الحكم العثمانى الذى أعقب خروج الفرنسيين ثالثاً ، ليس هذا فقط ، بل إنه يعتبر أن الحكم العثمانى الذى أعقب خروج الفرنسيين أشد وطأة رغم إسلاميته من حكم الفرنسيين ، وأن حكم الفرنسيين بدوره كان أشد وطأة من حكم البكوات المماليك ، ومن هذا كانت نظرة الجبرتى المتشائمة من تطور الأحداث فى مصر ، وما نلمسه من أن رأيه فى النهاية كان يعنى أن الأحوال فى مصر تسير من سيء إلى أسوأ ؟

ثانياً : يشيد الجبرتى بالفرنسيين فى عدة مواقف فى عجائب الآثار ، لم يشر إليها إطلاقاً فى مظهر التقديس ، مثال ذلك إعجابه بتنظيم الفرنسيين لأعمال الديوان ، وتفوقهم العلمى ، ونظامهم فى القضاء ، كما رآه فى محاكمة قاتل « كليبر » ، وإعجابه بالكرنتيلة الفرنسية حين نزل الطاعون بمصر (شوال سنة ١٢١٥) ، وهذا ما كتبه فى عجائب الآثار من وصفه للمعهد العلمى الفرنسى فى حارة الناصرية ، وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة ، والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب .. حارة الناصرية وما بها من البيوت مثل بيت قاسم باك .. ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها للطلبة ، ومن

يريد المراجعة يراجعون فيها مرادهم ، فتجمعت الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها يحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر ، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لايمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، وإظهار السرور بمجيئه إليهم ، وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف ، والأقاليم ، والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار ثم يقول : « ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعونى على ذلك .. وكتب من الكتب الإسلامية مترجمة بلغتهم .. ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ، ولهم تطلع زائد فى العلوم ، وأكثرها الرياضة ، ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى الليل والنهار ، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت » ثم يصف زيارته لتوت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم ، وأريج والمصور ورويا الحكيم « الكيمائى » وبعد وصفه لبعض التجارب الكيماوية والطبية يقول : (ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لايسعها عقول أمثالنا) .

وكتب الجبرتى تعليقاً على ما نسميه اليوم بحيثيات الحكم فى قضية قاتل كليبر فيقول : « ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها ، وطبعوا منها نسخاً كثيرة ، باللغات الفرنساوية والتركية والعربية .. وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها ، لقصورهم فى اللغة ، ثم رأيت كثيراً من الناس تشوق نفسه

(١) عجائب الآثار ج ٣ ذكر حوادث شهر جماذى الثانية ١٢١٣ .

إلى الاطلاع عليها، لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار ، وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ، وكيف وقد تجارى كبيرهم ، ويعسو بهم رجل أفاق أهوج » .

« وقبضوا عليه وقرروه ، ولم يجعلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار ، بعد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلة القتل مضخمة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة ، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام ، مرة بالقول ، ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط ، حيث لم يلزمه حكم ، ولم يتوجه عليه قصاص ، كما يفهم جميع ذلك من فحوى السطور ، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ، ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس وتجارءهم على هدم البنية الإنسانية ، بمجرد شهواتهم الحيوانية : مما سيتلى عليك بعضه بعد) .

ويلاحظ عند المقارنة بين « مظهر التقديس وعجائب الأخبار » أن الجبرتى لا يشير إلى العثمانيين فى « مظهر التقديس » إلا بقوله : « المسلمين » ، بينما يطلق عليهم فى عجائب الآثار « العسكر » أو العثمانية ، وفى « مظهر التقديس » لا يذكر اسم قائد من القادة الفرنسيين إلا مصحوباً بوصف معين كقوله : برطلمين الكافر ، اللعين كفرلى ، والتعيس بونابرته ، والملعون ديبوى ، والملاعين الكفار ، ولكنه يحذف كل هذه الأوصاف فى « عجائب الآثار » .

والحقيقة أن المقارنة بين بعض النصوص الواردة فى الكتابين ، توضح مقدار التباين فى عاطفة الجبرتى ، وموقفه المعدل .

١ — حوادث محرم سنة ١٢١٣ :

مظهر التقديس (وفى يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهورورشيد ، وخرج معظم أهل تلك البـلاد على وجوههم، فذهبوا إلى فوة ونواحيها ، والبعض أقام ببلده فأمن) .

عجائب الآثار (وفى يوم الاثنين والبعض طاب الأمان ، وأقام ببلده ، وهم العقلاء) .

٢ — صفر سنة ١٢١٣ « عند دخول الفرنسيس القاهرة » :

مظهر التقديس : (ثم إن عساكرهم صارت تدخل إلى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات .. ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، وهذه من أعظم المكايد لأجل أحتلال عقول العامة، وانهمكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السعرانين ، ففجر السوقة) .

عجائب الآثار (ثم إن عساكرهم .. ولكن لم يشوشوا على أحـد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، ففجر السوقة ... » .

٣ — ربيع الأول سنة ١٢١٣ « احتفال الفرنسيس بعيد الجمهورية » :

مظهر التقديس : (وسبب هذا العيد أنهم لمـا قتلوا سلطانهم ، وظهرت رغبتهم التى ابتكروها ، وخرجوا بها عن الطريق والملل ، جعلوا ذلك اليـوم عيداً وتاريخاً) .

عجائب الآثار : (وذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً) .

٤ — رمضان سنة ١٢١٣ (عن أسرى المماليك) :

مظهر التقديس : (فلما أصبح الأحد حضر المماليك المذكورة ، وهم ثمانية عشر مملوكاً ، وأربعة من الكشاف ، وهم راكبون الحمير ، ومثقلون بأسلحتهم ، ومعهم نحو المـــائة من عساكر الفرنسيين ، فحزن المسلمون لذلك ، وانقبضت نفوسهم ، وصاروا بين مصدق ومكذب) .

عجائب الآثار : (فلما أصبح ... ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيس وأمامهم طبولهم ، وخرج بعض الناس تشاهدهم) .

٥ — ذى الحجة سنة ١٢١٣ (حملة الشام) :

مظهر التقديس : (ولم يأت خبر صحيح عن فرنسيس الشام وما جرى لهم وعليهم إلا روايات لا يوثق بها ، ولا يصح المتواتر منها إلا تكرار هجوم الفرنسيس على حصون عكا ، ولم يتركوا من حيلهم ومكايدهم شيئاً إلا فعلوه ولم ينالوا غرضاً منها ، ومكروا ومكر الله والله خير المـــاكرين) .

عجائب الآثار : (ولم يأت خبر صحيح .. ولم ينالوا غرضاً منها) .

٦ — ذى الحجة سنة ١٢١٣ :

مظهر التقديس : يورد القصيدة التى نظمها السيد على الصبرفى الرشيدى فى مدح أحمد باشا الجزار ، وهى تسعة وتسعون بيتاً ، ثم يعلق بقوله : (ثم هو قد مدح مخدومه أحمد باشا الجزار ، وهو بهذا المدح حقق لكونه جاهد فى الدين حق الجهاد ، فأرغم العدو وأسر الصديق ، وفى الواجب والمتحتم لدى أن مدح مولانا الوزير أبقاه الله شكراً على نعمه ، فتولى مصر التى أجراها الله على يديه واختاره لهـــذه المنقبة الشريفة الرفيعة الذكر فى الدنيا ، والمضاعفة الثـــواب فى الأرض لديه ، واستنقاذها من أسر أولئك الكفرة اللئام ، ورد شمل المسلمين بعد الصدع إلى الانتظام والالتئام .

عجائب الآثار : يذكر عشرة أبيات من قصيدة الرشيدى دون تعليق .

٧ — صفر سنة ١٢١٤ (معركة أبى قير البرية) :

مظهر التقديس : يذكر الجبرتى (العسكر السلطانى بجهة أبى قير) .

عجائب الآثار : يذكر الجبرتى (العسكر الوارد لجهة أبى قير) .

مظهر التقديس : (أشيع أن الفرنساوية انتصروا على المسلمين ، وأخذوا قلعة أبى قير) .

عجائب الآثار : « أشيع أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبى قير وظهروا عليهم ، وقتلوا الكثير منهم ، ونهبوهم ، وملكوا قلعة أبى قير) .

٨ — ربيع الأول سنة ١٢١٤ :

مظهر التقديس : (حضر كبير الفرنسيس ودخل إلى دار بالأزبكية ، وحضر بصحبته عشرة أناس أسرى المسلمين (موقعة أبى قير) ، وشاع الخبر بحضوره ، فذهب كثير من الناس إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته ، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف فى وسط البركة ايراهم الناس ، فكفكفت الناس دموعهم ، وكظموا غيظهم ، وطووا قلوبهم على حرقة الناس ومرارة الأنف ، وأظهروا التجلد للعدو ، وقد طار من القلب الراحة والهدوء) .

عجائب الآثار : (وحضر سارى عسكر الفرنساوى بونابرته ، ثم دخل إلى داره ليراه الناس ، ثم أنهم حرقوهم بعد حصة من النهار) .

ونستطيع من هذه المقارنة أن نخرج بحقيقة جوهرية هامة ، وهى أن الجبرتى فى عجائب الآثار (ج ٢) قد غير إلى حد كبير موقفه من الاحتلال الفرنسى على أسس معينة :

أولا : أنه كان أكثر موضوعية فى عجائب الآثار .

ثانياً : أن من مظاهر هذه الموضوعية انتفاء العاطفة الساذجة ، واختفاء أثرها فى حكمه على الحوادث والناس .

ثالثاً : أن الجبرتى فى مظهر التقديس كان كاتب مذكرات أكثر منه مؤرخاً ، بينما أتيحت له فى عملية إعادة كتابة حوادث الاحتلال الفرنسى فى الجزء الثالث من عجائب الآثار فرصة فحص هذه الحوادث بعمق ، وإلقاء أضواء جديدة عليها ، حتى برزت صفته كمؤرخ أكثر منه كاتب مذكرات .

* * *

مدرسة التراجم :

عرضنا فيما سبق إلى المدارس التاريخية الثلاث فى العصر العثمانى مدرسة اهتمت بالتاريخ العام ، واستطاعت أن تحتفظ ببعض التقاليد التى ورثها العصر العثمانى فى صناعة التاريخ ، والمدرسة الثانية هى مدرسة التراجم ، وهذه أيضاً امتداد لتقاليد عربية فى كتابة التاريخ ، والمدرسة الثالثة هى مدرسة الأجناد التى اهتمت بصفة خاصة بحوادث الحروب والفتن بين الحاميات العثمانية التى ملأت هذا العصر .

وقد تكلمنا عن المدرسة الأولى ، مدرسة التاريخ العام ، وموضوعنا الآن هو مدرسة التراجم . ومدرسة التراجم من أعرق المدارس التاريخية العربية ، والمعتقد أنه ليس هناك أمة عنيت بتدوين سير مشاهير رجالها ، كما فعلت الأمة العربية . فمنذ بدأ ابن إسحق بوضع سيرة النبى والواقدى وابن سعد فى تأليف الطبقات إلى يومنا هذا ، ومدرسة التراجم هى الغالبة على كتابة التاريخ العربى . وقد بلغ من ولع العرب بهذا الموضوع بالذات من التاريخ تنوع التأليف به

وتعدده ، فمنها ما رتبت السير فيه على طبقات ، فطبقة الصحابة ، وأخرى للتابعين ، وطبقة للقراء ، وأخرى للمحدثين ، وطبقة للشعراء ، وطبقة للأدباء وطبقة للنحاة ، وطبقة للأطباء ، بحيث قل أن تجد أهل فن أو علم أو فرقة من الفرق ، أو أتباع مذهب من المذاهب لم توضع طبقة أو طبقات فى تراجمهم.

ومن أبرز هذه التآليف تراجم الأعيان ، دون الاقتصار على طبقة خاصة كوفيات الأعيان لابن خلكان مثلا ، وفوات الوفيات للكتبى ، وتهذيب الأسماء للنورى ، وهلم جرا — بل ذهب بعض المؤرخين من العرب فى تراجمهم للأعيان بتصنيف مؤلفاتهم وفق القرون ، فهذا كتاب فى أعيان القرن الثامن وذلك فى أعيان القرن التاسع — وهذا النوع الأخير ، أى الذى يتناول الأعيان بصفة عامة إطار قرن واحد ، أحدث عهداً من كتب الطبقات الأخرى ويدور أقدم المشهور منها على سير أعيان القرن الثامن الهجرى ، وهو كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ، ويليه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى :

هذه المدرسة بالذات هى التى ظهر فيها نوع من البعث والإحياء فى العصر العثمانى ، فالحقيقة أن كتابة التراجم فى العصر العثمانى لا تسير موازية مع حركة التاريخ العام — هذا أولا — ثم تتميز هذه المدرسة بعد ذلك بأمرين بارزين للغاية :

أولا : إنها لم تعرف الصفة الإقليمية أو المحلية التى عرفها التاريخ العام ، فليست هناك تراجم لأعيان بلد عربى بذاته ، وإنما هى كلها أو أغلبها تراجم للعلماء العرب فى منطقة الشرق العربى ، وأقول فى الشرق العربى ، لأنه قلما ترجم لعلماء المغرب ، على أننا نلاحظ هذه الوحدة العربية عند تراجم العلماء فقط ولا نلحظها مثلا فى تراجم رجال الدولة . والسبب فى ذلك الصلة العلمية

الدينية داخل دائرة العلم فى الشرق العربى : القاهرة ، دمشق، حلب ، مكة ، المدينة ، حضرموت ، زبيد وغيرها .

ثانياً: الملاحظة الأخرى الأخرى هى أن التفوق فى هذا الشأن كان من الشام، فمدرسة الشام ومدرسة دمشق بالذات كانت لها الصدارة فى هذه التراجم ، وهى التى أثرت من غيرها فى مدارس التراجم فى الشرق العربى ، فالغــزى صاحب « الكواكب السائرة بأعيان المــائة العاشرة » كان من غزة أصلا ، ورحلت أسرته إلى دمشق وتعلم هناك ، وابن طولون الصالحى الدمشقى صاحب كتاب « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » (القرن العاشر أيضاً) كان دمشقياً ، وفى القرن الحادى عشر بدر الدين حسن الصفورى صاحب « تراجم الأعيان من أبناء الزمان» كان من بلاد الشام ، ومصطفى فتح الله الحموى الأصل صاحب « فوائد الارتحال ونتائج السفر فى أخبار أهل القرن الحادى عشر » ، والمحبى صاحب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » حموى الأصل أيضاً ، وحين نصل إلى القرن الثانى عشر الهجرى نجد المرادى من دمشق، وهو صاحب « الأثر الكبير » الذى دفع الزبيدى والجــبرتى إلى كتابة التراجــم كما رأينا فى حديثنا عن عبد الرحمن الجبرتى :

على أن التأثير الشامى فى حركة التراجم لم يكن يعنى الاقتصار على تراجم بلاد الشام ، فكل واحد من هؤلاء كان يكتب تراجم علماء العرب فى الشرق العربى كله .

وفى القرن العاشر يبرز فى هــذا المجال ثلاثة : الغــزى والعيدروسى وابن طولون . والغزى هو المشهور من هؤلاء الثلاثة ، فكتابه يتناول أعيان المــائة العاشرة كلها ، وقد قام بنشره وتحقيقه جبرائيل سليمان جبور ، ونشره فى ثلاثة أجزاء فى بيروت ، الأول فى عام ١٩٤٥ ، والثانى فى عام ١٩٤٩ ،

والثالث فى عام ١٩٥٨ . والغزى هو نجم الدين محمد بن رضى الدين الغزى العامرى القرشى الشافعى ، توفى سنة ١٠٦٠ عن ثلاث وثمانين سـنة ، جمع فى كتابه هذا تراجم أعيان المـائة العاشرة، من أهل دمشق وحلب ، وبعضها من بلاد الشام ، ومن علماء القاهرة والحرمين الشريفين ، ومن أعيان الأتراك العثمانيين ، وقد وضع الغزى كتابه فى ثلاثة أجزاء أسماها « الطبقات »، يدور الأول منها على تراجم الأعيان المنوفين ، من أول سنة تسعمائة ، وواحدة إلى آخر سنة تسعمائة وثلاث وثلاثين، أى الثلث الأول من القرن العاشر ، ويدور الجزء الثانى على المتوفين فى الثلث الثانى من القرن المذكور ، ثم يدور الجزء الثالث على المتوفين فى الثلث الثالث ، وقد رتب المؤلف التراجم فى كل جزء على حروف المعجم ، ولم يستثن من أسمـاء المترجمين إلا المحمدين ، فقـد وضعهم فى أول كل طبقة ، ثم بدأ بعدهم بالأسماء التى أولها حرف الألف ، حتى انتهى إلى الياء :

ومع أن الغزى أصلا من غزة ، إلا أن أسرته ارتحلت سابقاً إلى دمشق ، وولد هو هناك فى سنة ٩٧٧ هـ ، وتعلم على يد علماء دمشق فى القرن العاشر وجال فى أرجاء بلاد الشام ، وتأثر بمدارسها المختلفة ، ولاسيما بمدرسة حلب ، كما زار مكة والمـدينة ، ومع أنه ليس من الواضح ، لا فيما كتبه هو عن نفسه ، أو فيما كتبه المحبى عنـه أنه زار مصر، إلا أنه كان على صلة بعلماء مصر ، فقد ذكر : (وأجازنى من المصريين شيخنا شيخ الإسلام شمس الدين الرملى المصرى ، وشيخنا العارف بالله تعالى الأستاذ الأعظم زين العـابدين البكرى) ، ومع أن الغزى يحوى تراجم من أنحاء العالم العربى ، ومن بلاد الروم أيضا إلا أنه يلاحظ أنه ينفـرد بالإضافة فى تراجم علماء الروم أى الأتراك وهو أمر يدل على الصـلة الوثيقة بين علماء الشام وعلماء الروم أكثر بكثير من اتصال علماء مصر بعلماء الروم ، والحقيقة أنه يبدو أن الشام،

بسبب موقعها الجغرافى كانت حلقة الاتصال بين علماء الشرق العربى وعلماء الروم ، كذلك يلاحظ عن تراجم علماء مصر أنها قليلة ، بالنسبة لعلماء البلاد العربية الأخرى ، ولا سيما الشام ، كذلك يلاحظ حول تراجم الغزى ، وهذا أمريكاد ينفرد به أنه ترجم لبعض السيدات الصالحات المتنسكات من العرب ، وعلى كل حال فيظل المحور الذى تدور حوله تراجم الغزى أهل العـلم ، ولا سيما أهل الشريعة والإفتاء والقضاء :

وكتاب التراجم الآخر فى القرن العاشر هو «النور السافر فى أخبار القـرن العاشر» ، وهو مطبوع فى عام ١٩٣٤ م بمطبعة الفرات ببغداد ، صححه وضبطه محمد رشيد الصفار فى مجلد واحد ، والمؤلف عربى الأصل من حضرموت ، وإن كانت أسرته قد ارتحلت إلى الهنـد وعاشت هناك ، وهو محـيى الدين عبد القادر العيدروسى الهندى ، وقد ذكر فى حديثـه عام ٩٧٨ هـ الكثير عن تربيته وحياته ومؤلفاته ، ولايفهـم من حديثه أنه زار مصر ، وإن كان على صلة بعلماء الشرق العربى ، ولا سيما علماء اليمن ، فقد ولد فى عام ٩٧٨ هـ ، وتوفى حسبما يذكر المحبى فى سنة ١٠٣٨ هـ بمدينة أحمد أباد وعمره ستون سنة . وقد بدأ العيدروسى تراجمـه بسنة ٩٠١ هـ حتى آخر سنة ١٠٠٠ هـ ، وتحدث عن خطته فى مقدمة كتابه فقـال : (ذكرت فيه وفيات من ظفرت بتاريخ وفاته ممن مات فى هـذا القرن ، من سائر العلماء والصلحاء والقضاة والأدباء والملوك والأعيان ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً أو رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، وضممت إلى ذلك ذكر بعض الحـوادث الجاريات ، والحكايات العجيبة والملح الغريبة ، ولا يعدم كل شخص نادرة جرت له من الأخبار ، وشعر نظمه من الأشعار على وجه الاختصار وما يحصل من الاعتبار. هذا ولم أستوعب كل ما وقع فى هذا القرن من الحوادث لعدم اطلاعى عليها

وإنمـا ذكرت ما انتهى إليه علمي منها ، وربما أن الذى تركته يكون أكثر مما ذكرت ، ولكن إذا كانت الغايات لاتدرك ، فاليسير منها لايترك ، وأرجو أن يكون هذا الكتاب كتاب حديث وفقه وتاريخ وأدب) ، والواقع أن هذا الكلام يوضح طبيعة الكتاب ، بل طبيعة التأليف بشكل عام فى ذلك العصر ، فالمقصود بالتراجم بصفة عامة أن تكون مجموعة من الدراسات المتنوعة فى شتى نواحى المعرفة ، وليس فى كلام المؤلف اختلاف عن بقية أصحاب التراجم أوما سبقه أو مالحقه ، وإنمـا الجديد الذى يقدمه هذا المؤلف أولا أنه يؤكد الوحدة الثقافية التى أشرنا إليها :

وثانياً : عنايته الخاصة بتراجم أهل العلم فى الهند ، واعتبار هؤلاء جزء من التراث العربى الثقافى فى ذلك الوقت ، وإلى جانب عنايته بعلماء اليمن :

* * *

فاذا انتقلنا إلى القرن الحادى عشر وجدنا غزارة فى التأليف فى هذا النوع من الكتابة التـاريخية ، ولكن سنقصر حديثنا هنا على ثلاثة ، منهـا تراجم الصفورى ، ومصطفى فتح الله الحموى ، والمحبى ، وهو الوحيد المطبوع من هذه الكتب الثلاثة .

وكتاب (تراجم الأعيان من أنباء الزمان) لبدرالدين أبى الضياء حسن ابن محمد الصفورى المولود بقرية صفورية فى سنة ٩٦٣ هـ ، والمتوفى فى سـنة ١٠٢٤ هـ بدمشق ، ابتدأ فى تأليفه فى سنة ١٠٠٩ هـ بتشجيع من أستاذه محمد أمين السابق الجعفوى الذى بدأ يتتلمذ عليه الصفورى منذ سنة ١٠٠٨ هـ ، وضمن كتابه تراجم من وجد من زمن ولادته إلى الشروع فى تأليفه من الأعيان والعلماء والفضلاء والأدباء ، والسلاطين والأمراء ، ورتبـه على حروف المعجم ، وابتدأ بالأحمدية ، ومع أن هذا الكتاب يقتصر فى أغلبه على علماء

ورجالات الشام بصفة عامة ، دون بقية أنحاء العالم العربى ، إلا أنه من أنفع كتب التراجم فى القرن الحادى عشر ، فقد كتب سجعاً ، كما يحوى مادة غنية جداً بالنسبة لمن ترجم لهم ، فهو لايكتفى بذكر اسم المترجم وسنة وفاته وأهم مؤلفاته بل تلمس نوعا من التحليل والنقد تكاد تخلو منه كتب التراجم المعاصرة .

فاذا انتقلنا إلى المؤلف الآخر وهو (فوائد الارتحال ونتائج السفر فى أخبار أهل القرن الحادى عشر) للشيخ مصطفى فتح الله الحموى الأصل (المتوفى فى سنة ١١٢٣ ﻫ) نصل إلى أضخم عمل فى التراجم فى القرن الحادى عشر. فالكتاب حافل بتراجم مشايخ وعلماء القرن الحادى عشر الهجرى وهو عبارة عن موسوعة جمعت من ذيل الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة للغزى ، ومجمع البحور فى علماء اليمن لابن أبى الرحال اليمنى ، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ، وعقد الجواهر والدرر فى الحضريين والعلويين لمحمد بن أبى بكر بعلوى ، ولكن فتح الله لا يقتصر على عملية الجمع من هذه المراجع ، بل أضاف هو الكثير من أخبار وتراجم المصريين والشاميين بالذات ، وهو فى ثلاثة أجزاء مرتبة على حروف المعجم ، وإن بدأ بالمحمديين على غرار المتأخرين من مؤلفى التراجم ، ومع أن هذا الكتاب يقتضب فى تراجمه إلى حد بعيد ، إلا أنه يتميز عن غيره من أصحاب التراجم الشاميين بكثرة ما يورد من تراجم المصريين .

أما المحبى فهو صاحب كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، وهو محمد الأمين فضل الله بن محب الله المحبى ، ومع أنه حموى الأصل ، إلا أنه دمشقى المولد والدار ، حنفى المذهب ، ولد بدمشق عام ١٠١١ ﻫ ، وتوفى فى عام ١١١١ ﻫ ، وهو الكتاب المطبوع من هذه المجموعة ، فقد طبع بالقاهرة

سنة ١٢٨٤ هـ فى أربعة أجزاء ، رغم أنه أقل من ناحية الأهمية العلمية والتاريخة من المرجعين السابقين : حقيقــة أنه تناول المــائة الحادية عشرة على نفس المستوى العربى العام : اليمن والبحرين ، والحجاز والشام ، ومصر والروم ، إلا أنه يميل إلى الصياغة الأدبية ، ولايقــدم فى الحقيقة مادة تاريخية بالمعــنى المفهــوم :

* * *

فاذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر نجــد أن من أبرز التراجم فى هذا القرن هو « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » ، ويسمى أيضاً « أخبار الإعصار فى أخبار الأنصار » ، ويبدو أن هذه التسمية هى التى اختارها أولا المرادى ، وقد ترجم الجبرتى للمرادى فى حوادث عام ١٢٠٦ هـ ، فذكر أنه (لمــا توفى والده تنصب مكانه مفتى الحنفية بالديار الشامية ونقيب الأشراف ، باجمــاع الخاص والعام ، وما فيها أحسن سير ، وزين بمآثره العلوم النقلية (ثم يقول) (وكان رحمه الله مغرماً بصيد الشوارد وقيد الأوابد ، واستعلام الأخبار وجمع الآثار ، وتراجم العصريين على طريقة المؤرخين ، وراسل فضلاء البــلدان البعيدة ، ووصلهم بالهدايا والرغائب العديدة ، والتمس من كل جمع تراجم أهل بلاده وأخبار أعيان أهل القرن الثانى عشر ، بحسب وسع همته واجتهاده) ، ثم أخذ الجبرتى يروى قصة علاقته بالزبيــدى والظروف الأولى التى أدت إلى كتابة الجبرتى نفسه للتاريخ على نحو ما ذكرناه سابقاً ، وهى فى إيجاز :

أولا : مرحلة جمــع الجبرتى للتراجم عن المصريين بتكليف من أستاذه الزبيدى بناء على طلب المرادى دون علم الجبرتى بصلة الزبيدى بالمرادى .

ثانياً : لمــا مات الزبيدى فى سنه ١٢٠٥ راسل المرادى الجبرتى ، وطلب إليه أن يكمل تراجمه التى كان قد بدأها مع الزبيدى ، وعاد الجبرتى إلى التراجم

مرة أخرى، حتى توفى المرادى نفسه فى سنة ١٢٠٦ ، ويقول الجبرتى (وما أدرى ما فعل الدهر بتاريخه المذكور) ، وهــذا التاريخ هو الذى طبع بالآستانة عام ١٢٩١ هـ ، الأجزاء الأول والثانى والثالث، وطبع الجزء الرابع ببـولاق سنة ١٣٠١ هـ .

ولقد كانت حركة كتابة التراجم قد انتقلت فى العصر العثمانى إلى بلاد الشام بصفة أساسية ، مع اتخاذها شكل المجال العربى العام ، إلا أنها عادت مرة أخرى بالتأكيد إلى مصر على يد الجبرتى، ولكنها عادت بتوجيه وتأكيد شامى كما رأينــا فى الحديث عن الظروف التى أدت إلى كتابة الجبرتى للتاريخ . والجبرتى قد ذكر قصة هذا التاريخ فى ترجمته للمرادى ، وقد قال ما نصـه: (وكان هو السبب الأعظم الداعى لجمع هذا التاريخ على هذا النسق) .

وتمثل التراجم جانباً كبيراً من تاريخ الجبرتى ، ورغم أنه لاينفرد بكتابتها بل يذكر حوادث كل سنة إلى جانبها، إلا أنها تحتل مكانة كبيرة من تاريخه. فقد بدأ الجبرتى بها وهى تمثل الجزء الأكبر من كتابه ، ولا سيما فى الجـزئين الأول والثـانى ، وقد أطلق الجبرتى على كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ، فقدم التراجم على الأخبار ، وهو أمر له دلالته فى أهمية تراجم الجـبرتى .

ويسير الجبرتى فى طريقته فى الترجمة على نحـو محدد ، فيترجم للمشايخ والعلماء ، ثم للأمراء ، وغيرهم من طبقات الناس ، وقد ترجم قليلا لأهل الذمة ، وترجم لسيدة واحدة هى نفيسة المرادية زوجة مراد باك . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تراجم الجبرتى تحوى الكثير من المعلومات المتعلقة بالحوادث من التى لم ترد فى سياق الأخبار نفسها ، لذلك فمن الخطأ أن يقتصر البعض على الأخبار دون الاستعانة بالتراجم فى فهم هذه الأخبار نفسها ، بل على العكس

تبدو التراجم أحياناً جمعاً للحوادث ومرتبة ومنظمة لها ، خصوصاً بالنسبة لتراجم الأمراء أمثال على بك الكبير ، أو محمد بك أبو الذهب ، أو مراد ، أو إبراهيم . غير أن من أهم ما فى تراجم الجبرتى التعرف على حياة الجبرتى نفسه ، ففى هذه التراجم دراسة للعلماء الذين تتلمذ عليهم الجبرتى أو راماهم أو درس لهم ، وفيها تصوير شامل للبيئة العلمية التى عاش فيها .

ولئن كانت تراجم الجبرتى تتميز عن جميع التراجم السابقة بما تشمله من تحليل ونقد — لاوضع الحقائق المجردة فى أضيق الحدود كما فعل السابقون — بحيث جاءت عاكسة للحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية معاً ، فان ما يؤخذ على هذه التراجم أنها لم تكن بنفس المستوى من الشمول العربى ، الذى نلحظه فى تراجم المدرسة الشامية .

* * *

مدرسة الأجناد :

هناك فريق من المؤرخين فى العصر العثمانى يمثلون بمفردهم مدرسة خاصة إذا شئت ، لم تكن صناعتهم كتابة التاريخ أو الاشتغال بالعلم ، بل كان أغلبهم من الأجناد ، مارسو كتابة التاريخ كنو من الهواية ، وهذه المجموعة من كتاب التاريخ العثمانى كانت موضع تجاهل وعدم اهتمام من جانب المعاصرين لهم فى العصر العثمانى ، بل من جانب المؤرخين المحدثين اليوم ، ودليلنا على موقف المعاصرين لهم ما كتبه الجبرتى فى مقدمة كتابه عجائب الآثار ، أنه حين شرع فى كتابه هذا : (وأردت أن أوصله بشىء قبله ، فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ، ركيكة التركيب ، مختلفة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص فى مواضع من خلال الوقائع) ، لم نجد دليلنا على تجاهل المؤرخين المحدثين لهم ، فى أن هذه المجموعة من المؤرخين لم تنشر كتبهم ولم تحقق ، بل لم تستخدم فى البحث العلمى فى تاريخ هذه الفترة

حتى اليوم ، ولقد نتج عن ذلك أن معلوماتنا عن هذه المجموعة من المؤرخين ضئيلة جداً ، لذلك يستحيل التعرف عليهم إلا فى حدود ضيقة للغاية .

أول هؤلاء أحمد بن زنبل المحلى الرمال ، ولا تتحدث المراجع المعروفة بشىء عنه، سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثمانى فى وقت ما، وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التى أنهت دولة المماليك بمصر والشام وأنه حضر جنازة طومان باى آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثمانى :

ولابن زنبل (تاريخ أخذ مصر من الجراكسة) ، وهو سجل واف لحوادث الفتح العثمانى من يوم خروج السلطان قانصوه الغورى من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال الشام إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول إلى استنبول ، ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منـــذ تأليفه ، ومنه كتبت نسخة أو نسخ شعبية ما برحت تسلية المقاهى بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادى [١] ، وترجمه السهيلى إلى التركية منذ القرن السابع عشر ضمن كتاب له اسمـــه (الدرّة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة) ، واعتمد عليه مارسل Marcel أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ مصر الإسلامية ، ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن ، ويقول الدكتور محمد مصطفى زيادة : (وربمـــا عنى به المعنيون بالتاريخ المصرى قريباً ، لتكون منه نسخة منشورة نشراً نهائياً مقارناً ، يطمئن إليه المؤرخون اطمئناناً علمياً [٢]) ، والمعروف كذلك من أخبار ابن زمبل أنه بقى حياً يرزق من وظيفته بديوان الجيش العثمانى سنة ١٥٤٤ م ،

(١) زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) زيادة : ص ٧٥ وما بعدها .

وأنه أقام وقتذاك ببلدة أبى قير الحالية قرب الإسكندرية ، وأنه توفى بعد سنة ١٥٥٢ م :

هذا بالنسبة للقرن العاشر ، ولكن القرن الحادى عشر يخاو — فيما يبدو — من هذا النوع من المؤرخين ، أو ربما كان هناك عدد منهم لم يصل إلينا خبرهم بسبب ضياع كتبهم إبان الحروب الأهلية ، أو الغزو الفرنسى :

وفى القرن الثانى عشر يظهر عدد منهم — ولعل السبب فى ذلك امتلاء القرن بحوادث الصراع بين الأوجاقات العثمانية والبيوت المماوكة — أهم هؤلاء على الشاذلى الذى عنى بتاريخ ثورة الفرنج (وهى مخطوطة صغيرة بدار الكتب المصرية) ، وأحمد الدمرداش كتخدا عزبان صاحب كتاب (الدرة المصانة فى أخبار الكنانة (وهى مخطوطة ضخمة من جزئين بالمتحف البريطانى بلندن ، وإبراهيم مصطفى صاحب كتاب (تاريخ وقائع مصر القاهرة) مخطوطة من جزئين بالمكتبة التيمورية بدار الكتب :

وليست لدينا ترجمة لاحمد الدمرداش كتخذا عزبان ، فلم يشر إليه الجبرتى فى تراجمه ، كما لم نعثر فى دفاتر دار المحفوظات بالقلعة على شىء يشير إليه ، إنما من الواضح من لقبه أنه كان يتولى منصب الكتدائية بأوجاق عزبان ، وهو يأتى بعد منصب الأغا قائد الأوجاق ، كما أن أوجاق عزبان يأتى فى المرتبة التالية لأوجاق الانكشارية ، ومن ناحية أخرى يشير المؤلف أحياناً فى كتابه إلى نفسه عند ذكر بعض الحوادث بقوله : (وكان الحقير حاضراً) .

والكتاب يتناولون تاريخ مصر السياسى منذ بداية القرن الثانى عشر الهجرى (من سنة ١٠٩٩ هجرية على وجه التحديد حتى سنة ١١٦٩ هـ) ، وقد ذكر المؤلف فى آخره الجملة التالية : « هذا قد نهيت تاريخى على ذلك وأن أعطانى الله عمراً زدته مما أراه عياناً) ، ولما كنا نعلم أنه ليس هناك تاريخاً بعد ذلك

لهذا المؤلف ، فالمرجح أن يكون المؤلف قد توفى بعد عام ١١٦٩ هـ بقليـل ، غير أنه من الواضح أن المؤلف كان يكتب مذكرات لحوادث عاشها وليست تحقيقاً تاريخياً .

ما هى أهم مميزات هذا المؤلف ؟ :

أولا : تبدو أهمية الرجل فى الفترة التى عاشها وهى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وهى فترة غنية جداً فى تاريخ مصر العثمانية ، وربما تكون أغنى فترة من الناحية السياسية ، لأنهـا الفترة التى شاهدت الحـروب بين الأوجاقات العثمانية ، وانهيار النظام الذى أسسه سليم الأول وسليمان ، انهياراً تاماً والذى انتهى بسيطرة البكوات المماليك ، ثم يضاف إلى ذلك أن الجبرتى بدأ يكتب بدقة وإفاضة منذ سنة ١١٩٠ هـ ، لذلك تعتبر كتابات الدمرداش عزبان مكملة لكتابات الجبرتى :

ثانياً : لمـا كان الدمرداش عزبان ليس فقط معاصراً لهذه الأحداث ، بل اشترك فيها ، فان كتاباته تتميز بالتأكيد عن مدرسة العلماء والمشايخ بفهمها العميق ، وبالإضافة الواسـعة للانقسامات والأحزاب العثمانية والمملوكية ، وهذا كله لا يمثل تاريخاً عسكرياً كما يتبادر إلى الذهن ، بل تاريخاً سياسياً ، لأنه صراع حول السلطة . فالنظام العثمانى كان يقوم على قاعدة عسكرية : وبالكتاب ثروة ضخمة جدا من المصطلحات العسكرية والإدارية والمـالية الخاصة بالعصر العثمانى ، وهى أمور تفتقر إليها كتب المشايخ والعلماء من المـؤرخين .

ثالثاً : لا يجب أن يفهم من ذلك أن الكتاب هام فقط فى فهم التطـور السياسى ، أو التاريخ المحلى السياسى فى مصر العثمانية ، فالواقع أن الكتاب يصور بدقة البناء العثمانى فى مصر وتركيب المجتمع المصرى فى العصر العثمانى . خذ مثلا التركيب الطائفى للمجتمع من خلال كلامه عن إبراهيم بك أبو شنب

الذى كان قائداً على حملة عسكرية طلبها السلطان العثمانى فى سنة ١١٠٥ هـ قال : (انجهزت الألفين راكب إبراهيم أبو شنب بالسدارة أصحاب الأداك إلى بولاق نزل فى قصر الحلى وشيخ الشحاتين فى ركابه مع طايفته وهم يصرخوا ويقولوا الله يردك علينا يا بيك سالم ، لإنك أبو الفقرا ، لأنه كان يعرفهم بالواحد إذا أعطى واحد منهم نصف فضة وجرى طلع الرميلة من المظفر وقف قدامه يقول له أخذت نصيبك فى الصايبية) ص ١٧ ، ١٨ ، ثم يذكر عند عودة إبراهيم بك فى نفس السنة عن هذه التجريدة (وإذا بابراهيم بيك شنب طلع بندر الإسكندرية أرسل ساعى لكتخداه نزل الحلى بالمعازق النحاس والطباخين يعملوا سماط أخذت الشحاتين خبر ، جمعوا بعضهم من أربعة وعشرين ألف نصف فضة اشتروا بهم حصان معبأ مزركش ، وسرج ورشمة ورخت وغدارة ودبوس وركاب مطلى ، فلما طلع الحلى ونزل على السماط قدموا له هذا الحصان المرخت فقبله منهم ، وقطع لهم وصلا بثلاثين ألف فضة ، بات تلك الليلة ، وعند الصباح ركب حصان الشحاتين ، وطلع عند الباشا ، خلع قفطان السلامة) ص ١٨ — ١٩ :

مثل هذا النص يصور التركيب الطائفى للمجتمع ، وهو تركيب ينتظم فيه جميع أفراد المجتمع على اختلاف حرفهم وأعمالهم ومذاهبهم ، فيضع كل أصحاب حرفة مهما بلغت من الانحطاط فى مكانها من المجتمع ، وتعترف بها الدولة وتحترمها ، وتتعامل معها على هذا الأساس .

رابعاً : والكتاب كذلك مجال للدراسة الاقتصادية ، فهو يذكر دائماً أسعار الحاجات فى ارتفاعها وانخفاضها ، كما يقدم صورة زاهية جداً عن الحياة الاجتماعية : العادات والتقاليد الوطنية والدينية .

أما كتاب إبراهيم مصطفى « تاريخ وقائع مصر القاهرة » فهو يتناول نفس الفترة التي يتناولها كتاب عزبان ، أي النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجرى ، وبنفس الأسلوب فى المعالجة ، وإن كان واضحاً من المقارنة بين الكتابين أن عزبان كان أكثر اتصالا بالأحداث ، وأكثر عناية بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية من حياة المجتمع :

ومن المؤكد أن فى كل من عزبان وإبراهيم مصطفى مجالا واسعاً للدراسة اللغوية ، فالكتابان مكتوبان بلغة أقرب للعامية منها للفصحى :

قدمنا نماذج للكتب التاريخية فى العصر العثمانى ، أى ابتداء من الفتح العثمانى حتى نزول الحملة الفرنسية بأرض مصر ، وواضح من هذه النماذج التى عثرنا عليها أنه لم يكتمل حتى الآن ثبت بكافة المؤرخين الذين عاشوا هذه الفترة ، وكتبوا عنها . غير أنه من الواضح أن مدرسة التراجم كانت أنشط المدارس التاريخية خلال هذا العصر ، وأنه إلى جانب التراجم التى تمثل العمود الفقرى فى الكتابة التاريخية فى العصر العثمانى وجدت مجموعتان من المؤرخين : مجموعة العلماء والمشايخ التقليديين ، وكانت تحاول أن تنشط وتستعيد التقليد المصرى المملوكى فى الكتابة التاريخية : أولهم ابن إياس فى القرن العاشر ، وفى الوسط ابن أبى السرور البكرى الصديقى فى القرن الحادى عشر ، والجبرتى فى القرن الثانى عشر ، وهذة المدرسة قد ضاعت تماماً بعد الجبرتى ، والمجموعة الثانية هى مجموعة الأجناد الذين كتبوا بالعامية أو شبه العامية ، والذين أهملوا إهمالا تاماً من جانب المعاصرين والمحدثين ، وهؤلاء أيضاً اختفوا اختفاء تاماً بعد عزبان ، ونريد أن نصل من هذا إلى حقيقتين :

أولا : إن المهمة الأولى للباحثين اليوم فى التاريخ العثمانى يجب أن تتجه إلى نشر كل هذه المخطوطات التاريخية ، فبدونها لا يمكن أن يكتمل بناء التاريخ

المصرى فى العصر العثمانى ، سيما وأننا نفتقر فعلا إلى مادة تاريخية عن هذه الفترة وبالذات فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ثانياً : أن العصر العثمانى – على فقره فى كثير من الجوانب الفكرية – شاهد محاولات ضعيفة ومترددة نحو إعادة تكوين المدرسة التاريخية التى عرفها العصر المملوكى ، ومع ذلك فهو أكثر ثراء من ناحية الكتابة التاريخية من العصر اللاحق على العصر العثمانى الذى فرغ كلية من مدرسة تاريخية واضحة المعالم ولها تقليد معين .

أثر القاهرة
فى نهضة اللغة العربية وآدابها فى القرن العشرين

محمد خلف الله أحمد

أثر القاهرة
في نهضة اللغة العربية وآدابها في القرن العشرين

محمد خلف الله أحمد

(١)

شهد القرن الحاضر نهضة كبيرة الأثر في اللغة العربية ، تمثلت في نمو ثروتها ، بما جدّ عليها من عشرات ألوف المصطلحات العلمية والحضارية ، وفي إتساع آفاقها في التعبير ، نتيجة لما حققته الحياة العربية الحديثة من تقدم في مختلف نواحيها الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ وفي تجدد أساليبها ، وتخلصها مما علق بها في عصور ما قبل النهضة من السطحية والزخارف اللفظية المسرفة ؛ وفي تطوير قواعدها واشتقاقاتها ، وتطويعها لمطالب الفكر الحديث ، وفي العناية بدراسة ظواهرها على المناهج العلمية التي جاءت مع تطور الدراسات الصوتية واللغوية ، وفي التقارب الملحوظ بينها وبين لهجاتها المحلية ، نتيجة انتشار التعليم ووسائل الإعلام التي أصبحت عناصر أساسية في حياة الأمة العربية .

وشهد القرن الحاضر كذلك نهضة مماثلة في آداب اللغة العربية ، يمكن إجمال مظاهرها فيما يلي :

تطور الفنون الأدبية التي عرفها الأدب العربي الكلاسيكي : كالقصيدة والخطبة والمقالة ، واتساع مفاهيمها ، ووظائفها وأساليبها ، تبعاً لتطور الحياة

الحديثة ؛ واستكمال الفنون الأدبية التى عرفتها الآداب العالمية الراقية ، ولم يكن للأدب العربى فى قديمه حظ كبير منها : كالقصة والرواية ، والملحمة والمسرحية ؛ وفتح منافذ التجارب التجديدية فى الشعر العربى ، وزيادة الحوار بين المدارس المحافظة والمدارس النزاعة إلى التجديد ، وتطور النقد الأدبى العربى بما أفاده من اتجاهات النقد العالمى الحديثة ، وبما ألقت عليه الدراسات الأكاديمية من أضواء جديدة ، ونمو الاتصال بين الأدب العربى والآداب العالمية المعاصرة ، عن طريق الترجمة وتبادل الزيارات بين الأدباء ، وازدياد التعاون بين الجمعيات الأدبية فى مختلف البلاد ، وتوثيق الارتباط بين الأدب العربى وحياة شعوبه ، والتزام الأدباء العرب بمصالح مجتمعهم ، وقضاياه القومية والدولية .

(٢)

إن البحث فى أثر القاهرة فى نهضة اللغة العربية وآدابها فى القرن الحاضر ، لا يعنى أن القاهرة وحدها هى التى أثرت فى النهضة ، فالواقع أن اللغة العربية وآدابها تراث مشترك بين البلاد العربية جميعاً ، ومن الطبيعى أن يكون لكل بلد من هذه البلاد — حسب طاقاته وظروف تطوره ومشكلات حياته فى العصر الحديث — نصيب فى صنع تلك النهضة .

بل إن هناك جهوداً بذلت وتبذل من هيئات خارج البلاد العربية لدراسة اللغة العربية وآدابها ونشر تراثها ، ومن بين تلك الهيئات دوائر الاستشراق ، وأقسام الدراسات الشرقية ، ومعاهد دراسات الشرق الأوسط بمختلف الجامعات ، ولهذه الجهود من غير شك أثر فى نهضة اللغة العربية وآدابها فى العصر الحديث .

على أن وجهة النظر التى اتخذها هذا البحث هى أن القاهرة — من حيث التأثير فى نهضة اللغة العربية وآدابها فى القرن الحاضر — تحتل مكانة خاصة ، وذلك لتوافر عوامل وظروف ملائمة فيها ، نشير إليها فيما يلى :

الأمر الأول : الوضع الجغرافى والتاريخى لمصر فى قلب العالم العربى ، والمركز الثقافى والسياسى الذى احتلته منذ القرون الأولى لتاريخها الإسلامى العربى ، والذى احتلته عاصمتها « القاهرة » منذ أن نمت وازدهرت ، وأخذ الأزهر مكانته العلمية بها ، وانتهت إليه القوامة على التراث العربى الإسلامى .

وقد أتاح هذا الوضع لمصر وعاصمتها أن تكونا ملتقى الأدباء والعلماء ، وطلاب العلم فى العصور السابقة ، ومثابة رجال الأدب والعلم ، وزعماء الفكر والإصلاح ، وقادة الكفاح والتحرر من شرق العالم العربى وغربيه ، ومن مختلف بلاد القارة الإفريقية فى العصر الحديث ، كما أتاح لها أن تكونا من أهم حلقات الاتصال الفكرى بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى منذ أوائل عصر الإحياء الأوربى :

وقد سجل التاريخ الثقافى لمصر وعاصمتها أسماء كثير ممن وفدوا عليها من أعلام الأدب واللغة والدراسات الإسلامية والعربية ، وشاركوا فى النشاط الثقافى والفكرى فيها : كأبى نواس ، وأبى تمام ، والمتنبى من الشعراء ، والشافعى والبخارى والغزالى من أئمة الفقه والحديث والتصوف ، وابن خلدون واضع فلسفة التاريخ ، والزبيدى صاحب « تاج العروس » فى اللغة .

الأمر الثانى : ما أتيح لمصر فى تاريخها الحديث من يقظة مبكرة بدأت مع نهاية القرن الثامن عشر ، وتمثلت فى الاستقلال السياسى الداخلى الذى تمتعت به حتى عهد الاحتلال البريطانى ، والنهضة التعليمية والعمرانية التى بدأت منذ أوائل القرن الماضى ، والاحتكاك بالفكر الغربى من طريق البعثات العلمية التى أخذت مصر توفدها إلى مختلف دول أوربا ، والاهتمام بترجمة الكتب الأوربية فى شتى فروع المعرفة إلى اللغة العربية ، وبدء حركة إحياء التراث العربى والإسلامى ، وحركة التأليف فى نواح من الأدب واللغة على مناهج حديثة ، والاتجاه إلى إصلاح اللغة والتجديد فى الأدب ، واصطناع

الفنون التى لم يكن لأدباء العـــربية فى العصور السابقة نصيب كبير فيها : كالقصص ، والأدب التمثيلى .

هذه اليقظة فى مختلف مظاهرها — والتى كانت القاهرة مركزها ورأسها المدبر — جعلت من القرن التاسع عشر مرحلة نشأة ونمو ، نضجت وآتت ثمارها فى النهضة الشاملة للغة العربية وآدابها فى القرن الحاضر .

ولقد كان من المعالم الرئيسية ذات الصلة بنهضة اللغة والأدب فى تلك المرحلة من النمو ، ظهور شخصيات قيادية على مسرح الحركة الثقافية والفكرية فى القاهرة أصبح كل منهـــا رائداً أو مؤسس مدرسة . ويجىء فى طليعة هؤلاء العـــالم الأزهرى « رفاعة » (١٨٧٣) الذى حصّل قدراً من الثقـــافة الأوربية مدة وجوده فى فرنسا إماماً ومرشداً لأعضاء البعثات التعليمية المصرية فيها ، ثم عاد إلى القاهرة فى أواخر الثلث الأول من القرن المـــاضى ، فبدأ حركة نشيطة من الترجمـــة فى التاريخ والجغرافيا والانثروبولوجيا والأنظمة السياسية ، وأشرف على إدارة « مدرسة الألسن » — التى افتتحت عام ١٨٣٥ لتخريج متخصصين فى فن الترجمة — وأخرج هو وتلاميذه عشرات من الكتب ، وأشرف على تحرير « الوقائع الرسمية » التى كانت تصدر باللغتين التركية والعربية وعلى تحرير مجلة « روضة المدارس المصرية » التى أنشئت عام ١٨٧١ ، وشارك فى تحريرها نخبة من أصحاب الأقلام العلمية والأدبية مثل : « على مبارك » (١٨٩٣) و « عبد الله فكرى » (١٨٨٩) و « على فهمى رفاعة » ، كما كانت تنشر فيها بعض الأعمال الأدبية للناشئين الموهوبين مثل الشاب الشاعر « اسماعيل صبرى » الذى عرف بعد بشيخ الشعراء . وعالج رفاعة فى مختلف ترجماته ومؤلفاته كثيراً من ظواهر اللغة العربية ، ودعا إلى تيسير أسلوبهـــا ، واتخذ لنفسه منهجاً فى استحداث الألفاظ للمسميات الحديثة ، وخطا أول

خطوة فى تاريخ الثقافة العربية فى تقديم أساطير الأدب اليونانى إلى الفكر العربى ، وترجم عن الفرنسية عملا روائياً ضخماً يستمد مادته من « الأوديسّا » وهو : « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » .

ومن الشخصيات الرائدة فى تلك المرحلة الشاعر الفارس « محمود سامى البارودى » (١٩٠٤) الذى يعد مؤسس حركة الإحياء فى الشعر العربى بعودته إلى النماذج الكلاسيكية فى العصور العربية الزاهرة ، وتصنيف مختارات منها تبلغ الأربعين ألف بيت ، وجريه على أسلوبها فى شعره الذى سجل فيه وقائعه وأحداث حياته ، وقد حمل لواء هذه الحركة من بعده — وجعل منها منطلقاً لحركة التجديد فى الشعر العربى — الشاعر « أحمد شوقى » الذى عقدت له زعامة الشعر العربى فى الثلث الأول من القرن الحاضر :

وجذبت القاهرة إليها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر المصلح والمفكر الإسلامى « جمال الدين الأفغانى » (١٨٩٧) الذى قامت على جهوده وجهود تلاميذه — وعلى رأسهم صديقه وحواريه العالم المصرى « الشيخ محمد عبده » (١٩٠٥) — مدرسة للإصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى ، امتد نشاطها — ولا سيما فى كتابات الشيخ عبده — إلى الدعوة لإصلاح اللغة العربية وتطوير أساليبها ، وربطها بالحياة . كما جذبت القاهرة إليها فى تلك المرحلة طائفة من علماء البلاد العربية — وبخاصة لبنان — الذى شارك مصر فضل السبق فى الاهتمام بالبعث اللغوى والأدبى ، وكان من بين تلك الطائفة « أحمد فارس الشدياق » الذى أفاد كثيراً من خبرة التحرير الصحافى فى مصر ، و « سليمان البستانى » الذى ترجم ونشر فى القاهرة (١٩٠٢) « الياذة هوميروس » (لأول مرة فى تاريخ الفكر العربى) شعراً عربياً ، و « جورجى زيدان (١٩١٤) » الذى اتخذ من القاهرة مركزاً لنشاطه العلمى والأدبى ، والذى نشر فيها فى أواخر

القرن الماضى وأوائل الحاضر سلسلة رواياته التاريخية الإسلامية ، وكتبه فى « تاريخ آداب اللغة العربية » و « تاريخ التمدن الإسلامى » .

وفى العشرين سنة الأخيرة من القرن الماضى بدأ علماء القاهرة وأدباؤها مرحلة مشاركة العالم العربى فى أعمال المؤتمرات الدولية للمستشرقين ، وكان من رجال الطليعة فى تلك المرحلة « عبد الله فكرى » و « أمين فكرى » (١٨٩٩) و « حفنى ناصف » (١٩١٩) و « حمزة فتح الله » (١٩١٨) ، و « أحمد شوقى »(١٩٣٢) ،الذين قدموا إلى مؤتمر إستكهولم وفينا وجنيف بحوثاً أصيلة جادة فى اللغة وآدابها ، كما قدموا أعمالا شعرية آذن بعضها بمرحلة جديدة من التطور فى القصيدة العربية .

ومما مهدت به « قاهرة » القرن الماضى لنهضة اللغة العربية وآدابها فى القرن الحاضر اتجاه بعض كتابها وشعرائها إلى الأدب القصصى والروائى ، ترجمة وتأليفاً ، وكان ذلك ميداناً جديداً على الأدب العربى ، فترجم « عثمان جلال » (ت ١٨٩٨) أساطير « لافونتين » إلى العربية فى صورة شعرية سهلة ، كما ترجم رواية « ترتوف » لموليير فى قالب عربى بلغة مصر الدارجة وسماها « الشيخ متلوف » ، وألف مسرحية عن الخدم ومخدوميهم ، تمثل البيت المصرى والمجتمع الوطنى ، وألف الخطيب الثائر « عبد الله النديم » (١٨٩٦) روايتين مثلهما هو وتلاميذه ، على مسرح زيزينيا بالإسكندرية ، كما ألف « محمد المويلحى » (١٩٣٠) كتابه « حديث عيسى بن هشام » الذى يعد خطوة فى طريق التحول من فن المقامة إلى فن القصص الطويلة .

هذا الاتجاه الذى أسهم فيه بعض الكتاب السوريين كان بداية لما مابعدها فى التطور القصصى فى القرن الحاضر .

وهناك ثلاثة أنواع من منجزات القاهرة فى القرن المـاضى ، تستحق التسجيل هنا :

الأولى : إنشاء مدرسة دار العلوم (كلية دار العلوم الآن بجامعة القاهرة) عام ١٨٧١ لإعداد متخصصين من خريجى الأزهر على منهج تربوى حديث لتدريس اللغة العربية وآدابها فى مراحل التعليم ، وقد اختير بعض كبارالعلماء كالشيخ « محمد عبده » والشيخ « حسين المرصفى » للتدريس فيها ، وأُرسل الكثيرون من خريجيها لدراسة الآداب وعلوم التربية والنفس فى الجامعـات الأوربية . وقد أدت هذه الدار خدمات جليلة للغة وآدابها ، وشارك خريجوها مشاركة مثمرة فى النشاط العلمى للجامعة المصرية فى عهديها الأهلى والحكومى .

والثانية : ظهورأول مؤلف فى التاريخ لعلوم العربية على نمط حديث،وهو كتاب « الوسيلة الأدبية إلى علوم العربية » للشيخ المرصفى (١٨٨٩) .

والثالثة : تحقيق الفكرة التى دعا إليها رفاعة ومحمد عبده ، وغيرهمـا من مفكرى القرن المـاضى ، وهى إنشاء مجمع لغوى للعمل على سلامة اللغـة وتطويرها لمطالب الحياة الحديثة .

وقد تم أول تشكيل للمجمع فى القاهرة عام ١٨٩٢ .

تلك كانت المعالم البارزة فى جهود « قاهرة » القرن المـاضى ، وقـد أفادت منها « قاهرة » القرن الحاضر ، وأضافت إليهـا من جهودها طرائق وميادين جديدة ، كان لها أكبر الأثر فى النهضة الشاملة التى حققتها اللغـة العربية وآدابها فى العصر الحديث .

(٣)

طلع القرن العشرون على مصر وهى تعبىء قواتها وجهودها ، لتخلع عن نفسها نير الاحتلال الأجنبى ، الذى منيت به منذ العقد التاسع من القـرن

الماضى ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى ثارت ثورتها الوطنية عام ١٩١٩ مطالبة بحقها فى تقرير مصيرها ، وقطعت بتلك الثورة أشواطاً فى طريق الاستقلال ، وتوالى جهادها وكفاحها فى سبيل تطوير حياتها ، واستكمال حريتها واستقلالها ، حتى قامت ثورتها التحريرية عام ١٩٥٢ ، وتم لها فى عام ١٩٥٤ إنهاء الاحتلال عن آخر جزء من أرضها . وإذا كانت تلك السنين الطويلة من الكفاح السياسى قد استحوذت على كثير من نشاطها وطاقتها ، فان العمل من أجل النهضة الشاملة فى مختلف مرافق الحياة القومية قد سار يدأ بيد مع الكفاح من أجل الحرية ، وواكبت نهضة اللغة و لأدب ركب النهضة الوطنية مؤثرة فيها متأثرة بها . وكما قامت مصر — ولا تزال تقوم — بالدور القيادى فى جهاد الأمة العربية فى هذا القرن ، لتحقيق حريتها ووحدتها وتقدمها الاجتماعى والاقتصادى ، قامت بمثل هذا الدور فى التطور الثقافى للعالم العربى ، وسار علماؤها وأدباؤها فى طليعة القافلة يحملون رسالة العلم ، ويحيون التراث ، ويطورون اللغة ، ويقربونها إلى الجماهير ، ويدفعون بحركة التجديد الأدبى إلى الأمام .

هذه المرحلة التى بدأت منذ مطالع القرن الحاضر ، والتى توجت عام ١٩٥٢ بقيام عهد جديد من الحياة الوطنية ، قوامه الحرية السياسية ، والحرية الاجتماعية ، والكفاية والعدل ، وتكافؤ الفرص ، شهدت فى مجالات الثقافة والتعليم والاجتماع والصناعة والاقتصاد تطوراً يصل إلى حد الإعجاز فى بعض نواحيه ، وكان من الطبيعى أن يستلزم كل ذلك نمواً مكافئاً فى نشاط الأدب واللغة ، وجدت فى الميدان على الصعيدين الأهلى والحكومى عوامل تعهدت هذا النشاط وزادت من طاقاته، وظلت القاهرة فى حاضرها كما كانت فى ماضيها مركز هذا النشاط ، وموطن قادته ، وملتقى العاملين فيه من مختلف بلاد العروبة ، ومحط رحال المعنيين به من سائر الأقطار .

ويهمنا فى مجال البحث الحاضر أن نشير إلى بعض العوامل الرئيسية التى وجهت نشاط القاهرة فى ميدان اللغة والأدب ، وإلى أهم منجزاتها وآثارها فيـــه :

(ا) كان إنشاء الجامعة المصرية الأهلية فى القاهرة عام ١٩٠٨ عاملا جديداً كبير الأثر فى الحياة العربية العلمية والفكرية بوجه عام ، وفى نهضة الدراسات اللغوية والأدبية بوجه خاص ، وقـــد نمت حركة التعليم الجامعى وتعددت منشآته ، وتحولت الجامعة الأهلية عام ١٩٢٥ إلى جامعة للدولة ، وقامت فى القاهرة عام ١٩٥٠ جامعة ثانية (جامعة عين شمس) إلى جانب الجامعة الثالثة — الأزهر — وحمل أساتذه جامعات القاهرة رسالتها إلى الجامعات المصرية والعربية التى توالى إنشاؤها بعد فى مختلف عواصم العروبة ، وأخذت أقسام اللغات — وفى مقدمتها أقسام اللغة العربية واللغات السامية والشرقية — مكانها فى الكليات الجامعية ، وهكذا عكف الأساتذة والباحثون وأصحاب الرسائل على نشر التراث العربى وتحقيقه ، وعلى دراسة الاتجاهات الأدبية الحديثـــة ونقدها ، والعلاقات بين الآداب الأجنبية والأدب العربى قديمه وحديثه ، وظهرت فى ميدان التأليف النقدى منازع متعـــددة تحاول الإفادة فى درس الأدب ونقده من نتائج الدراسات الإنسانية المختلفة كعلمى النفس والجـــمال وغيرهما ، واتجه المتخصصون فى العلوم اللغوية إلى اصطناع المناهج الحديثة فى دراسة اللغة العربية ولهجاتها وظواهر نموها وتطورها .

(ب) وكان العامل الثانى المهم هو اتساع التلاحم فى ميدان الأدب والنقد بين الفكر العربى والفكر العالمى ، عن طريق البعثات الجامعية إلى مختلف الدول المتقدمة ، وعن طريق ترجمة الأعمال الأدبية والنقدية لمشاهير أدباء تلك الأمم إلى اللغة العربية ، ثم ترجمة الأعمال الأدبية العربية إلى مختلف اللغات الأجنبية

الكبرى، وتلاقت فى هذا الميدان جهود الأفراد ولجان الترجمة والنشر، والمجامع العلمية والجمعيات الأدبية ، وجهود الأجهزة الرسمية للدولة فى وزارات الثقافة والتعليم ، ومجالس الآداب والفنون والعلوم .

(ج) ويجىء « مجمع اللغة العربية » فى القاهرة فى طليعة عوامل النهضة أهمية وتأثيراً . وكان قد انقطع نشاطه بعد تشكيله الأول ، ثم شكل مرة ثانية عام ١٩١٧ . ولكن المرحلة الحقيقية لبروز الجهود المجمعية فى الميدان ترجع إلى العقد الرابع من القرن الحاضر ، إذ شكل المجمع من جديد عام ١٩٣٢ ، ورسم له نظامه الحالى ، وبدأ انعقاده عام ١٩٣٤ ، وشارك فى عضويته — إلى جانب العلماء المصريين — علماء من مختلف البلاد العربية وبعض أعلام المستشرقين، ولم تمض إلا سنوات حتى بدأت جهوده فى لجانه ومجلسه ومؤتمره السنوى — تؤتى ثمارها فى نهضة اللغة الفصحى ، وزيادة ثروتها التعبيرية ، ومصطلحاتها الحضارية والعلمية، ودراسة الصلات بينها وبين لهجاتها المحلية، وتيسير كتابتها ونحوها وصرفها ، وتصنيف معجماتها على نظام يوافق روح العصر ، وإصدار القرارات العلمية المنظمة لعوامل التنمية فيها ، كالقياس والتضمين ، والنحت والتوليد ، والتعريب والترجمة . وقد وجدت أعمال المجمع وقرراته سبيلها إلى التنفيذ فى لغة العلم والتعليم والتأليف ، ووسائل الإعلام ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر البلاد العربية أيضاً . ويعد مجمع القاهرة المركز الرئيسى لتلاقى الجهود العربية اللغوية التى يشارك فيها من زوايا متنوعة مجمعا « دمشق » و « بغداد » و « مركز تنسيق التعريب بالرباط » .

(د) وبإنشاء جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ، واختيار « القاهرة » مقراً لها أضافت القاهرة إلى مراكز الثقافة وأجهزتها فيها مركزاً جديداً، ذا أثر فى نهضة العالم العربى ، وبخاصة ما اتصل منها بالثقافة : فقد كان من أوائل

أعمال مجلس الجامعة إقرار المعاهدة الثقافية التى نصت موادها على تعاون دول الجامعة العربية على إحيـاء التراث الفكرى والفنى العربى، والمحافظة عليه ونشره وتيسيره ، وأن تعمل دول الجامعة على تنشيط الجهود التى تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة ، وأن تسعى إلى توحيـد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان المشتركة ، واستلزم تحقيق هـذه الأهداف إنشاء لجنة خاصة للشئون الثقافية ، ومكتب دائم لها وإدارة ثقافية ، وإنشاء معهد للمخطوطات (١٩٤٦) ، ومعهد للدراسات العربية العـالية (١٩٥٣) ، وكان للغة والأدب من نشاط هذه الأجهزة — وبخاصة المعهد — نصيب كبير ، فقد أصبح قسم اللغـة والأدب به ملتقى العلماء والباحثين والدارسين من أساتذه الجامعات العربية وخريجيها، وتناولت البحوث والدراسات به كل جديد من شئون النهضة اللغوية والأدبية ، وما يعترضها من مشكلات ، وزادت منشورات هذا القسم فى مدى ستة عشر عاماً على مائة بحث وكتاب ، تؤلف فيما بينها صورة متكاملة لتطور اللغة والأدب فى العالم العربى المعاصر .

(هـ) ومن العوامل التى كان لهـا أثرها منذ أوائل القـرن الحاضر — ولا يزال — فى الحياة المصرية عامة وفى تطور اللغة والأدب بشكل خاص ، الصحافة على اختلاف أشكالها من صحف يومية ، ومن مجلات موسميـة ، — أسبوعية أو شهرية — أو غيرها :

فمن تلك الصحف ما اتخذ منه بعض المفكرين أداة لدعواتهم الإصلاحية كصحيفة « الجريدة » التى دعا رئيس تحريرها — أحمد لطفى السيد (١٩٦٣) — فى مطلع القرن الحاضر لتطوير اللغة الفصيحة ، والتقريب بينها وبين لسان التخاطب ، واصطناع أسلوب ميسر للكتابة بها للجماهير ؛ ومنها ما حفلت بالبحوث العلمية فى شتى المعارف — ومنها اللغة والأدب — كمجلتى « المقتطف »

و « الهلال » اللتين سجلت مجلداتهما المحاولتين الأوليين فى إنشاء المجمع اللغوى بالقاهرة ، ومباحث الندوات العلمية التى بحثت شئون اللغة والأدب ، كندوة نادى دار العلوم التى عقدت عام ١٩٠٨ ، وناقش فيها طائفة من كبار الأساتذة والمفكرين مشكلات الفصحى والعامية ، وموقف العصر الحديث من التطور اللغوى ، ووضع أسماء للمسميات الحديثة ، وغيرها من المسائل .

ومن تلك الصحف ما كان مجالا لمساجلات أدبية ولغوية كان المثقفون — والشباب بوجه خاص — يتابعونها فى شغف واهتمام « كالسياسة الأسبوعية » ، ومجلتى « الرسالة والثقافة » (القديمتين) ، لما كان يثار على صفحاتها من معارك أدبية يشترك فيها قادة الفكر وأعلام الكتابة من أمثال طه حسين ، وهيكل (١٩٥٦) والمازنى (١٩٤٩) والعقاد (١٩٦٤) ومصطفى صادق والرافعى (١٩٣٧) ، والزيات (١٩٦٨) وأحمد أمين (١٩٥٤) وزكى مبارك (١٩٥٢) ، وغيرهم ، وقد امتازت « الرسالة » من بين هذه المجلات بسعة انتشارها فى العالم العربى ، وبأنها كانت شبه مدرسة تخرج فيها كثير من الباحثين والكتاب فى البلاد العربية .

على أن الصحافة اليومية قامت — ولا تزال تقوم — بنصيب كبير فى تنشيط الثقافة الأدبية واللغوية بما كانت تخصصه من صفحاتها لنشر قصائد الشعراء الكبار فى المناسبات والأحداث القومية الهامة ، ونشر الأعمال القصصية والمقالات النقدية .

وقد تطور التحرير الصحفى فى القاهرة تطوراً كبيراً ، وبرز فى ميدانه منذ أوائل هذا القرن كتاب نابهون ، واسعو الثقافة ، ارتفعت أساليب الكثيرين منهم إلى مستوى عال من البيان ، وأثر بعضهم فى أساليب الناشئين من الكتاب تأثيراً ملحوظاً .

(٤)

فى هذه البيئة القاهرية ، الغنية بأجهزتها الثقافية والعلمية والأدبيـة ، وبتراثها الحضارى ، وبما تحدر إليها من روافد البحث والنهوض فى القـرن المـاضى ، وجدت المواهب العربية المبدعة فى النصف الأول من هذا القرن مجال الخلق والإنتاج والتجديد واسعاً ، وبرز فى ميدان اللغة والشعر والكتابة أعلام أضافوا جديداً إلى رصيد الفكر العربى وحياته الفنية والتعبيرية، وعبّدوا طرائق الخلق والإبداع للجيل التالى لهم فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وعرف الأدب العربى على أيدى هؤلاء وأولئك مختلف الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى سار فيها أدباء الغرب منذ القرن التاسع عشر ، ووجد الكثير من أعمالهـم طريقه إلى المسرح والسينما ، وإلى الترجمة للغات الأخرى . وقطع الأدب العربى بذلك أشواطاً بعيدة نحو احتلال مكانته بين الآداب العالمية المعاصرة ، ولن يحاول البحث الحاضر أكثر من الإشارة إلى طائفة من رواد هذه النهضة وأهم أعمالهم التى أثرت بها القاهرة فى حركة تجديد الأدب واتجاهاته .

١ — كانت الشخصية التى تجمعت حولها خيوط النهضة الشعرية طوال الثلث الأول من القرن الحاضر هى شخصية « شوقى » الذى نظم الشـعر فى شبابه على طريقة القدماء ، ثم أتيح له الذهاب إلى أوربا لطلب العلم هناك فى العشر الأخيرة من القرن المـاضى ، فتفتحت عبقريته على آفاق جديدة من الشـعر ، وبدأ يتطلع — كمـا يقول — إلى توجيه نشاطه الشعرى إلى الكون الواسع ، وحاول محاولته الأولى فى الشعر التمثيلى ، وقدم لمؤتمـر المستشرقين الدولى فى جنيف عام ١٨٩٤ قصيدة ربط فيها بين الشعروالتاريخ، وعرض كبار الأحداث فى تاريخ وادى النيل عرضاً ملحمياً . وقد نحا بعد عودته نحواً جديداً فى وظيفة الشعر ، فاتخذ من قصائده أداة لنقـد الحياة العربية والإسلامية والشرقية وتوجيهها ، وتسجيل أمجاد العاملين فيها . وأثمرت

المرحلة الأخيرة من حياته طائفة من المسرحيات الشعرية استمد مادتها من التاريخ القومى ومن القصص العربى القديم . وقد سجلت البلاد العربية وبعض بلاد الشرق عرفانها بمكانته، وتقديرها لصنيعه فى الجمع بين تجديد نشاط الشعر العربى ، والمحافظة على عموده ، فأقامت فى القاهرة فى عام ١٩٢٧ مهرجانا لتكريمه ، ومبايعته بإمارة الشعر :

٢ — وعاصر « شوقى » جماعة من كبار الشعراء، برز من بينهم إلى الصف الأول ثلاثة :

الأول : صبرى (١٩٢٢) — وهو أسبقهم زمناً ، وكان ذا حس دقيق فى الصناعة الشعرية ، وكان بيته منتدى أدبياً للشعراء والأدباء يسمرون فيه ويعرضون على « شيخهم » صبرى ما استحدثته قرائحهم من مقطوعات وقصائد ، ويستمعون فيه لنقده وتوجيهه :

والشاعر الثانى «حافظ» (١٩٣٢) الذى برع فى النظم على طريقة المبرزين من شعراء العصر العباسى ، وجعل من شعره معرضاً للديباجة العربية الكلاسيكية فى رصانتها وصفاء أسلوبها ، و عُرِف بين المعاصرين بالإجادة فى الوطنيات وفى فن الرثاء ، واصطلح الجمهور والنقاد على تلقيبه « بشاعر النيل » .

أما الشاعر الثالث فكان « خليل مطران » (١٩٤٩) ، وهو لبنانى المنبت، قاهرى الموطن ، اتجه فى شعره إلى نوع من التجديد ، حاول أن يحقق فيه وحدة الموضوع فى القصيدة ، وحرية التعبير ، وانطلاق الخيال ، مع مطابقة الحقيقة . وعرف بين النقاد « بشاعر القطرين » ، وكان له نشاط فى ترجمة الأعمال الأدبية العالمية .

٣ — وبرز كذلك فى القاهرة فى النصف الأول من القرن الحاضر طائفة من مشاهير الكتاب فى الأدب والسياسة والاجتماع ، كان لمقالاتهم ودراساتهم

وكتبهم أثر كبير فى تطور الشعر والأدب العربى بوجه عام . وكان أهــم ما امتازت به هذه الطائفة من النقاد سعة مطالعتهم فى الثقافة الغربية فى فروعها المختلفة من أدب وفن وفلسفة ونقد . وهم جميعاً يشتركون فى محاولتهم التجديدية فى القصص — وسيجىء الحديث عن هــذه بعد — وفى وفرة المحصول من المقالات فى المجلات والصحف على اختلاف أنواعها.

غير أنهم يختلفون فى أسلوب الكتابة : فمنهم المتعمق وراء الفكرة (العقاد) ومنهم المؤثر للأسلوب الحديث ، القريب التناول (المــازنى) ، ومنهــم الأكاديمى المتمكن من الأسلوب العربى الكلاسيكى القادر على معالجة نواحى الحياة الحديثة بهذا الأسلوب (طه حسين) . ومن هذه الطائفة شعراء (العقاد والمــازنى وشكرى) دعوا إلى التجديد فى الشعر منذ شبابهم، وعالجوا كثيراً من الموضوعات الشعرية على طريقتهم ، وطبعت لهم أعمال شعرية كثيرة، وكانوا أشدّ شعراء العصر الحديث نقداً لشوقى ، ومعارضة لمدرسته، وأكثرهم تأثراً بالمذهب الرومانسى .

أما « طه حسين » فقد نشأ نشأة أزهرية ، ثم شهد الجامعة المصرية فى مرحلة نشأتها ، وكان أول طالب تقدم لها برسالة دكتوراة (١٩١٤) فى الأدب العــربى .

وقد حملت رسالته تلك ، طابع الثورة على المقاييس العربية القديمة فى نقد الأدب . ثم أتيح له السفر إلى فرنسا للتخصص فى الدراسات الأوربية القديمة فأغرم بالآداب الفرنسية ، وتعرف إلى مناهج النقــد الأوربى ، فلما عاد إلى القاهرة وجد حسه الأدبى المرهف ، وأسلوبه الكلاسيكى المجدد متنفساً فى مقالاته التى كان يكتبها فى الصحف والمجلات ، وفى دروسه ومحاضراته التى كان يلقيها فى الجامعة . وهو يعــد أكبر الأكاديميين القاهريين تأثيراً فى مناهج دراسة الأدب العربى .

وإذا أردنا أن نوجز صورة الموقف الشعرى فى قاهرة القرن العشرين ، قلنا أنها تعكس المزاج الذى تتألف منه ثقافة القاهرة فى محافظتها وتجديدها ، وفى التطور المستمر الذى تمر فيه ، فمن الاتجاهات الشعرية الواضحة المعالم التى عرفتها قاهرة القرن العشرين ، إلى جانب الاتجاهين الرئيسيين اللذين أشرنا إليهما - اتجاه رومانسى تأثر بالاتجاهين السالفين كليهما - يمثله طائفة من شعراء الجيل الثانى (على محمود طه وابراهيم ناجى وغيرهما) ازدهرت فى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وغلبت على أشعارهم الرقة ، والطابع الوجدانى ؛ ثم اتجاه المحافظين على القديم فى جاهليته ، وعصره الإسلامى الأول (عبدالمطلب ١٩٣١) ، أو فى ازدهاره الحضارى أيام العباسيين والأندلسيين (الجارم ١٩٤٩) : ومعظم هؤلاء ممن تشبعوا بالثقافة الإسلامية العربية فى معارفها وآدابها ، ومنهم من أتيح له الاتصال بالثقافة الغربية فأفاد منها صقلا وسعة فى الخيال :

وقد شهدت العشرون سنة الأخيرة ظهور مدرسة جديدة فى الموقف الشعرى المصرى ، تدعو إلى التجديد فى الشكل والمضمون واللغة الشعرية ، وهى جزء من حركة تجديدية ، لها دعاتها وأنصارها فى سائر البلاد العربية وبخاصة العراق ولبنان ، ولا تزال فى طور النمو والحوار مع أنصار العمود الشعرى :

(٥)

أشرنا فيما سبق إلى الخطوات الأولى التى خطاها كتاب القاهرة فى القرن الماضى فى أدب القصة والرواية والمسرح . أما فى القرن الحاضر فقد نمت هذه الفنون نمواً مطرداً ، وتحددت أشكالها ونضجت ، وسارت سيراً حثيثاً من مرحلة التقليد والترجمة والاقتباس إلى مرحلة الأصالة والخلق المستقل ،

وبرز على مسرح الأدب العربى فى القاهرة كتاب عرف كل منهم بالتخصص والإجادة فى فن قصصى أو مسرحى معين ، وإن كانت له مشاركة فى فنون أخرى ، وأخذ النقاد ومؤرخو الأدب وأصحاب الرسائل الجامعية يتابعون هذه الثورة من الإنتاج الأدبى فى مراحلها الكبرى منذ أواخر القرن الماضى إلى اليوم ، ويربطون بين هذا التطور وتطور الحياة فى المجتمع المصرى ، ولا سيما بعد ثورتيه الكبيرتين فى هذا القرن : ثورة عام ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢ ، والذى يعنينا فى بحثنا هنا أن نشير إلى بعض المعالم البارزة فى هذا التطور بصفة كونها منجزات قاهرية ذات أثر فى نهضة الأدب العربى ، وفى نهضة لغتـه كذلك .

وقد اصطلح مؤرخو أدب هذه المرحلة الخصبة على اعتبار رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل بدءاً لتاريخ الرواية المصرية ، فقد بدأ كتابتها فى أوربا عام ١٩١٠ ، وحاول أن يصور فيها الريف المصرى وأخلاق أهله ، فلمـا عاد إلى مصر عام ١٩١٢ دفع بها إلى النشر بعد تردد ، ووضع عليهـا بدل اسمه كلمتى « مصرى وفلاح » ، وظهرت للجمهور قبيل الحرب العالميـة الأولى ، وتناولها الكتاب بالنقد ، ونسبوها إلى صاحبها ، ورآها بعضهم جديرة بالتقدير ، ولمـا انتهت الحرب وقامت الحركة الوطنية فى مصر ، وبرزت فكرة المصرية واضحة قوية ، أعيد طبع القصة وعليها اسم مؤلفها ، وأخرجت لأول مرة على لوحة السينما .

وقد شغل هيكل بعد ذلك عن القصص بالصحافة والسياسة والنقد والتأليف فى بعض نواحى الأدب والتاريخ الإسلامى ، حتى إذا كان عام ١٩٥٥ خرج على الناس برواية جديدة سماها « هكذا خُلقتْ » ، وجعلها معرضاً لتصوير الحياة المصرية فى المدينة وآثار التطور الاجتماعى فيها .

هذه المرحلة التى افتتحها «هيكل» ومعاصروه فى الأدب القصصى أتيح لها أن تصل فى الربع الثانى من القرن الحاضر إلى درجة ملحوظة من النمو والتجدد، وأن تتنوع أشكالها المتخصصة إلى قصص قصيرة وروايات ومسرحيات وسير ذاتية، وبرز فيها كتاب قاهريون من الصف الأول: من أمثال المازنى، والعقاد، وطه حسين، وتيمور، وتوفيق الحكيم، وفريد أبو حديد؛ وقد تخصص «تيمور» من بين هؤلاء فى كتابة القصة القصيرة، فأخرج منذ عام ١٩٢٥ عشرات المجموعات من القصص التى تستمد مادتها من أحوال المجتمع المصرى فى ريفه ومدنه، كما تستمد إلهامها أحياناً من الميثولوجيا المصرية القديمة، وأخرج إلى جانبها بعض روايات ومسرحيات، ووجه جزءاً من نشاطه إلى البحث فى فن القصص وطبيعته وتطوره، ومظاهره الأولى فى الأدب العربى القديم، ومعضلة اللغة وصلتها بتطور الفكر الحديث، وإلى البحث عن مصطلحات للحياة والحضارة يجمعها أو يقترحها، ويعرضها على مجمع اللغة العربية لإقرارها.

أما «توفيق الحكيم» فيعدّ الكاتب المسرحى الأول فى الأدب العربى المعاصر، وقد نشأ مولعاً بالأدب والفن، وأشبع حاجته منهما فى فرنسا، حينما ذهب إليها ليدرس القانون، فانصرف عنه إلى الأدب المسرحى والقصصى، وتعرف إلى موسيقى العباقرة الكبار: بيتهوفن، وموزارت، وشومان وشوبرت، وخالط أهل الفن فى باريس، وكان لهذا كله أثره فى إنتاجه بعد عودته إلى مصر، وبدأت شهرته فى الظهور حين أخرج فى عام ١٩٣٣ مسرحيته «أهل الكهف» ثم توالى إنتاجه الأدبى وتنوع، فأخرج «يوميات نائب فى الأرياف»، و«عودة الروح» و«شهرزاد» و«عصفور من الشرق» و«بيجماليون»، ومجموعة من المسرحيات القصيرة بعنوان «مسرح المجتمع» وغيرها.

وبعض هذه الكتب ترجم إلى اللغات الأجنبية ، فنشرت ترجمة «شهرزاد» بالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة « لجورج ليكونت » عضو الأكاديمية الفرنسية، ونشرت الترجمة الروسية « لعودة الروح » فى لننجراد عام ١٩٣٥، وقد أعاد الحكيم خلق شخصية «أوديب» فى مسرحية عربية نشرها عام ١٩٤٩ وقدم لها بمقدمة طويلة ، عالج فيها موضوع الأدب التمثيلى فى اللغة العربية .

وتدخل معظم أعمال الحكيم فى نطاق المسرح الذهنى أو التجريدى، وقد شهدت السنوات الأخيرة ألواناً من التجارب التى عمد الحكيم إليها فى شتى الاتجاهات الجديدة ، كاللا معقول والرمزية .

وتخصص « أبو حديد » فى الرواية التاريخية — وسبق أن أشرنا إلى دور « جورجى زيدان » فيها — وكان من أوائل إنتاج أبو حديد فى هذه الناحية رواية « ابنة المملوك » ، وفيها صور عصر المماليك فى مصر تصويراً دقيقاً ، و « زنوبيا ملكة تدمر » ، وقد نشرت عام ١٩٤١ ، و « الوعاء المرمرى » (١٩٥١) ، ومن رواياته الاجتماعية« أنا الشعب » وقد صور فيها بعض جوانب المجتمع المصرى فى مرحلة ما قبل ثورة عام ١٩٥٢ ، وشغل « أبو حديد » — كالكثيرين غيره من رواد الأدب المعاصر فى مصر — بالبحث النظرى فى موضوع القصص فى الأدب العربى ، وحاول أن يدفع عن هذا الأدب تهمة الفاقة فى القصص .

ومما له مغزاه ودلالته فى موضوعنا الحاضر أن جميع هؤلاء الذين أشرنا إلى نواحى تخصصهم فى الأدب القصصى كانوا — ولايزال بعضهم — أعضاء فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وأن معظمهم كانوا — ولايزال بعضهم — أعضاء فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وأن معظمهم — كذلك — منحوا جائزة الدولة التقديرية فى الآداب .

وقد نشأ بعد هذا الرعيل الأول من الكتاب القصصين جيل ثان من الأدباء والأديبات أخذ الآن مكانه فى الطليعة من مثل «نجيب محفوظ» و«يوسف السباعى» و « يحي حقى » و باكثير » و « عبد الرحمن الشرقاوى » و« عبد الحليم عبدالله» و« رشاد رشدى » و « سهير القلماوى » و « لطيفة الزيات » و « بنت الشاطئ» وغيرهم ممن يمثلون ألواناً من الثقافة والاتجاه الفنى :

ويقف نجيب محفوظ من بين جيله على قمـــة الفن الروائى ، إذ ترتفـــع بعض رواياته (خان الخليلى وزقاق المدق والثلاثية ــ التى صور فيها مراحل من حياة المجتمع المصرى ــ قبل ثورة ١٩١٩ وبعدها) ــ إلى المستوى العالمى فى فن الرواية الاجتماعية ، كما أن منهم مثل « عبد الرحمن الشرقاوى » ــ فى روايته « الأرض » ، وفى مسرحيته « جميلة بوحيرد » ــ من عكست بعض أعمالهم مفاهيم التطور الاشتراكى الحديث فى مصر ، وبطولات الكفاح التحررى فى الأرض العربية .

خلاصـــة البحث

(١) أشار البحث فى مقدمته إلى مظاهر النهضة التى حققتها اللغة العربية وآدابها فى القرن الحاضر، وإلى أن هذه النهضة حصيلة الجهود المشتركة التى بذلتها وتبذلها البلاد العربية فى يقظتها الحديثة ، والتى بذلتها وتبذلها الدوائر والهيئات المعنية بدراسة العالم العربى ولغته وآدابه فى مراكز الثقافة العالمية .

وذهب البحث إلى أن للقاهرة مكانة خاصة فى صنع هذه النهضة،والسير بها إلى الأمام ، مستشهداً لذلك بما يلى :

١ – من الثابت تاريخياً أن القاهرة منذ القرن الرابع الهجرى – وبفضل قيام «الأزهر» فيها على الدراسات العربية والإسلامية – لعبت دوراً هاماً فى حياة الأمة العربية ، وفى الحفاظ على تراثها العربى الإسلامى ، وظلت إلى اليوم ملتقى العلماء والأدباء، وكعبة طلاب المعرفة من مختلف البلاد العربية والإسلامية .

٢ – كان للقاهرة فى تاريخها الحديث سبق ملحوظ بين البلاد العربيـة فى يقظة الوعى القومى ، وفى النهضة العمرانية ، والتطور السياسى والاجتماعى والثقـافى .

٣ – شهد القرن المـاضى فى القاهرة بواكير نهضة أدبية ولغوية تمثلت فى إحياء التراث الشعرى ، ومحاولة التجديد فى فنون النثر ، وبدء التأليف فى موضوعات الإصلاح ، وفى علوم العربية على نمط جديد ، كما شهد طائفة من الإنشاءات الثقافية ذات الأثر فى نهضة اللغة والأدب ، وبخاصة إنشـاء

مدرسة عالية (دار العلوم) لإعداد مدرسين للغة العربية وآدابها فى مراحل التعليم ، على نظام تربوى حديث ، واشتراك علماء القاهرة وأدبائها ببحوثهم وأعمالهم فى مؤتمرات المستشرقين الدولية .

٤ — برزت القاهرة فى القرن الحاضر مركزا لقيادة الكفاح السياسى ، والتطور الاجتماعى والثقافى الشامل فى العالم العربى ، وقامت صحافتها منـــذ مطلع القرن الحاضر بدور فعال فى النقد والتوجيه ، ونشر البحوث والمساجلات والأعمال الأدبية واللغوية ، ونشطت فيها حركة الاحتكاك بالفكر العالمى من طريق البعثات التعليمية ، والترجمة من مختلف اللغات والآداب الأجنبية وإليها ، وقامت فيها الأجهزة الأهلية والحكومية ، ومجالس الآداب والفنون والعلوم والجمعيات الأدبية بجهود مثمرة فى ميادين الثقافة واللغة والأدب .

٥ — شهدت القاهرة فى القرن الحاضر كفاحاً سياسياً ، وثورات وطنية ، حققت بها البلاد حريتها واستقلالها ، وأتاحت لها تطوراً ثقافياً وفنياً واجتماعياً واقتصادياً كبيراً ، وكان لكل ذلك آثاره فى العناية باللغة القومية ، وفى تطوير الفنون الأدبية ، ووسائل الإعلام ذات الصلة بحياة الجماهير وكفاحها وآمالها .

٦ — كان لإنشاء الجامعة المصرية فى القاهرة فى عام ١٩٠٨ ، واتساع حركة التعليم الجامعى فيها بعد ذلك أثر كبير فى تقدم الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية ، لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم العربى كله ؛ كما كان لإنشاء المجمع اللغوى فيها — ولا سيما منذ تشكيله الجديد عام ١٩٣٢ — أثر مبـــاشر فى تنمية اللغة العربية ، وتيسير كتابتها ونحوها وصرفها ، وتطويع قواعدها واشتقاقاتها لمطالب الحياة الحديثة ، وقد أضيف إلى هذين العاملين منذ ١٩٤٥ عامل ثالث مهم هو قيام « جامعة الدول العربية » ، واتخاذ القاهرة مقراً لها ، وإنشاء الأجهزة الثقافية للجامعة بها ، وافتتاح معهد للبحوث والدراسات العربية عام ١٩٥٣ يلتقى فيه علماء البلاد العربية وباحثوها من خريجى الجامعـــات ،

ليدرسوا مشكلات حياتها المعاصرة وقضاياها القومية والدولية ، واللغة والأدب من هذه الدراسات نصيب كبير .

(٢) وتأييداً لمـا ذهب إليه البحث من المكانة الخاصة التى تحتلها القاهرة فى نهضة اللغة العربية وآدابها فى القرن الحاضر ، أشار فى إيجاز لأهم المنجزات والاتجاهات الأدبية التى حققها أدباء القاهرة منذ مطالع هذا القرن ، وكانت لها أصداؤها فى العالم العربى كله .

فعرض للموقف الشعرى ومدارسه ، وبين ما كان للشاعر « أحمد شوقى » من مكانة وأثر بين شعراء العروبة ، وما أثمرته جهوده فى ميدان الشعر التمثيلى ، ثم ما كان للاتجاهات التجديدية التى دعا إليها «مطران» و« مدرسة الديوان » والنقاد الأكاديميون من أثر فى تطوير الشـعر ، واتساع مذاهب النقـد العربى الحديث ، وأشار إلى الاتجاهات التى عاصرت — أو تلت — مرحلة الرواد الأولين ، والتى كانت لهـا أصداؤها وآثارها فى الحركة الأدبيـة العربية ، ثم عرض للموقف النثرى كذلك وما حققه كتاب القاهرة ، وفى طليعتهـم « هيكل » و « تيمور » و « الحكيم » و « العقاد » و « طه حسين » و« المازنى » و « فريد أبو حديد » من تطور بعيد الأثر فى فنون القصة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية ، وما كان للجيل التالى لهم ، وفى مقدمته « نجيب محفوظ » و « يوسف السباعى » و « عبد الرحمن الشرقاوى » و يحيى حقى » و « سهـير القلماوى » وزملاؤهم من سير بالنهضة القصصية إلى الأمام ، وتوسيع فى اتجاهاتها ، وتعميق لمفاهيمها ، وما أثمره كل ذلك من ضمان مكانة عالية للأدب العـربى الحديث ، وما استلزمه من نمو واتساع فى المقدرة التعبيرية للغة العربية .

مراجع البحث

١ ـ أحمد هيكل :

« الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقـاب ثورة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ».

(القاهرة ١٩٦٨)

٢ ـ توفيق الحكيم :

١ ـ « مسرح المجتمع » (القاهرة ١٩٥٠) .

٢ ـ « فن الأدب » (القاهرة ١٩٥٢) .

٣ ـ جورجي زيدان :

« تاريخ آداب اللغة العربية »

الجزء الرابع (طبعة دار الهلال ـ تحقيق شوقي ضيف ـ القاهرة)

٤ ـ ساطع الحصري :

حولية الثقافة العربية

السنة الأولى ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ .

(الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية) القاهرة ١٩٤٩

٥ ــ شوقى ضيف :

« الأدب العربى المعاصر »

١ ــ فى مصر ١٨٥٠ ــ ١٩٥٠

(دار المعارف بالقاهرة ــ ١٩٥٧)

٢ ــ « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » (القاهرة ١٩٥٣)

٦ ــ طه حسين :

١ ــ « حافظ وشوقى » (القاهرة ١٩٣٣)

٢ ــ « مستقبل الثقافة فى مصر » (القاهرة ١٩٣٩)

٣ ــ « الأدب العربى ، أمسه وغده »

(الكاتب المصرى ، مجلد عدد أكتوبر ١٩٤٠)

٧ ــ عباس محمود العقاد :

« شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى)

(القاهرة عام ١٩٣٧)

٨ ــ على الراعى :

« دراسات فى الرواية المصرية »

(المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر

القاهرة ــ ١٩٦٤)

٩ ــ محمد خلف الله أحمد :

١ ــ « معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها »

ج ١ ــ مصر فى القرن التاسع عشر »

(القاهرة ــ ١٩٦١)

ب- « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده»
(القاهرة - ١٩٤٧)

ج - « مستقبل الفصحى » (بحث فى مجلة معهد البحوث
والدراسات العربية - العدد الأول يناير ١٩٦٩

د - « الموهبة الشعرية ووظيفة الشعر عند شوقى »
(مجموعة البحوث والمحاضرات - مؤتمر مجمع اللغة
العربية - ١٩٦٩)

١٠ - مجمع اللغة العربية :

ا - أعداد مجلة المجمع

ب- مجموعات البحوث والمحاضرات فى المؤتمر السنوى

ج - مجموعات المصطلحات

د - مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما »

١ - ماضيه وحاضره- إبراهيم مدكور ١٩٦٤

ه - « مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما »

٢ - المجمعيون - محمد مهدى علام ١٩٦٦

و - « مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاماً »

٣ - مجموعة القرارات العماية - محمد خلف
الله أحمد - محمد شوقى أمين ١٩٦٣

١١ - معهد البحوث والدراسات العربية (معهد الدراسات العربية العالية سابقاً)

١ - أمين الخولى : «مشكلات حياتنا اللغوية» ٥٧-١٩٥٨

٢ - محمد مندور : « مسرحيات شوقى » ١٩٥٤

« الشعر المصرى بعد شوقى

ج ۱ – ۱۹٥٥، ج ۲ ۱۹٥۷

ج ۳ ۱۹۰۸

مسرحيات عزيز أباظه ۱۹٥۸

۳ – عبد اللطيف حمزة : الصحافة والأدب

فى مصر – ۱۹٥٥

٤ – محمد خلف الله : حفنى ناصف كاتبا

وباحثاً ۱۹٦۱

٥ – شكرى محمد عياد : القصة القصيرة

فى مصر – ۱۹٦۷ – ۱۹٦۸

1 — Brockelmann. C.
" Geschihte der Arabischen Litteratur "
(Dritter Supplementband Leiden 1942.)

2 — Gibb. Sir Hamilton
" Arabic Literature "
(2nd ed. Oxford, 1963.)

3 — Huart. Clement.
" A History of Arabic Literature " .
(Beirut ed. 1966.)

4 — Khalafallah. M.
1 — " Literary Life in Modern Egypt "
(The Muslim World - Hartford, vol XLIV. No. 2 - 1954).
2 — " L' evolution de la langue et de la litterature Arabe au xx siecle " .
(Journal of World History - unesco - vol VI-I 190) .

5 — Wiet, Gston.
Introduction a la Litterature Arabe
(Paris 1966.)

العلائق الدبلوماسية
بين القاهرة والممالك الإسبانية النصرانية في العصر المملوكي

الأستاذ محمد عبد الله عنان



العلائق الدبلوماسية
بين القاهرة والممالك الأسبانية النصرانية في العصر المملوكي

الأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت القاهرة ، خلال العصر الفاطمي ، ثم بعد ذلك ، خلال العصر المملوكي ، أعظم مركز لتوجيه العلائق الدبلوماسية بين الشرق الإسلامي ، وبين الدول النصرانية ، وقد تركزت هذه العلائق أيام العصر الفاطمي بالأخص بين القاهرة والدولة البيزنطية ، التي كانت ما تزال يومئذ في إبان قوتها وغناها ، وكانت ترتب سياستها الخارجية على تطور ميزان القوى بين الدولة العباسية ومصر ، ثم بعد ذلك بينهما وبين السلاجقة ، حينما اشتدت شوكتهم ، واجتاحوا شرقي آسيا الصغرى ، ولما ضعفت الدولة الفاطمية ، واضطرمت الحروب الصليبية ، وظفر الصليبيون بانتزاع بيت المقدس وثغور الشام ، اضطربت علائق الشرق والغرب ، وانكمشت علائق القاهرة ، وانقطعت مع معظم الدول النصرانية ، ووجهت مصر عندئذ جل عنايتها إلى مكافحة الغزو الصليبي .

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، حينما تضاءل الخطر الصليبي ، نرى القاهرة تعود إلى استئناف مهمتها في توجيه الدبلوماسية الإسلامية في الشرق الإسلامي ، وعقد العلائق السلمية السياسية والتجارية مع الدول النصرانية ، ولا سيما البندقية وجنوة ، والممالك الأسبانية النصرانية :

ونود أن نخص بهذا الحديث علائق القاهرة والدول الأسبانية النصرانية ، ولا سيما مملكة أراجون ، وقد كان يوجه كلا من الفريقين إلى عقد هـذه العلائق المشتركة فى الواقع ، بواعث واعتبارات متماثلة ، وكانت تحيط بعقدها عند الفريقين كذلك ظروف وحوادث متماثلة :

ذلك أنه فى نفس الوقت ، الذى كانت مصر ولا تزال تواجه الخطـر الصليبى فى منتصف القرن الثالث عشر ، كانت أراجون فى عهـد ملكها خايمى الأول ، ما تزال تجد فى غزو الأراضى الأندلسية الشرقية ، والقضاء على سكانها المسلمين ، وكان خايمى الأول ، بعد أن استولى على الجـزائر الشرقية فى سنة ١٢٢٩ م ، ثم على ثغر بلنسيه فى سنة ١٢٣٨ م ، وشاطبـة ودانية فى سنة ١٢٤٤ م قد قرر أن يجلى جميع السكان المسلمين عن الأراضى المفتوحة ، فغادرتها منهم جموع غفيرة إلى القواعد الأندلسية الباقية وإلى المغرب وأخذت القواعد الأندلسية القديمة تتحول بسرعة إلى مدن نصرانية ، لسكنها مع ذلك جماعات كبيرة من المسلمين ، الذين آثروا البقاء فى الوطن القديم ، وكانت هذه الحوادث الأندلسية تحدث صداها المؤلم فى سائر الدول الإسلامية وفى مقدمتها مصر :

وكانت مصر من جانبها ، وفى نفس هذه الفترة ، تعمل بكل ما وسعت لانتزاع القـواعد الصليبية الأخيرة فى الشام ، والقضاء نهائياً على سـلطان الصليبيين ، وآثارهم فى الأراضى المصرية ، وكانت ما تزال ثمة إمارة أفرنجية صغيرة فى عكا وما حولها ، وإمارة أخرى فى طرابلس ، فانتهت مصر بانتزاع طرابلس فى سنة ١٢٨٩ على يد السلطان قلاوون ، ثم استولت على عكا فى مايو سنة ١٢٩٠ ، على يد ولده السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ، وقضى بذلك على الآثار الأخيرة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وأخليت الشام من

سائر الفرنج الصليبيين ، ومن الجمعيات الدينية الصليبية ، وأسدل بذلك الستار نهائياً على المأساة الصليبية :

هذا عن الأحداث المماثلة ، أما عن البواعث والظروف المماثلة التى دفعت كل فريق إلى محاولة تنظيم صـلاته بالفريق الآخر ، فانه فيما يتعلق بقشتالة وأراجون ، يمكن أن نرجع هذه البواعث أولا إلى أن المملكتين الأسبانيتين ، كانت كلتاهما تعيش فى شبه الجزيرة إلى جوار مملكة غرناطة الإسلامية ، وتحكم فى نفس الوقت جماعات كبيرة من المسلمين المدجنين ، الذين آثروا البقاء فى أوطانهم بعد سقوطها فى أيدى النصارى ، ومن جهة أخرى فقد كان لأسبانيا النصرانية اهتمام خاص بما يحدث فى المشرق من تطور أحوال النصارى وظروف زيارة الأراضى المقدسة ، وثانيا ، فقـد كان لأسبانيا النصرانية ولأراجون بوجه خاص مع مصر علاقات تجارية هامة ، وكانت ثغور مصر والشام هى أهم طرق التجارة المشرقية فى العصور الوسطى ، وقواعد عبورها إلى الشرق الأقصى ، ومن ثم فقد كان لتصفية الإمارات الصليبية ، والنفوذ الصليبى فى الشام على يد مصر ، صـداه العميق فى سائر الدول النصرانيـة ، وفى أسبانيا بوجه خاص ، وشعرت كل من قشتالة وأراجون أنه يجب السعى لعقـد أواصر المودة والسلام مع مصر صاحبة السيطرة المطلقة على الأراضى المقدسة ، ضماناً لاستقرار الأحوال بالنسبة للنصارى المقيمين بها ، والحجاج القاصدين إليها ، وكذلك لضمان مصالحهما التجارية العديدة فى أقاليم السلطان ، وفى ثغور الشام . وقد كانت السفن التجارية الأسبانية دائمة التردد على ثغـر الإسكندرية ، وثغـور الشام تحمل بضائعها برسم المشرق الأقصى ، وكان لأسبانيا فى القاهرة بالذات مندوبون تجاريون ومصالح تجارية عديدة ؛

وأما فيما يتعلق بمصر ، فإن هذه البواعث التى تدفعها إلى تنظيم صلاتها مع أسبانيا النصرانية ، كانت ترجع إلى عاملين : الأول مصالحها التجارية العديدة ، إذ كانت السفن المصرية التجارية تقصد إلى ثغور البحر المتوسط الغربية ، ولاسيما برشلونة وطركونة وبلنسية ، محملة بالبضائع المشرقية النفيسة ، هذا إلى ما كانت تجنيه مصر من الرسوم والمكوس من التجارة الأجنبية ، المتجهة عبر ثغورها إلى الشرق الأقصى ، والعامل الثانى ، هو الاعتبارات الدينيـــة ، إذ كانت مصر ترقب دائمـــاً بعين الاهتمام ، وباعتبارها زعيمة الإســـلام فى المشرق ، مصائر المسلمين المدجنين الذين بقوا تحت الحكم الأسبانى ، بعد سقوط القواعد الأندلسية القديمة فى يد أسبانيا .

ولهؤلاء المسلمين المدجنين ، وبالأسبانية Los Mudéjares تاريخ طويل مؤثر ، وكانت طوائف كثيرة من المسلمين تبقى فى الأراضى التى يقتطعها النصارى تباعاً من الوطن الأندلسى ، وكانت الاعتبارات الدنيوية ، وظروف الأسرة ودواعى العيش ، تغلب على كل الاعتبارات الأخرى ، وكان تسامح شريعتهم ، وأحكام دينهم ، يخفف عن أولئك المدجنين مرارة الانسلاخ عن مجتمعهم الإسلامى القديم ، والانتماء إلى المجتمع النصرانى ، وهكذا لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل الحكم الأسبانى بامتيازات كثيرة ، ويعيشون فى نوع من الأمن والدعة ، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية العنيفة . وكانت أخلاقهم الوادعـــة ، ونشاطهم المثالى فى ميادين التجارة والزراعة ، وتعاونهم المخلص المثمر مع السادة والسلطات الحاكمة ، يكسبهم عطف هذه السلطات وحمايتها ، ولكن هذه الحال تبدلت ، مذ كثر سقوط القواعد الأندلسـية فى أيدى الأسبان ، وزاد بذلك عدد المدجنين زيادة كبيرة فى المناطق المفتوحة وظهر عندئذ تياران متعارضان فى معاملة هـــؤلاء المدجنين ، تيار الاعتدال والتسامح ، والعمل على اكتساب معاونتهم وولائهم ، وتيـــار اضطهادهم

وتجريدهم من امتيازاتهم ، وكان يحبذ التيار الأول ملوك قشتالة وأراجون ، ويحبذ تيار المطاردة والاضطهاد الكنيسة الأسبانية والبابوية . وكان أصحاب سياسة المطاردة يرون فى المدجنين عنصراً دخيلا بغيضاً ، ويرون فى احتفاظهم بدينهم وشرائعهم ولغتهم ، نوعاً من التحدى المذموم : ومنذ أواخر القرن الثالث عشر ، نرى مصير أولئك المدجنين يتردد بين هذين التيارين، فتارة يتركون فى هدوء ودعة متمتعين بامتيازاتهم القديمة ، وتارة تشتد عليهم وطأة المطاردة ، ويحرمون من امتيازاتهم وشعائرهم ، وكانت تعيش منهم فى هذا الوقت جماعات كبيرة فى أراجون ، ولا سيا فى بلنسية ومرسيه وأحوازها ، وهى المناطق التى تم افتتاحها فى منتصف القرن الثالث عشر ، وكانت أحدث المناطق الأندلسية التى استولت عليها أسبانيا النصرانية ، وهى مناطق شرق الأندلس ، وكانت تعيش منهم جماعات أخرى فى قاصية أراجون ، بل وفى نبره ، فى بنبلونة وغيرها ، وقد لبثوا مدى حين يحتفظون بدينهم الإسلامى وحرية شعائرهم ، ولكنهم غدوا منذ القرن الرابع عشر موضعاً لمطاردات كثيرة ، وسلبت منهم معظم امتيازاتهم القديمة ، ويوجد فى كتدرائية سرقسطة عدة وثائق تدل على أن المدجنين كانوا يؤلفون فى أراجون مجتمعاً هاماً حتى أواخر القرن الخامس عشر ، ثم أخذت طوائفهم بعد ذلك فى الضعف والتناقص ، وانتهى أمرهم أخيراً بالاندماج فى الكتلة النصرانية ، وبذلك غاضت آثارهم الأخيرة :

أولئك هم المدجنون الذين كانت القاهرة تلحظهم بعطفها ورعايتها ، وذلك إلى جانب مسلمى غرناطة آخر الممالك الإسلامية فى أسبانيا .

وقد كان طبيعياً بعد كل ما تقدم أن نرى كلا من القاهرة وأراجون تتجه إلى تنظيم علائقها مع الأخرى ، ولم يك ثمة شك فى أن القاهرة ، قد أضحت بعد سقوط بغداد فى المشرق ، ثم سقوط قرطبة وباقى القواعد الأندلسية

الكبيرة فى الغرب الإسلامى، هى زعيمة الإسلام وممثلته ، والمتحدثة باسمه ، والمنظمة لعلائقه مع سائر الدول النصرانية، وقد كان هذا الاعتبار الأدبى يضاعف اهتمام الدول النصرانية بعقد أواصر المودة والصداقة مع القاهرة .

وقد كانت أراجون هى البادئة بالسعى إلى تنظيم هذه العلائق ، ومن ثم فانا نرى خايمى الثانى ملك أراجون ، لأشهر قلائل من سقوط آخر قواعد الصليبيين فى يد مصر ، يبادر فيرسل إلى القاهرة سفارة هامة تسعى إلى عقد أواصر السلم والصداقة مع سلطان مصر الملك الأشرف خليل ، وقد دونت الوثيقة أو المعاهدة التى انتهت مصر وأراجون إلى عقدها ، والتى ما زالت نسختها تحفظ بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة ، مع عدة معاهدات ومراسلات أخرى ، تفاصيل هذه السفارة ، ويستفاد منها أن السفيرين الأرجونين ، وهما روميو دى ماريمون R. de Marimon نائب الأحكام الملكى فى بلنسية ، وريموند اليمانى R. Alemany ، وكلاهما من برشلونة ،وصلا إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٢٩١ م ومعهما رسالة الملك خايمى مختومة بخاتمه ، وفيها يفوض إليهما التكلم باسمه ، واسم أخويه دون فادريكى ودون بيدرو ، وصهريه سانشو ملك قشتالة ، والفونسو ملك البرتغال والتفاوض والاتفاق باسمهم جميعاً .

وكانت القاهرة يخالجها نفس الشعور ، بأهمية عقد الصداقة مع ملوك شبه الجزيرة الأسبانية ، التى يعيش فيها حسبما تقدم ملايين من المسلمين سواء فى مملكة غرناطة ، أو فى القواعد الأندلسية القديمة تحت حكم الملوك النصارى ومن ثم فقد لقى السفيران الاسبانيان فى البلاط المصرى كل ترحاب ورعاية ، وكان من بواعث ارتياح السلطان أن المعاهدة المنشودة تشمل أراجون وقشتالة والبرتغال معاً ، وأنه وفقاً لتعليمات الملك خايمى ، فقد فوض إلى السلطان أن يضع الشروط المطلوبة لعقدها :

وانتهت المفاوضات إلى عقد المعاهدة المنشودة فى يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٦٩٢ هـ الموافق الثامن والعشرين من يناير سنة ١٢٩٢ م ، وقد تضمنت المعاهدة طائفة كبيرة من النصوص السياسية والتجارية ، أما النصوص السياسية فيمكن أن نلخصها فى النقط الآتية :

أولاً : استقرار المودة والصداقة بين الفريقين بصفة دائمة ، لا تنقض بموت أحد المتعاقدين أو عزله ، وأن تكون سائر بلاد السلطان فى البر والبحر ، وما قد يفتحه من البلاد ، آمنة هى ومن فيها من الرعايا فى الأنفس والأموال ، من جانب الملك خايمى وأخويه وصهريه ، وأولادهم وفرسانهم وجنودهم ، كما أن بلاد الملك خايمى وزملائه ، وهى تشمل عدا شبه الجزيرة الأسبانية ، ميورقة وصقلية وقورسقة ، وما قد يفتحه من البلاد ، تكون آمنة ومن بها من الرعايا فى الأنفس والأموال فى البر والبحر من جانب الملك الأشرف وأولاده وجيوشه.

ثانياً : وأن يكون الملك خايمى وزملاؤه أصدقاء لمن يصادقه الملك الأشرف وأولاده ، وأعداء لمن يعاديهم ، وإذا حاول البابا أو أحد من الملوك الفرنج الاعتداء على بلاده ، فان دون خايمى وزملاءه يحاولون منعه بشوانيهم وجيوشهم ، وكذلك يتعهدون بألا يساعدوا بأى صورة من يحاول محاربة السلطان من ملوك الفرنج أو التتار أو غيرهم ، وعليهم أن يخطروا الملك الأشرف بنياتهم العدوانية متى وقفوا عليها .

ثالثاً : وأنه متى انكسرت مركب من المراكب الإسلامية فى أحد الموانى الأسبانية ، فانها تخفر وتحرس أموالها ، ثم تصلح وتجهز إلى بلاد الملك الأشرف ، وكذلك إذا انكسرت مركب من مراكب الطرف الآخر فى موانى الملك الأشرف ، فانها تعامل بمثل هذه المعاملة .

رابعاً : وأنه متى مر رسل الملك الأشرف فى الأراضى الأسبانية ، صادرين أو واردين ، أو رماهم الريح ، فانهم يكونون آمنين فى أنفسهم وأموالهم .

خامساً : أنه متى قصد أحد من رعايا الملك خايمى وزملائه أو رعايا معاهديه زيارة بيت المقدس ، ومعه منه كتاب بخاتمه إلى نائب السلطان ، فإنه يسمح له بالزيارة ويعود إلى بلده آمناً فى نفسه وماله ، رجلا كان أو امرأة ، ولا يمنح دون خايمى مثل هذا التصريح لأحد من أعدائه أو أعداء الملك الأشرف .

سادساً : وأنه إذا حمل أحد من الأسرى المسلمين فى البر أو البحر إلى بلاد أسبانية ليباع فيها ، فانه يطلق سراحه ويرسل إلى بلاد الملك الأشرف .

وأما النصوص التجارية للمعاهدة ، فقد تضمنت أنه متى توفى أحد من التجار المسلمين أو النصارى من رعايا الملك الأشرف فى البلاد الأسبانية ، فتحمل أمواله وبضائعه دون معارضة إلى بلاد السلطان . وكذلك الشأن فيما إذا مات أحد من الرعايا الأسبان فى بلاد السلطان . وعلى أن يسمح الملك خايمى وزملاؤه لرعاياهم بأن يحملوا إلى الثغور الإسلامية ، البضائع من الحديد والبياض والخشب وغيرها ، وعلى أنه متى وقعت معاملة بين التجار المسلمين والأسبان وهم فى بلاد السلطان ، فإنه يقضى فيها وفقاً لأحكام الشريعة ، وأنه إذا ركب أحد من التجار المسلمين فى مركب أسبانية ومعه بضاعته ، فإنه إذا فقدت هذه البضاعة وجب على دون خايمى ردها أو دفع ثمنها ، وأنه متى هرب أحد من رعايا السلطان إلى أسبانيا ومعه بضاعة لغيره وأقام هناك ، فإنه يجب رد الهارب أو المقيم ببضاعة غيره ، ومعه هذه البضاعة ، إلى بلاد السلطان ، ونص أخيراً على أن يؤدى رعايا دون خايمى وزملائه عند ورودهم إلى الموانى المصرية ، أو صدورهم منها ، عن البضائع والمتاجر على اختلافها . سائر الحقوق والمكوس المفروضة وقت عقد هذه المعاهدة ولا تزاد عليهم . وكذلك الشأن فيما يتعلق برعايا السلطان القاصدين إلى الثغور الأسبانية .

وقد لبثت هذه المعاهدة مدى عصور، أساساً للعلائق بين مصر والممالك الأسبانية النصرانية، وبينهـا وبين أراجون بنوع خاص، وبالرغم من أن السلطان الأشرف خليل قد توفى بعد عقدها بنحو عامين فقط، فان خلفه الملك الناصر محمد بن قلاوون، الذى تولى الملك ثلاث مرات غير متعاقبة، ولبث فى الحكم زهاء نصف قـرن، قد سار على نفس السياسة الودية مع مملكتى قشتالة وأراجون، ومن حسن الطالع أنه توجد لدينا عدة رسائل هامة صادرة من هذا السلطان إلى ملوك قشتالة وأراجون، تلقى أكبر ضوء على طبيعة العلائق بين مصر وأسبانيا النصرانية، خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر .

وتوجد النسخة العربية من المعاهدة المتقدمة بين محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة، وتضم هذه المحفوظات عدة أخرى من الوثائق السلطانية المصرية، بين دبلوماسية وتجارية، تبودلت بين سلاطين مصر وبين ملوك أسبانيا، أعنى قشتالة وأراجون، ولا سيما فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى، ومعظمها مكتوب فى لفائف طويلة من الورق المتين، وبخط ثلث جميل، وعليها توقيعات السلاطين المصريين وأختامهم .

وفى مقدمة هذه الرسائل، رسالة أرسلها الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك قشتالة، وقد كان يومئذ فرناندو الرابع، وذلك بالرغم من أن الرسالة تسميه (دون الفونس)، وهو الاسم الذى كان يغلب فى الدوائر الإسلامية على ملك قشتالة، إذ كان كثير من ملوكهم يحمل هذا الاسم، وتلقبه « بصاحب قشتالة وطليطلة، وإشبيلية، وقرطبة، وجيان »؛ وفيها ينوه السلطان بالصداقة والمحبة والمودة والود، الموروثة عن أسلافنا وأسلافه، من الملوك المـاضين ويقص على ملك قشتالة قصة قتاله مع التتار وانتصاره عليهم، ويستفاد من هذه الرسالة أن الملك فرناندو الرابع أرسل إلى السلطان سـفيراً يدعى برنارد

ريكارد ، وأنه وصل إلى القاهرة فى أواخر ذى القعدة سنة ٦٩٨ هـ (الموافق سبتمبر ١٢٩٩ م) ، وكان التتار قد عادوا يومئذ إلى غزو الشام واستولوا على قواعده ، وكان السلطان مشغولا بالعمل على رد هذا العدوان ، فلم يستطع استقبال السفير حين مقدمه ، ثم استطاعت القوات المصرية أخيراً أن تتغلب على التتار ، وأن تخرجهم من الشام . وعلى أثر ذلك استقبل السلطان السفير القشتالى وصحبه ، وأولاده ، بكل عطف ورعاية ، واستمع إلى رسالته ، وكان ملك قشتالة يطلب فى رسالته إلى السلطان أمرين : الأول حماية التجار المترددين من بلاده بالبضائع ، وأن يترددوا على بلاد السلطان آمنين مطمئنين ، على أن يلقى رعايا بالسلطان المترددون على بلاد قشتالة ، مثل هذه الحماية . وقد رد السلطان فى رسالته بإجابة هذا المطلب ، وأن يحضر من شاء من التجار وغيرهم إلى بلاده آمنين سالمين محترمين ، يمارسون البيع والشراء كيفما شاءوا ، ثم يعودون فى أمن وسلام ، والأمر الثانى ، هو حماية الذين يحضرون من بلاد قشتالة لزيارة بيت المقدس ، وأن يكونوا آمنين فى أنفسهم وأموالهم ، وقد أكد السلطان فى رسالته أنه يتكفل بهذه الحماية ، وأنه أصدر أوامره إلى نوابه بالقدس ، أن يولوا الزوار القشتاليين كل رعاية ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى حالتى الورود والصدور .

وقد أرخت الرسالة السلطانية المذكورة فى الخامس من رجب سنة ٦٩٩ هـ ، وهو ما يوافق شهر مارس سنة ١٣٠٠ م :

وبعث السلطان مع السفير القشتالى ، إلى الملك فرناندو الرابع ، سفيرين من قبله ، هما الأمير فخر الدين عثمان ، والقاضى حميد الدين ، كما بعث معهما هدية من القماش الفاخر ، والطيب والعود ، والزنجبيل ، فاستقبلا فى البلاط القشتالى بإشبيلية بكل مودة وترحاب .

وقد استطال حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون بمصر ، حتى وفاته فى سنة ١٣٤١ م ، واستطال حكم الملك خايمى الثانى فى أراجون حتى وفاته فى سنة ١٣٢٧ م ، وفى تلك الحقبة المشتركة كان كل من الملكين ، يعمـل على توطيد أواصر المودة والصداقة مع صاحبه ، وفيها ازدهرت العلائق الدبلوماسة والتجارية بين القاهرة وأراجـون ، وكثر تبادل السفارات والمراسـلات الدبلوماسية بينهما ، حسبما تدل عليه الرسائل السلطانية الآتية ، وهى أيضاً مما تضمه مجموعة الوثائق المصرية بمحفوظات التاج الأرجونى :

وهذه الرسائل تعنى ببعض الأحداث الجارية ، وبتحقيق بعض الرغبات المتبادلة ، فقد حدث بمصر مثلا فى شهر رجب سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) أن اتخذت بعض إجراءات ضد أهل الذمة ، وأغلقت الكنائس ، فكان لذلك صداه فى الممالك المسيحية ، وفى مقدمتها الدولة الرومانية الشرقية وأراجون ، ففى سنة ٧٠١ هـ قدم إلى القاهرة سفراء قيصر قسطنطينية ، يلتمسون فتـح الكنائس ، فأجابهم السلطان إلى فتح كنيسة المعلقة وكنيسة القديس ميخائيل الملكية ، وبعد ذلك بقليل قدم سفير من قبل خايمى الثانى ملك أراجون يدعى أيمريك Aymeric ، ومعه هدية جليلة ، ورسالة إلى السلطان ، وكانت مهمته الرئيسية هى أن يحادث السلطان فى شأن الكنائس ، ويرجوه باسم مليكه أن يأذن بفتحها ، وقد أحرز السفير فى مهمته بعض النجاح ، وقبل السلطان إرضاء لملك أراجون « ولأجل محبته ومودته ومنزلته » أن تفتح كنيستان جديدتان بمدينة القاهرة ، هما كنيسة اليعاقبة بحارة زويلة ، وكنيسة الملكية بخط البندقانيين. وأبدى السلطان فى رسالته إلى الملك خايمى وجهة النظر المصرية فى شأن الكنائس وهى أن قيامها يرجع إلى أحكام الشريعة ، وأنه يجب ألا يبقى منها مفتوحاً ، إلا ما كان قائماً منذ عهد الخليفة عمر ، وأنه منذ ذلك العهد أنشئت كنائس لا حصر لها ، وأنه كما أن أراجون تدين بأحكام دينها ، فكذلك تقوم مصر

بتطبيق أحكام دينها وشريعتها ، وبعث السلطان مع السفير الأرجونى صديقه الأمير فخر الدين عثمان سفيراً إلى ملك أراجون ليشرح له وجهات نظره ، وتاريخ هذه الرسالة هو الثالث من شوال سنة ٧٠٣هـ الموافق ١٤ فبراير ١٣٠٤م.

بيد أنه يجب علينا قبل أن نترك الحديث عن هذه الرسالة ، أن نقول إن ما جاء بها خاصاً بأحكام الشريعة فى أمر الكنائس ، إنما هو تصوير خاطئ لمرسوم الخليفة عمر ، الخاص بالذميين ، وأن أحكام هذا المرسوم الذى لا يمت إلى الشريعة الإسلامية بصلة ، ويرجع فقط إلى سياسة الخلافة العامة ، كانت تختلف فى تطبيقها وفقاً لروح العصر ، بيد أن روح التسامح كانت هى الغالبة دائماً ، ومن ثم فإن الكنائس ما لبثت أن فتحت كلها فيما بعد ، شأنها فى جميع العصـــور .

وكانت معاملة النصارى فى مصر والمسلمين المدجنين فى أراجون بعد ذلك موضع اتصالات ومراسلات دبلوماسية ، بين السلطان الناصر بن قلاوون وبين خايمى الثانى ملك أراجون، ولدينا فى ذلك وثيقتان : الأولى مؤرخة فى شعبان سنة ٧٠٥ هـ الموافق فبراير سنة ١٣٠٦ م ، ومنها يستفاد أن خايمى الثانى قد عاد فأرسل إلى الناصر سفارة جديدة على يد أيمريك سفيره المذكور وعاد مع أيمريك من أراجون سفير السلطان الأمير فخر الدين ، بعد أن قضى بها زهاء عامين ، وجاء السفير الأرجونى هذه المرة ، ليطلب من السلطان أمرين : الأول أن يعنى بأمر النصارى الذين ببلاد مصر ، وأن يكفل لهم حرية إقامة الشعائر فى كنائسهم وأن تكون معاملتهم فى بلاد السلطان مثل ما يعامل المسلمون فى أراجون ، وقد أجاب السلطان على ذلك بأن النصارى فى بلاده على أتم ما يكون من الحفظ والرعاية ، وأنهم كباقى المواطنين من رعايا السلطان ، تجب عليه رعايتهم ومعاقبة من يتعرض لهم ، وأنه إكراماً لملك أراجون قد جدد المراسيم بالتوصية

بهم ، وأنه — أى السلطان — يوصى ملك أراجون بهذه المناسبة بمن فى بلاده من المسلمين أسوة بهذه الرعاية للنصارى فى بلاده ، والأمر الثانى الذى طرحه السفير الأرجونى ، يتعلق بزوار بيت المقدس وما يرجى من حمايتهم وتأمينهم ، وقد أجاب السلطان على ذلك بأنه أوصى نوابه برعاية أولئك الزوار ، وحمايتهم فى الورود والصدور ، وأن يكونوا آمنين فى أنفسهم وأموالهم ، وأنه أوصى كذلك حاكم الإسكندرية بالعناية ، بكل من يفد إليها منهم فى طريقه إلى بيت المقدس ، وفوق ذلك فقد أبدى الملك خايمى رغبته إلى السلطان فى الإفراج عن بعض الأسرى الأرجونيين ، فأجابه السلطان إلى تحقيق هذه الرغبة ، وأفرج عن اثنى عشر أسيراً ، منهم ثلاثة من القساوسة ، وأرسل الأمير فخر الدين إلى أراجون بصحبة السفير أيمريك ومعه الأسرى المفرج عنهم ، وهدية جليلة إلى الملك خايمى ، وقد لبثت مسألة الأسرى هذه موضع اتصالات أخرى بين الملكين ، وكان السلطان فى كل مرة يفرج عن عدد من أكابرهم ، تلبية لرغبة ملك أراجون :

بيد أن مسألة معاملة الرعايا النصارى فى بلاد السلطان والمسلمين المدجنين فى مملكة أراجون ، لبثت أهم المسائل التى تشغل اتصالات البلدين ، ونحن لا نستطيع أن نتتبع تفاصيل هذه المسألة مدى الخمسة عشر عاماً التى تلت سفارة أيمريك الأخيرة ، إذ تنقصنا الوثائق المتعلقة بذلك ، بيد أنه يبدو أنها استمرت تشغل البلاطين ، بلاط القاهرة وبلاط برشلونة ، حتى أواخر عهد الملك خايمى ذلك أننا نراه فى أواخر سنة ١٣٢٢ م يرسل سفارة جديدة إلى الملك الناصر ، ومعها هدية ورسالة بطلب إطلاق فوج جديد من الأسرى ، وبرجاء الاطمئنان على حسن معاملة النصارى ، وقد أبدى السلطان فى رسالته إلى خايمى أنه أطلق ما استطاع إطلاقه من الأسرى ، وأكد له حسن معاملة النصارى ، ورعايتهم وحمايتهم ، ولكن السلطان يبدى لخايمى ما بلغه من أن معاملة المسلمين فى أراجون

قد تغيرت عما كانت عليه ، وأنهم كانوا يحظون بشيء من الرعاية ، ويؤدون شعائرهم ، أحراراً فى مساجدهم دون معارضة ، ولكنهم قد حرموا من هذه الحقوق ، ومنعوا من الأذان والصلاة فى مساجدهم ، ويتوجه السلطان بالرجاء إلى خايمى أن يسبغ رعايته على المسلمين ، وأن يجريهم على سابق عوايدهم ، فلا يتعرض لهم أحد فى مساجدهم ، وأن يكف الضر عنهم ، وقد أرخت هذه الرسالة السلطانية فى صفر سنة ٧٢٣هـ الموافق لفبراير ١٣٢٣ م.

ولسنا ندرى ما إذا كان أثر هذه الرسالة فى أحوال المدجنين فى أراجون، وإن كانت تدل على أن القاهرة كانت تذكر دائماً فى مفاوضاتها مع أراجون قضية أولئك المدجنين وأحوالهم المشجية ، ونحن نعرف أنهم كانوا يحظون فى أراجون بمعاملة أفضل من تلك التى يلقونها فى قشتالة ، وأنهم لبثوا حتى أواخر القرن الخامس عشر يحتفظون ببعض مساجدهم ، وشىء من امتيازاتهم القديمة ، حسبما تدل بعض الوثائق المدجنية المحفوظة بكتدارئية سرقسطة ، والتى أشرنا إليها من قبل ، وعلى أى حال فإن هنالك ما يدل على أن العلاقات الودية الوثيقة لبثت قائمة بين بلاط القاهرة وبلاط برشلونة ، ولما توفى الملك خايمى الثانى فى سنة ١٣٢٧ م ، وخلفه ولده الفونسو الرابع ، استمرت السفارات والاتصالات الدبلوماسية قائمة بينه وبين الملك الناصر ، ومن ذلك أن الملك الفونسو أرسل عقب توليه العرش إلى السلطان يطلب إليه أن يسمح بنقل رفات القديسة بربارة من مصر لتدفن بالكنيسة التى أقامها لذلك ، وتقول الأسطورة أن القديسة بربارة قد دفنت بالكنيسة المسماة باسمها بمصر ، فرد عليه السلطان برسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٧٢٨ هـ الموافق لمارس سنة ١٣٢٨ م بأنه على استعداد لتحقيق رغبته متى أرسل إلى الإسكندرية مراكب جيدة مشحونة بالبضائع ، وعاد الملك الفونسو بعد ذلك بنحو عامين فأرسل إلى السلطان هدية من البزاة الفاخرة ، وبعث إليه السلطان برسالة شكر ، يشيد فيها بروعة الهدية ،

وحسن موقعهـا ، مؤرخة فى جمـادى الأولى سنة ٧٣٠ هـ الموافق لفـبراير سنة ١٣٣٠ م .

واستمرت الصلات الدبلوماسية والعلائق الودية ، قائمة بين مصر وأراجون طوال القرن الرابع عشر ، على أنه يبدو أن الأمور قد اضطربت بعـد ذلك ، بسبب إغارة القراصنة من القبارصة وأخلاط الفرنج على الشواطئ المصرية فى البحر المتوسط ، ومعهم بعض رعايا ملك أراجون ، وكان من الزعماء المغيرين إلى جانب صاحب قبرص ابن أخ الملك أراجون ، أو صاحب الكتلان كما تسـميه الرواية المصرية . وكان من الطبيعى أن تتخـذ مصر فى مثل هـذه الظروف بعض الإجراءات الإنتقامية ضد التجار الفرنج ، الذين ينتمون إلى البلاد التى عرف رعاياها بالاعتداء على الشواطئ المصرية . وهكذا نجد فى عصر السلطان الملك الأشرف بارسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) (١٤٢٢ — ١٤٢٨ م) أن العلائق بين مصر وأراجون يعتريها شىء من الارتباك والفتور ، وهو ما اهتم الفـريقان بالعمل لإصلاحه ومعالجته . وكانت نتيجة المفاوضات التى جرت بين مندوبى السلطان ، ومندوبى الفونسو الخامس ملك أراجون ، أن عقدت بين الفريقين فى شهر رمضان سنة ٨٣٣ هـ الموافق لمـايو سنة ١٤٣٠ م معاهدة جديدة لتنظيم العلائق السياسية والتجارية بين البلدين ، ونص فى مادتها الأولى على أن يعقد بين الطرفين صلح ثابت ومودة ، وأن يعتبر ما جرى من الضرر فى الأنفس والأموال ، والخصومات بين الطرفين من الأمور المنتهية ، وخصصت باقى مواد المعاهدة الإحدى والثلاثين لتنظيم العلائق والشئون التجارية ، ومن الحق أن نقول إن هـذه المواد تهدف إلى ضمان مصالح الرعايا الأرجونيين والتجارة الأرجونية ، وخلاصتها أن يكون لرعايا أراجون حق الإقامة والسفر والمتاجرة فى بلاد السـلطان ، وأن يكون للسـفن الأرجونية التى تعطب فى مـوانى

السلطان الحق فى أن تصلح وتفرغ بضائعها دون أن يؤخذ منها شيء، وألا تدفع المكوس المقررة إلا بعد بيع البضائع ،وألا يؤخذ من التجار الأرجونيين فى الموانى المصرية ، أو فى بلاد السلطان شيء إلا برضاهم ، وإذا أخذ منهم شيء وجب الوفاء بثمنه ، وألا يقتضى الدين إلا من المدين الأصلى أو ضامنه ، ولا يغرم أحد مكان أحد ، وأنه إذا استأجر أحد من المسلمين أو رعايا السلطان مراكب أرجونية ، فعليهم أن يأخذوا الرهائن نظير بضائعهم ، وإذا حصل بعد ذلك ضرر أو غدر ، كان الملزم بذلك هو الضامن ، ولا يلزم به أحد من الموجودين بأرض السلطان . وتنص المعاهدة بعد ذلك على تفصيل طرق البيع والشراء والوساطة، وضمان حرية البيع والشراء ، وعلى أن يبنى السلطان فندقاً للتجار الكتلان، وأن يسهل لقنصل الكتلان والتجار الذين يختارهم، مقابلة السلطان، وأن يكونوا هؤلاء أحراراً فى القدوم إلى القاهرة أو مغادرتها، أو إخراج بضائعهم منها . . .

على أن الذى يلفت النظر حقاً هو ما نصت عليه المعاهدة من ضمانات قضائية خاصة للرعايا الأرجونيين ، فقد نص على أنه لا يحكم بين الرعايا الأرجونيين وبين المصريين فى الخصومات إلا أمير أو ناظر ، وأنه لا يحبس أحد من الرعايا الأرجونيين إلا بأمر كتابى صادر ، وأن يضع قنصل أراجون أو الوصى المختار يده على أموال من يموت من رعايا الكتلان ، وأخيراً أن يخول للقنصل حق الفصل فى الخصومات التى تقع بين مواطنيه ، والسعى فى مصالحهم ، وأن يقيم لمواطنيه فندقاً فى المكان الذى يختاره ، ووجه الأهمية فى هذه النصوص هو أنها قد أضحت فيما بعد ، حقوقاً مكتسبة للرعايا الأرجونيين ، يتمسكون بها ، فإذا ذكرنا أن جمهورية البندقية كانت من جانبها قد استطاعت أن تحصل لقناصلها ورعاياها على بعض المزايا والحقوق المماثلة ، أدركنا كيف أضحت هذه الحقوق والضمانات القضائية ، بنداً من بنود الامتيازات الأجنبية الشهيرة،

التى اتسعت دائرتها فى العصر العثمانى ، وعانت منها مصر فيما بعد ماعانت من المتاعب والافتئات على حقوق سيادتها ، ولم يتح لها أن تتخلص من قيودها، وأغلالها المرهقة ، إلا بعد جهاد شاق ، امتد حتى عصرنا .

وقد استمرت علائق القاهرة مع الممالك الأسبانية النصرانية ، على انتظامها فترة أخرى ، واستمرت علائق القاهرة مع أراجون بالأخص تجرى وفق هذه المعاهدة الأخيرة . ولكن الأمور تتخذ منـــذ منتصف القرن الخامس عشر وجهات أخرى ، ذلك أن أحوال مملكة غرناطة ، أخذت تسوء وتتدهور ، وأخذت الاضطرابات والفتن تمزق أوصالها وتنهك قواها ، وأخذت قشتالة من جانبها تشدد الضغط عليها ، وكانت غرناطة كلما دهمها الخطر من قبـــل، تتجه فى طلب الأنجاد إلى إخوانها فى المغرب ، إلى مملكة بنى مرين القوية . ولكن المملكة المرينية كانت يومئذ فى دور انحلالها ، ولم يكن بوسعها أن تمد يد الغوث إلى غرناطة ، كما كانت تفعل من قبل ، وعندئذ اتجهت غرناطة إلى القاهرة ، وبعثت إليها سفارة فى طلب العون والأنجاد ، فوصلت إلى القـــاهرة فى شهر رجب سنة ٨٤٤ هـ (ديسمبر سنة ١٤٤٠ م) فى عهد الملك الظاهر جقمق ، ومع السفراء هدية فاخرة من الفخار المـــالقى ، والانجبار الغرناطى ، ومن ثياب الخز الأندلسية ، فوعد سلطان مصر سفراء الأندلس، أن تعاون مصر قدر استطاعتها بالأموال والعدة ، لأنها لا تستطيع لبعد الشقة إرسال الجنـــد إلى الأندلس ، ولم يكن لهذه السفارة أية نتائج عملية .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى تطورت الحوادث فى أسبانيا ، وتم اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون بزواج ايسابيلا ملكة قشتالة من ابن عمها الأمير فرناندو الأراجونى ابن خوان الثانى ملك أراجون ، ثم جلوس هذا الأمير على عرش أراجون فى سنة ١٤٧٩ م، وبذا قامت أسبانيا النصرانية المتحدة ،ومن برنامجها

الأساسى أن تشهر الحرب على مملكة غرناطة الإسلامية ، وأن تقضى بصفة نهائية على دولة الإسلام فى الأندلس :

وكانت مملكة غرناطة تضطرم يومئذ بالفتن ، وتدنو سراعاً من نهايتها المحتومة ، وليس من موضوعنا أن نتتبع تلك المعارك الانتحارية ، التى اضطرمت يومئذ حول عرش غرناطة زهاء ربع قرن بين السلطان أبى الحسن على بن سعد النصرى ، وبين أخيه محمد بن سعد المعروف بالزغل . ثم بينه وبين ولده أبى عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس ، ثم بين الزغل وبين أخيه ، والتى أسفرت فى النهاية عن تحطيم المملكة ، وسقوط قواعدها تباعاً فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايسابيلا ، واختتمت أخيراً بتسليم غرناطة آخر القواعد الأندلسية إلى الملكين فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ م ، واختتمت بذلك دولة الإسلام فى الأندلس :

بيد أن الذى يهمنا من تلك المأساة المؤلمة ، هو ما يتعلق بسير العلائق الدبلوماسية بين القاهرة وبين أسبانيا النصرانية ، ذلك أن هذه العلائق ، تتخذ عندئذ لدى القاهرة طابعاً جديداً ، وتتجه إلى تحقيق غايات جديدة . ولقد بينا فيما تقدم كيف أن بلاط القاهرة ، فى تنظيم علائقه مع الممالك الأسبانية النصرانية ، كان يحرص دائماً على أن تكفل لطوائف المدجنين حقوقهم وامتيازاتهم القديمة ، وأن يكفل لمملكة غرناطة الإسلامية أمنها وسلامتها ، ولكن قضية المدجنين أخذت تتضاءل أهميتها منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وينحدر المدجنون تباعاً إلى الذوبان ، والاختفاء فى الكتلة النصرانية ، على أن مصاير مملكة غرناطة ، لبثت تشغل بلاط القاهرة حقبة أخرى ، وكانت حوادث الحرب الأهلية فى غرناطة ، يتردد صداها فى القاهرة ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ابن إياس تباعاً فى حولياته ، ثم كان الصراع الأخير بين غرناطة وبين

أسبانيا النصرانية . وكانت خطة أسبانيا ترمى إلى القضاء أولا على مقاومة المنطقة الشرقية من مملكة غرناطة ، وهى التى يتزعمها مولاى الزغل . بينما كانت المنطقة الغربية ، وهى منطقة غرناطة التى يتزعما ابن أخيه أبو عبد الله محمد ، تتمتع بالهدنة الخادعة التى عقدتها مع النصارى . وكان فرناندو يرى فى الزغل رجل الأندلس الحقيقى ، وعماد المقاومة الصلبة التى يجب تحطيمها بادئ ذى بدء . ومن ثم فقد زحف فرناندو فى قواته على مالقة — أهم وأمنع القواعد الشرقية — وطوقها من البحر والبر بقوات كثيفة وذلك فى جمادى الثانية ٨٩٢ هـ (يونية سنة ١٤٨٧ م) ، وصمم المسلمون من جانبهم على الدفاع عن حاضرتهم بأقصى ما يستطاع ، وكانت تموج بقواتها الزاخرة، ولم يستطع مولاى الزغل، أن يغادر قاعدته وادى آش لينجد الثغر المحصور ، خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فاضطر إلى أن يترك مالقة لمصيرها وهو يذوب أسى . ولكنه فكر فى وسيلة أخيرة، لعلها تجدى فى إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، هى أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة ، فأرسل رسلا إلى أمراء أفريقية ، وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباى ، ولم يكن من المنظور ، إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصارى حتى يأتيها المدد المنشود ولكن مولاى الزغل ، رأى أن يشرك زملاءه أمراء الإسلام معه ، فى التبعة التى يحملها أمام الوطن وأمام التاريخ .

ووصلت سفارة الأندلس إلى القاهرة فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧ م) . وكانت مالقة قد سقطت فى أيدى النصارى قبل ذلك بثلاثة أشهر ، ولكن كانت ثمة قواعد وثغور أندلسية أخرى ، وفى مقدمتها غرناطة، ماتزال بأيدى المسلمين ، وكان بلاط القاهرة ، وسائر القصور الإسلامية الأخرى ترقب مصائر الأندلس ، بمنتهى الجزع والأسى ، وبالرغم من أن القاهرة

لم تكن لديها وسائل مباشرة لانجاد الأندلس، فإنها لم تقنط مع ذلك ولم تقف جامدة ، بل فكرت فى الحال فى أن تتخذ من الضغط الدبلوماسى وسيلة ناجعة لهذا الإنجاد . ألم تكن مصر هى المسيطرة على فلسطين وكنيسة القبر المقدس ؟ ألم يكن بين رعاياها ملايين من النصارى ؟ ألم تكن لها علاقة وثيقة سابقة بأسبانيا النصرانية ؟ وبينها وبين أسبانيا عدة معاهدات لتنظيم المصالح المتبادلة ؟ فكر بلاط القاهرة فى الحال أن يبعث بسفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية، الذين تعنيهم قضية الأندلس ، واختار لأدائها راهبين من رعايا النصارى ، أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وعهد إليهما أن يكتب إلى البابا، وهو يومئذ أنوصان الثامن ، وإلى ملك نابل فرناندوالأول ، وإلى فرناندووابسابيلا ملكى أسبانيا . وفى هـذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة، وعلى توالى الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، ولهذا فهو يطلب إلى ملكى قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضى المسلمين ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابل أن يتدخلا لدى ملكى أسبانيا ، لردهما عن إيذاء المسلمين ، هذا وإلا فإن ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سـياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضى المقدسة ، بل ويهدم كنيسة القبر المقدس ذاتها ، وكل المعابد والآثار الشرقية المقدسة .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية لتأدية سفارة ملك مصر إلى ملوك النصرانية ، ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى أسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩م، وكانت مالقة قد سقطت فى يد

الأسبان منذ عامين ، وسقطت من بعدها طائفة أخرى من القواعد والحصون ، وكان فرناندو يعسكر يومئذ بقواته تحت أسوار مدينة بسطة ، محاولا أخذها ، وهنالك تحت أسوار بسطة وفد القس أنطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩ ، فاستقبلهما فرناندو بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية ، وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على روما ونابل أولا ، وقدما كتب السلطان إلى البابا وملك نابل ، وكتب كل منهما إلى فرناندو فى هذا الشأن ، وكتب إليه ملك نابل بالأخص يلومه على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لايتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان ، ثم زار القسان بعد ذلك مدينة جيان ، حيث كانت الملكة إيسابيلا ، وأبلغها موضوع سفارتهما ، ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب .

ولم ير فرناندو وإيسابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ، ما يحملهما على تغيير خطتهما ، فى الوقت الذى أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً فى أيديهما ، واقترب أجل الظفر النهائى ، ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان فكتبا إليه فى أدب ومجاملة : « أنهما لا يفرقان بين رعاياهما المسلمين والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكمها راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية » ، وبذا ارتد القسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ومن المرجح أن رسالة الملكين الكاثوليكيين قد وصلت إلى القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً فى حوادث هذا العصر ، وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذما يدل على أن السلطان قد نفذ وعيده باتخاذ إجراءات معينة

ضد النصارى ، أو ضد الآثار النصرانية المقدسة ، والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بالخطر العثمانى ، الذى كانت تؤكده حركات بايزيد الثانى ، وغاراته المتكررة على حدود مصر الشمالية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد، وأن هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التى بذلتها القاهرة والتى رتبتها بمنتهى المهارة على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية ، لم تحقق غرضها المنشود ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم :

أجل لقد لقيت الأندلس قضاءها المحتوم ، وسقطت غرناطة آخر معقل للإسلام فى الأندلس ، فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فى الثانى من ربيع الأول عام سبع وتسعين وثمانمائة ، الموافق الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ م .

وكان لمحنة الأندلس وقع عميق فى سائر جنبات العالم الإسلامى ، وكان له بالأخص صدى محزن فى مصر ، وشعر بلاط القاهرة بأن العلائق بين مصر وبين أسبانيا النصرانية ، وهى التى لبثت عصوراً تتسم بالمودة والتفاهم المتبادل، قد فصمت . وأن المصالح العديدة المشتركة ، التى كان الفريقان يحرصان على تنظيمها ورعايتها قد تصدعت ، بيدأنه كان ثمة فصل جديد فى هذه العلائق ، وكانت ثمة محاولة أخيرة لتنظيمها . وكانت المحاولة هذه المرة من جانب أسبانيا النصرانية ، ذلك أن ملك قشتالة فرناندو الكاثوليكى لم ينس ما جاء فى سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى انتقاماً لمحنة الأندلس ، ولم يقنع بالخطاب الذى وجهه إليه على يدى سفيريه الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضى الأندلسية ، رأى فرناندو أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرفق والرعاية فى ظل الحكم الجديد، فبعث إلى بلاط القاهرة بسفارة جديدة ، وكان سفيره إلى السلطان هو بيترو مارتيرى

دى انجلريا ، وهو حبر إيطالى نابه ، وكاتب ومؤرخ كبير ، وكان ندبه لهذه السفارة فى أغسطس سنة ١٥٠١ م ، وقصد مارتيرى إلى مصر ، مزوداً بالكتب والوثائق اللازمة . فوصل إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية شاقة عن طريق إيطاليا واليونان ، فى شهر ديسمبر ، ثم وصل إلى القاهرة فى آخر شهر يناير . وكان سلطان مصر يومئذ هو الملك الأشرف جان بلاط ، فاستقبل سفير الملكين الكاثوليكيين عقب وصوله بمودة وترحاب ، ولكن نقلت إليه على أثر ذلك أقاويل كثيرة من بعض الأشراف المغاربة ، والأندلسيين المنفيين ، الذين استنكروا مسلكه ، وتكريمه لسفير ملك استولى على أراضى المسلمين ، وهو الآن يسومهم الخسف والعذاب ، ويرغمهم على التنصير . فبعث السلطان إلى السفير يرجوه الانصراف من حيث أتى ، خوفاً من سوء العواقب ، ولكن مارتيرى بعث إلى السلطان يشرح له خطورة الأمر ، ويصف عظمة مليكه ، وروعة سلطانهما الباذخ ، وكونهما يستطيعان الانتقام ، والإضرار بمن يسىء إليهما وإلى مقامهما ، فعاد السلطان واستقبله فى مقابلة سرية خاصة استمرت من الصباح إلى الظهر ، وكان ذلك فى اليوم السادس من فبراير سنة ١٥٠٢م (الموافق ٢١ شعبان سنة ٩٠٧ هـ) . وألقى مارتيرى بين يديه خطاباً ضافياً ، فند فيه ما ينسب لمليكيه من الاستيلاء على غرناطة ، واضطهاده للمسلمين ، وإرغامهم على التنصير ، وبين مارتيرى حق سيده فى الفتح ، وكونه يحكم مئات الألوف من الرعايا المسلمين ، الذين يعيشون فى بلنسية وأراجون ، وهم جميعاً يتمتعون بشعائرهم أحراراً . واستطاع بكياسته وبراعته ، أن يقنع السلطان بصدق رسالته ، وحسن نيات مليكيه ، وقدم إلى السلطان شهادات من حكام الثغور المغربية ، تفيد بأن المسلمين المهاجرين إلى المغرب ، يصلون إلى الشواطئ مع نسائهم وأولادهم فى أمن وسلام ، ويلقون من مندوبى الملكين كل رفق ورعاية ، واستطاع فوق ذلك بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يصدر له

وثيقة ، يسمح فيها للنصارى باصلاح ما تخرب من الأماكن النصرانية المقدسة فى بيت المقدس وغيرها ، وأن يعفى نصارى بيت المقدس ، وكذلك الحجاج النصارى ، مما فرض عليهم من المكوس الجديدة ، وأن تقتصر المكوس على ما كان يدفعه الآباء والأجداد فى العصور السابقة ، وأن يعاقب كل من يعتدى على الحجاج .

ويصف لنا مارتيرى ، فى كتابه الذى كتبه باللاتينية عن سفارته ، قصر السلطان بأنه يقوم على ربوة على نمط قصر الفاتيكان فى رومة ، وقصر الحمراء فى غرناطة ، ويصف السلطان بأنه رجل فى الخمسين من عمره ، ذو لحيــة كعادة أهل البلاد ، ولكن صغيرة نحيلة ، وهو مهيب الطلعة ، ذو وجه عبل أسمر ، وهيئة حوشية نوعاً ، وعينين صغيرتين غائرتين ، وحركات ثقيلة ، وقوامه فوق المتوسط حسبما يبدو من جلسته ، وهو يرتدى ثوباً لا يختلف كثيراً عما يسميه أهل غرناطة بالجبة ، ويورد مارتيرى أثناء وصف حوادث سفارته ، نبذة طويلة عن تاريخ مصر الإسلامية ، ووصفاً للقاهرة والنيل والأهرام ، ووصفه قوى شائق .

وكانت هذه آخر سفارة أسبانية إلى بلاط السلاطين ، وبلاط مصر المستقلة واستمرت هذه العلائق الأخيرة بين الدولتين دستوراً للتعامل بينهما ، حتى وقع الفتح العثمانى[1] لمصر بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، وفى خلال ذلك كان

---

(١) رجعنا فى هذا البحث إلى مجموعة وثائق التاج الارجونى المحفوظة ببرشلونة Archivo de la Corona deAragon وإلى كتاب A. y Santon y R.G. Linares : Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon. وإلى كتاب بيترو مارتيرى عن سفارته المصرية Legatio Babylonico « الترجمة الاسبانية وإلى كتــاب صبح الاعشى للقلقشندى ، وأخيرا إلى كتاب نهــاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان .

الصدى الأليم الذى أثارته مأساة الأندلس فى الأمم الإسلامية يخبو شيئاً فشيئاً ، ولم تعد قضية المدجنين ، ولا قضية الإسلام فى الأندلس ، كما كانت فى الماضى تشغل بلاط مصر أو غيره من القصور الإسلامية ، وحلت مكان قضية الأندلس الشهيدة ، قضية الموركسيين ، أو العرب المتنصرين ، ولبثت مدى قرن آخر ، تثير بالغ العطف والأسى فى الأمم الإسلامية ، وفى غيرها :



مخطوط فى تعليم فنون القتال والفروسية
فى أُواخر عصر المماليك الجراكسة

د. محمد مصطفى

مخطوط فى تعليم فنون القتال والفروسية
فى أواخر عصر المماليك الجراكسة

د. محمد مصطفى

اشترى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، من أحد تجار الآثار، ثلاث ورقات من مخطوط باللغة العربية، لكتاب فى تعليم فنون القتال والفروسية والتدريبات العسكرية ، على كل منها صورة توضيحية تشرح نوعاً من أنواع هذه الفنون والتدريبات . وتسجلت هذه الورقات فى السجل العام للمتحف : الأولى بتاريخ ١٩٥٥/٥/١٢ تحت رقم ١٨٠١٩ (شكل ١) ، والثانية والثالثة بتاريخ ١٩٥٦/١/٢٩ ، إحداهما تحت رقم ١٨٢٣٥ (شكل ٣) ، والأخرى تحت رقم ١٨٢٣٦ (شكل ٤) . وقد قمت بنشر هذه الصور الثلاث فى دليل معرض الوحدة فى الفن الإسلامى، الذى كتبته فى سنة ١٩٥٨، (الصور ١٦ و ١٧ و ١٨) .

كما باع تاجر الآثار المذكور لأحد أصحاب المجموعات الخاصة ، ورقتين أخريين من أوراق هذا المخطوط ، على إحداهما صورة ، وعلى الأخرى صورتان ، واحدة على كل من الوجهين . وقد سمح لى سيادته بتصوير الصور الثلاث ونشرها ، فنشرت إحداها (شكل ٢) فى سنة ١٩٦٠ فى مجلة بستان التى تصدر فى ڤينا (العدد ٢ الصورة ٢٣) ، ولم تنشر الصورتان الأخريان حتى الآن :

ونظراً إلى ماتبين لى من أهمية هذا المخطوط ، فإننى رجعت إلى تاجر الآثار للاطلاع على مايكون قد تبقى لديه منه ، من الأوراق والصور . ولكننى لم أجد لديه سوى بضعة أوراق وصورتين ، تفضل سيادته وسمح لى بتصويرهما ونشرهما ، ولم تنشرا حتى الآن .

وهكذا أصبحنا نعرف ثمان فقط من الصور التوضيحية التى كانت تشرح أبواب هذا المخطوط ، وقد صورتها جميعا بالألوان .

وأخبرنى السيد التاجر أنه اشترى المخطوط فى سنة ١٩٢٨ ، وقال إنه باع عددا من أوراقه الموضحة بالصور فى بلاد مختلفة .

وحصلت على نسخة من مقال كتبه السيد عيسى المعلوف ، يصف فيه هذا المخطوط ، ويقول إنه رآه فى سنة ١٩٢٨ ، وإنه كان يتألف من ١٨٤ صفحة ، أى ٩٢ ورقة ، وكان يحوى ١٦ رسماً مخططاً لتعبئة الجيوش ، وكذلك ٤٦ صورة ملونة بديعة لتوضيح موضوعاته ، وإنه كان كراريس محلولة ، حزمت وجلدت بدون ترتيب ، وكان فيه خروم ونقص فى أوراقه .

وإننا نشكر لكاتب المقال جهوده التى بذلها ليحافظ لنا على تراث عربى مصرى ثمين . والواقع أن ماكتبه هو الوصف الوحيد الذى استطعنا أن نحصل عليه للحالة التى كان عليها هذا المخطوط فى سنة ١٩٢٨ ، قبل أن تتناثر أوراقه وتباع فى شتى الأقطار والبلدان . وإننا لانريد هنا أن نناقش ما جاء عدا ذلك من تعليقات وشرح فى هذا المقال ، ونتركه لمجال آخر عندما يتيسر لنا نشر الصور الأخرى بالألوان .

ومؤلف هذا المخطوط غير معروف ، ولم نستطيع أن نستدل عليه ، أو على عنوان كتابه ، فى أى من المراجع العامة التى تبحث فى شئون المخطوطات ومؤلفيهما .

ومن أبواب المخطوط : ركوب الفرس وركوب المهر وتعليمه لعبة الدبوس، الرمى بقوس الرجل على الفرس ، أوزان القسى ومعرفتها ، شيل السيف ، شيل الرمح ، رمى السهم من الرمح ، لعب الترس على الأرض والفرس ، رمى القبق من على الفرس وهو ساير ، الرمى بالرمح من القربوص القُدّامى ، ركوب الفرس عرياناً بغير سرج ، صفة عمل دبوس إذا ضرب به خوذة كسرها ، رمى النشاب وما يكون عيباً فى القوس؛ كما يتحدث مؤلف المخطوط عن فنون النفط ، وكذلك عن المدفع والبارود وطريقة استعمالها ، وغير ذلك أبواب كثيرة فى أوصاف الأسلحة المختلفة وطرق استعمالها والتدريب عليها، مع عمل رسوم توضيحية لهذا الغرض .

وقد ثبت عندى من دراسة الأوراق والصور التى نعرفها من هذا المخطوط أنه كتب فى مصر فى أواخر عصر المماليك الجراكسة ، وفى الغالب فى عصر السلطان قايتباى أو السلطان قانصوه الغورى ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : أن الألفاظ والمصطلحات الفنية التى تقابلنا فى متن الكتاب، هى مصطلحات وألفاظ نعرفها من كتب المؤرخين الذين كتبوا عن مصر فى أواخر عصر المماليك .

ثانيا : الأسلوب اللغوى الذى تتخلله كلمات باللغة العامية، يشبه تماما أسلوب ابن إياس مؤرخ هذه الفترة .

ثالثا : أسلوب الخط يشبه فى قاعدته وأصوله الخط فى المخطوطات التى ترجع إلى هذا العصر .

رابعا : أن المصور الذى رسم الصور التوضيحية فى المخطوط ، كان حريصا على استعمال قطع الملابس المناسبة للأشخاص الذين رسمهم ، وتلوينها فى أغلب الأحيان بالألوان الأصلية المفروضة لها . فقد كان صغار المماليك ، فى أواخر

عصر المماليك الجراكسة، يلبسون رداء أسمه كبر أثنـاء تدريباتهم العسكرية فى الطباق . وكان لهم رداء آخر للخروج به إلى الشوارع إسمه ملوطة (والجمع ملاليط) ، كما كانوا يلبسون على رؤسهم زمطاً أحمر (والجمع زموط) :

ونحن نعـرف أن الزمط خصص للمماليك منـذ منتصف القـرن التاسع الهجرى (١٥ ميلادى) بأمر من السلطان برسباى ، أورده ابن إياس فى تاريخه (طبعة بولاق ج ٢ ص ٢١) ، وكان ذلك فى سـنة ٨٤١ هـ : (١٤٣٨ م) ؛ فمنع عامة الشعب والفلاحين من ارتداء الزموط على رؤسهم ، وجعل ذلك قاصرا على المماليك .

كما أننا نقرأ فى تاريخ ابن إياس (طبعة محمد مصطفى ج ٥ ص٢١٣) ، أنه صدر للمماليك أمر من الحاكم العثمانى فى شهر رمضان سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) يمنعهم من ارتداء ملابس الجنـود العثمانيين ، وأن يقتصروا فى ملابسهـم على الزموط الحمر والملاليط عند سيرهم فى شوارع القاهرة .

ونرى الزموط يلبسها المماليك على رؤسهم فى صورة رسمها أحد المصورين من مدرسة المصور جنتيلى بلليني ، محفوظة فى متحف اللوفر ، صورفيهـا حفل استقبال السلطان قانصوه الغورى ، فى الحوش بقلعة القاهرة ، لبعثة من البندقية فى سنة ١٥١٢ :

ورسم الرحالة أرنولد فون هارف (ص ١٠٤) صورة لمملوك واقف ، يلبس زمطا على رأسه . وممـا نقرأه من وصف الزمط ، نعلم أن لونه أحمر ، وأن له وبر ظاهر فى جميع الصور التى نعرفها . ويوجد زمط فى المتحف القبطى بالقاهرة نشره Mayer (L.A. Mayer, Mamluk Costume, p. 33, pl. II,2)

ونظراً إلى الأهمية الكبيرة لهـذا المخطوط فى دراسـة التدريبات العسكرية للمماليك، وأنواع الملابس التى كانوا يرتدونها وألوانهـا وأوصافها، ورسـوم

الأسلحة وطرق استعمالها، وأنواع الخيول ووسائل تعليمها، وتعبئـة الجيوش وتنظيمها ، والحالة العسكرية التى كانت عليهـا دولة المماليك فى مصر ؛ قبيل الفتح العثمانى :

ولمـا كان هذا المخطوط هو الوحيد من نوعه الذى نعرفه حتى الآن، وهو يكمل البيانات التاريخيـة، والمصطلحات الفنيـة واللغوية التى وردت فى كل من كتابى : بدائع الزهور فى وقائع الدهـور لابن إياس ، ومفاكهة الخـلان فى حوادث الزمان لابن طولون الصالحى، اللذين كان لى شرف تحقيقهما ونشرهما .

فاننى أنتهز مناسبة انعقاد هـذه الندوة الدولية، لتوجيه النداء إلى المتاحف وأصحاب المجموعات الخاصة فى أنحاء العـالم ، للتعاون معنا على إعادة تجميع أوراق هذا المخطوط ، وما يحويه من رسوم وصور ، وعمـل صور فوتوغرافية بالألوان لمـا هو موجود منها، وترتيبها ودراستها، ثم نشرها للإفادة منهـا لغوياً وفنياً وعلمياً .

بعض المراجع

- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. ج ١، ٢ — طبعة بولاق ؛ القاهرة ١٣١١ هـ ؛

- محمـد مصطفى : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور : القاهرة ١٩٥١ ؛

- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. ج ٣ و ٤ و ٥ . حققه ونشره : محمد مصطفى . القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٣ .

- محمد بن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان . ج١ و ٢ . حققه وكتب له المقدمة والحواشي والفهارس : محمد مصطفى . القاهرة ١٩٦٢ — ١٩٦٤ .

- محمد مصطفى : السلطان قايتباى كما رآه الرحالة الالمانى أرنولد فون هارف — مصر فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى فى : مجلة الهلال ، أبريل ١٩٥٥ .

- محمد مصطفى : دليل معرض الوحدة فى الفن الإسلامى — من مطبوعات متحف الفن الأسلامى . القاهرة ١٩٥٨ . والترجمة الانجليزية له .

- عبد الرحمن زكى : تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الإسلامى القاهرة ١٩٦٩ ؛

— L. Mercier : La Parure des Cavaliers et l'linsigue des preux Paris 1922-24.

— L. Mercier: La Classe et les Sports chez les arabes. Paris 1927.

— Helmut Ritter : La Parure des Cavaliers und die literatur über die ritterlichen Künste. in : Der Islam, Band XVIII, 1929, Seite 116 - 154.

— Mohamed Mostafa : Beiträge Sur geschichte ägyptens zur zeit der türkischen Eroberung. In : ZDMG, Band 14, 1932, Seite 194 - 224.

— L. A. Mayer: Mamluk Costume. genéve 1952. the arabs. In :

— Abdel Rahman zaki : Military Literature of arabs. In : Cahiers d'Histoire Egyptienne, Serie VII, Tasc. 3, Juin 1955, pp. 149 - 160.

— Mohamed Mostafa : Aarstellung des Aâgliahen Lebens in der islanischen Kunsl. In : Busfan, Heft 2, Wien 1960, Seife 33 - 48.

بيـان الأشكال

شكل ١ ــ اثنان من المماليك يتدربان على لعبة التحطيب والمبارزة بالعصى ، بينما وقف إلى جانبهما المعلم ، وهو يرفع يده اليمنى ليلقى إليهما بتوجيهاته . متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٨٠١٩ .

شكل ٢ ــ اثنان من المماليك يركبان الجياد ، ويتدربان على لعبة التحطيب والمبارزة بالعصى . ونلاحظ أن ذيول الجياد تظهر معقودة ، وهى عادة كانت شائعة فى عصر المماليك . فى مجموعة خاصة .

شكل ٣ ــ اثنان من المماليك يجربان أوزان القوس ومتانته ، ويرى الأيمن منها وقد علق ثقلا فى القوس ليختبر قوة احتماله . متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٢٣٥ .

شكل ٤ ــ اثنان من المماليك يركبان الجياد ، المعقودة الذيول ، وهما يتدربان على الطعن بالحراب . متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٨٢٣٦ .



وبعد ذلك ليبطل الطراد ولابد منه والله الموفق

باب كسر العامود والخلاص منه

ينبغي لمن أراد أن يكسر العامود وأن يسلم من
الفرسان أن يتخذ رمحا من مران يكون طوله باعين
ويشمعه حتى لا ينسلخ بيده ويتخذ له نصلا حديدا يكون
رزنه رطلين ويكون رأسه على صفة رأس نصاب
المراد وينصبه فيه ثم يعمد إلى فرس عليه الهوا
قوي نابت الرقبة ويقطع من الحبل عامودا على قدر
طوله ويحفر له في الأرض مقدار ذراع ويجعل بالجبس

إلى فوق ويشغله ويلتقي بينا بينا لا وقد [illegible]
الرأس الأول وتقوله ونفعل ما فعل في الأول [illegible]
رفيقه وتفعل كما تفعل حتى يتم لعب [illegible]
اذ من على الأرض ابتدا اللعب على الفرس كما [illegible]
وهذه صورة ذلك

وقس عنانك وركابك في حالة اللعب لاجل حاجتك
في الشرح والتصنيع والتسليط عليه ولا يكون [illegible]

بلغ الوزن رطلا فذلك حمله فإذا أردت الإدمان
بالقوس القوي فقذاف واعمل فيه بكرة واعمل في
البكرة حبلا وثيقا واربطه في الحجر الموزون وجره
وأنت ماسك قبضة البكرة حتى تستوفي ويكون حركة
الحبل بالإبهام والشهادة والوسطى وذلك إدمان ٥
القوس القوي وعليك بالكباد وهذا صفة نصب القذاف
للإدمان وهذه صفة الوزن والإدمان وعليك بالكباد
في كل الأوقات

ثم تطعنه بشمالك وأنت [illegible] محاذيه وأنت [illegible] إن كان

تطعنه فإنه [illegible] الرمح [illegible] فرسه وأطعنه

في خاصرته فإنه [illegible] الفرس ولا تخرجه إلى قدام

فإنه يبطل [illegible] إن شاء الله تعالى

باب [illegible] إذا [illegible]

بالرأس فاترك [illegible] في الركاب واطلب

بسرعة [illegible] الفرس [illegible]

وتنطلق [illegible] من الركاب [illegible] أن [illegible]

العنان [illegible] إليه [illegible]

مظهر من مظاهر العلاقات بين مصر الفاطمية والأندلس خلال القرن الحادى عشر الميلادى طبقا لوثائق جديدة مخطوطة

د. محمود على المكى

مظهر من مظاهر العلاقات بين مصر الفاطمية والأندلس
خلال القرن الحادى عشر الميلادى طبقاً لوثائق جديدة مخطوطة

د . محمود على المكى

منذ أن افتتح العرب الأندلس فى سنة ٩١ هـ : (٧١١ م .) وأصبحت شبه جزيرة أيبريا بذلك جزءاً من العالم الإسلامى، ربطتها بمصر العربية علاقات وثيقة كانت تتذبذب بين الصداقة والعداوة، ولكنها ظلت متينة مستمرة حتى نهاية الإسلام فى أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

وحديث هذه العلاقات طويل متشعب ، على أننا سنعرض فى هذا البحث لجانب محدود منها لايكاد يعرف ، هو الخاص بالصلات التى ربطت بين الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وإحدى دول الطوائف فى الأندلس، هى دولة الموفق مجاهد العامرى وابنه إقبال الدولة على ملكى دانية والجزائر الشرقية (جزر البليار) خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

وإذا استعرضنا العلاقات بين مصر والأندلس حتى هذه الفترة التى سيختص بها بحثنا أمكننا أن نقسمها على ثلاث مراحل زمنية كبيرة :

الأولى منذ الفتح العربى للأندلس حتى الغزو الفاطمى لمصر فى سنة ٣٥٨هـ. (٩٦٩ م .) أى خلال الوقت الذى كانت فيه مصر ولاية أموية ثم عباسية .

والثانية منذ الفتح الفاطمى لمصر حتى سقوط الخلافة المروانية فى الأندلس فى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى .

والثالثة وهى التى تعنينا بصفة مباشرة هنا ، هى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، أى الموافقة لعصر ملوك الطوائف فى الأندلس على وجه التقريب .

* * *

أما المرحلة الأولى فقد تقلبت فيهـــا على مصر دول شتى : كانت فى أول الأمر ولاية أموية ، ثم أصبحت عباسية ، فلما ضعفت خلافة بنى العباس استقل بها أحمد بن طولون منذ سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) . ومنذ ذلك التاريخ حتى الغزو الفاطمى تعاقبت عليها الدولتان الطولونية والأخشيدية اللتان لم يكن يربطهما ببغداد إلا ضرب من التبعية الإسمية . أما الأندلس فقد تجددت بها دولة الأمويين خصوم بنى العباس : على أن العلاقات مع ذلك بين البلدين كانت وثيقة تغلب عليها الصداقة ، وقد ازدادت هذه الصلات ولاسيما الاقتصادية خلال العصرين الطولونى والأخشيدى ، ونشير بصفة خاصة إلى الروابط الثقافية التى جمعت بين البلدين وقربت بينها ، حتى اصبحت الأندلس تدين بجانب كبير من تكوينها الثقافى والروحى لمصر ، ويتمثل هذا الجانب فى تمسك الأندلسيين بتعاليم أهل السنة وخصوصا بمذهب مالك ، فما هو جدير بالذكر أن هذا المذهب لم ينتشر فى الأندلس ولا فى المغرب بوجه عام إلا بفضل ما أخذه الفقهاء الأندلسيون والمغاربة عن شيوخهم المصريين من تلاميذ الامام مالك ، من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز وغيرهم [١] .

(١) سبق أن اختصصنا موضوع العلاقات بين مصر والأندلس حتى نهاية القـــرن العاشر الميلادى بدراسة مفصلة بكتابنا «التيارات الثقافية المشرقية ، وأثرها فى تكوين الثقافة الأندلسية» « بالأسبانية » ، نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، سنة ١٩٦٧ .

M. A. Makki : Ensàyo sobre las asportaciones orientales en la Espana Musulmana, ed. Madrid, 1967.

انظر بصفة خاصة الفصل الخامس بمصر ص ١١٥ — ١٦٧ .

كذلك أفردنا بحثا آخر لـــا تدين به الأندلس لمصر فى ميـــدان التأليف التاريخى بعنـــوان « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الاندلسى » ، صحيفة معهـــد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ص ١٥٧ — ٢٤٨ :

M·A. Makki : Egipto y los origenes de la historiografia arabigo - espanola, R.I.E.E.I., Madrid, vol. V. pp. 157-248.

وقد كان مما وحد بين البلدين من الناحيتين السياسية والمذهبية تعرضهما لخطر الدعايات الشيعية التى بدأت بلاد الشمال الأفريقى تضطرب بها منذ أوائل القرن التاسع الميلادى مهددة بالتسرب إلى مصر والأندلس على السواء . وفى نهاية هذا القرن نرى مايشبه ائتلافاً غير مكتوب بين دول مصر وأفريقية والمغرب والأندلس من أجل مواجهة الخطر الفاطمى المرتقب . ولكن ذلك لم يمنع الفاطميين من النجاح فى إسقاط دولة الأغالبة فى أفريقية (تونس) سنة ٢٩٦هـ . (٩٠٩م) وإقامة دولتهم على أنقاضها . وقد زاد هذا الحدث من توطد العلاقات بين مصر والأندلس اللتين كانتا مهددتين بالنزعة التوسعية لدى خلفاء الفاطميين الأوائل ، ولم تكن هذه النزعة راجعة إلى الشراهة إلى الفتوح بقدر ماكانت ضرورة لامفر منها ، فقد شعر الخلفاء العبيديون بأن مقامهم فى أفريقية ماكان ليستمر بعد أن واجهوا فى هذه البلاد من الثورات الدامية المتوالية ما جعل حياتهم هناك جحيما لايطاق .

وكان الفاطميون بالفعل يسعون إلى مد دولتهم ، إما شرقا إلى مصر ، أوشمالا إلى الأندلس ، ولكن هذه البلاد استعصت عليهم بعد أن قيض لها رجل يعتبر أعظم ملوك الأمويين وأبعدهم نظراً وأشدهم مراساً ، وهو عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢٢ — ٩٦١) ، وهكذا وجهوا نظرهم إلى مصر التى تمكن قائدهم العبقرى جوهر الصقلى من فتحها ونقل دولة الفواطم اليها منذ سنة ٣٥٨ / ٩٦٩ .

ومنذ هذا التاريخ حتى نهاية القرن العاشر الميلادى تبدأ المرحلة الثانية من علاقات مصر بالأندلس ، وفيها تتحول هذه العلاقات إلى العداوة الصريحة التى كانت تتخذ مظاهر عدة تتفاوت من الدعايات السياسية المخربة وإثارة القلاقل إلى الاشتباكات العسكرية المسلحة . على أن كفة الأندلسيين كانت هى الراجحة فى هذا الصراع ، فقد عرف المروانيون كيف ينقلونه إلى شمال

أفريقيا : فى المناطق التى كان الفاطميون المصريون يعتبرونها ولايات لدولتهم وميداناً لنفوذهم ، وأعان الأمويين على التفوق فى هـذا الصراع أنه سرعان مابدت فى أفريقية (تونس) تحت حكم بنى زيرى الصنهاجيين نزعات انفصالية عن الدولة الفاطمية ، هذا فضلا عن كون الأندلس قد بلغت خلال القرن العاشر ذروة عظمتها السياسية والاقتصادية والعسكرية فى ظل عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، ثم الحاجب المنصور بن أبى عامر :

* * *

ونأتى فى النهاية إلى المرحلة الثالثة من مراحل العلاقات بين مصر والأندلس وهى التى تبدأ بانهيار خلافة بنى أمية واشتعال نار الحرب الأهلية منذ سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) حينما أعلن محمد بن هشام بن عبدالجبار المهدى ثورته على عبدالرحمن بن المنصور العامرى على أثر إعلان هذا نفسه ولياً لعهد هشام المؤيد . وتبدأ منذ ذلك التاريخ فصول المأساة الدامية التى انتهت إليها الدولة المروانية العتيدة ، فينفرط عقدها ، ويتوثب كل ثائر وزعيم على مابيـده ، وتحل محل الخـلافة الأموية الشامخة عشرات من الدويلات الصـغيرة التى عرفهـا التاريخ باسم « الطـوائف » .

وليس من شأننا هنا التعرض لأحداث هذه السنوات المضطربة ، وانما يهمنا منها مدى تأثيرها على العلاقات بين مصر والأندلس .

ولابد أن الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت (ولى بين سنتى ٣٨٦ و٤١١ هـ / ٩٩٦ — ١٠٢٠) قد اغتبط أعظم اغتباط وهو يرى نهاية دولة بنى مروان ، بعد أن كانت خلال أيام المنصور العامرى قد أصبحت أعظم ممالك الغرب كله ، الإسلامى والمسيحى منه على السواء ، ولابد أنه تنفس الصعداء حينما رأى كيف يخلف هذه الدولة أمراء ضعاف تمزق شملهم

الفتن والحروب الأهلية . بل أننا نشهد كيف تتطور أحداث الأندلس بسرعة ، فتقوم فيها لأول مرة فى التاريخ دولة علوية هى دولة بنى حمود الحسنين ويعلن على بن حمود نفسه خليفة على الأندلس ، ويتعاقب أفراد من هذه الأسرة العلوية على حكم أجزاء من شبه الجزيرة ، وإن كانوا لم يفلحوا فى فرض سلطانهم على جميع البلاد . ويصور لنا فرح الحاكم بتلك الأحداث هـذا النص الفريد الذى احتفظ لنا به ابن عذارى المراكشى والذى يقول فيه :

« وفيها (أى فى سنة ٤١١ / ١٠٢٠) ورد أيضا (على القيروان) محمد ابن عبد العزيز بن أبى كدية بسجل آخر من الحاكم جواباً للمعز (بن باديس) عما كان فيه من أخبار الأندلس ، وانقراض الدولة الأموية بها ، وقيام القاسم ابن حمود فيها ، فشكره على ذلك ، وبعث إليـه خمسة عشر علما ، منسوجة بالذهب . وركب المعز بن باديس والأعلام المذكورة بين يديه [(١)] » .

غير أن المؤكد هو أن هذه الدولة العلوية الحمودية وإن كانت قد بدت على بعض خلفائها مثل القاسم بن حمود المذكور فى النص المتقدم نزعات شيعية [(٢)] ، فإنها لم تحاول الدعوة للفاطميين فى مصر أو إعلان التبعة لهم ، فتسمى هؤلاء الأمراء بألقاب الخلافة ، يدل على أنهم كانوا يعملون لحسابهم الخاص لا أتباعا لأحد ، ولهذا فالذى نراه هو أن سرور الحاكم واغتباطه لأحداث الأندلس كان فيه من الشماتة والتشفى فى الأمويين أكثر مما فيه من التأييد الحقيقى لدوله بنى حمود ، فالحموديون

---

(١) البيان المغرب ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٩٥٠ ، ١ / ٢٨٩ .

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ، بتحقيق محمـد بن تاويت ، القاهرة سنة ١٩٥٢ ، ص ٢٢ ، عبـد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، بتحقيق محمـد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، سنة ١٤٩٩ ، ص ٥٠ ، وبحثنا عن « التشيع فى الأندلس » صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ ، ص ١٣٣ — ١٣٥ .

أنما ينتسبون إلى أسرة الأدارسة، أول دولة علوية فى المغرب ، وهى التى طالما حاربها الفاطميون فى المغرب على الرغم من مائة قرابتهم، حتى أن كثيراً من الأدارسة اضطروا إلى الاعتصام بدعوة المروانيين الأندلسيين[1] .

وقد كان من أهم ماميز هذه الفترة المضطربة هو انحلال العناصر التى كان المجتمع الأندلسى يتألف منها ، والتى كانت الخلافة المروانية قد جعلت منها كتلة واحدة متجانسة ، وتبع الانحلال السياسى الذى أصيبت به البلاد تفكك اجتماعى عنصرى، فانحاز الصقالبة أو الفتيان العامريون إلى شرق الأندلس، وبقى الزعماء العرب من أمثال بنى عباد مسيطرين على جزء كبير من غرب شبه الجزيرة . وأما البربر فقد تجمعوا فى الجنوب الشرقى، قريباً من العدوة المغربية وكانوا يدعون فى أول الأمر لخلفاء بنى حمود العلويين، ثم لما رأوا ضعف هؤلاء الخلفاء وفسولتهم أقبل كل على شأنه مستقلا بنفسه، وإن كان أمراء البرابرة قد ألفوا فيما بينهم شبه ائتلاف بعدما رأوا من كراهية الأندلسيين لهم وتألبهم عليهم : ولعل أكبر الإمارات البربرية التى قامت فى أعقاب الفتنة هى دولة بنى زيرى الصنهاجيين ملوك غرناطة، وكانوا فرعا من نفس الأسرة الصنهاجية التى استخلفها المعز لدين الله الفاطمى على أفريقية عند توجهه إلى مصر ، فمؤسسها هو زاوى بن زيرى بن مناد أخو يوسف بلقين، الذى كان أول عامل للفاطميين على أفريقية . وكان زاوى بن زيرى قد قدم إلى الأندلس وافداً على المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٣ (١٠٠٢ — ١٠٠٣) وأشترك فى أحداث

(١) أنظر فى علاقة أمراء الادارسة المتأخرين بالدولة المروانية فى الاندلس ، القسم الثالث من أعمال الاعلام لابن الخطيب « الخاص بالمغرب » بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد أبراهيم الكتانى، ط الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ ص ٢١٨-٢٢٤، وليفى بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية، Léval - Provençal : Histoire de Espagne Musulmane
ط . باريس سنة ١٩٥٠ ، الجزء الثانى ص ١٩٠ — ١٩٦ .

الفتنة الأندلسية، ثم انحاز بعشيرته الصنهاجيين إلى غرناطة . وفى سنة ٤٠٩ (١٠١٨) أوقع زاوى هزيمة ساحقة بالائتلاف الأندلسى الذى قام بآخر محاولة جادة لإعادة الدولة المروانية، ولكنه على الرغم من هذا الانتصار الكبير لم يلبث أن اتخذ قراره الغريب بمغادرة الأندلس والعودة إلى موطنه الأول بأفريقية بعدما رأى بعض الأندلسيين لإمارته البربرية الصغيرة . وكان يحكم أفريقية فى ذلك الوقت حفيد أخيه المعز بن باديس . واستخلف زاوى بن زيرى على غرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكس الذى أورث الملك ذريته حتى خلعهم المرابطون عند فتحهم الأندلس[1] .

وقد كان يبدو لأول وهلة أن هذه المملكة البربرية التى قامت فى الأندلس فرعاً لدولة الزيريين فى أفريقية، هى أقرب دول الطوائف إلى الدعوة للفاطميين المصريين . ولكنا لم نعثر على أى إشارة يمكن أن يفهم منها أنه كانت لهذه الامارة صلة بالخلافة الفاطمية فى مصر : على أن هذا ينبغى ألا يدهشنا ، فقد كان الفاطميون فى شغل عن الأندلس وأحداثها بشئون دولتهم فى الشرق ، ثم أنه كان يكفيهم انقراض دولة خصومهم المروانيين فى الأندلس، هذا فضلا عما أشرنا إليه من قبل من فتور العلاقات بينهم وبين بنى زيرى الصنهاجيين فى أفريقيا ، وإذا كان الفاطميون قد رأوا أنفسهم عاجزين عن السيطرة على تلك الدولة التى كانوا هم أول من استخلفوا أمراءها على أفريقية ، فما الظن بفرعها الأندلسى الصغير الذى بعدت به الشقة ونأى المزار ؟ .

---

(١) عن دولة بنى زيرى الصنهاجيين فى الأندلس ، انظر مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك هذه الدولة المخلوع على أيدى المرابطين ، وهى المسماة « كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة » ، بتحقيق ليفى بروفنسال ، فى مجموعة « ذخائر العرب » رقم ١٨ ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٥ ، والدراسة التى قام بها هادى روجيه ادريس تحت عنوان « الزيريون الأندلسيون»، Hady Roger Idris Les Zirides d'Eapagne, فى مجلة «الأندلس» ، مدريد — غرناطة ، المجلد التاسع والعشرون ، سنة ١٩٦٤ ، ص ٣٩ — ١٤٥ .

وعلاقات بنى زيرى الأفريقيين بالفاطميين فى مصر تقتضى منا مزيداً من التفصيل ، فقد كانت أفريقية هى حلقة الصلة الطبيعية بين مصر والأندلس : لقد كان المعز لدين الله الفاطمى حينما استخلف فى أفريقية قائده يوسف بلقين بن زيرى بن مناد الصنهاجى — واثقاً من أن الزيريين لابد أن ينتهى بهم الأمر إلى الاستقلال والانفصال عن مصر فى عاجل أو آجل[1] . ولكنه استطاع على كل حال طوال مدة خلافته — وكانت الدولة آنذاك فى عنفوان قوتها وفحولتها — أن يحتفظ بطاعة أفريقية وما وراءها إلى المغرب الأقصى . وفى هذا يقول الخطيب « : وملك بلاد المغرب بأسرها إلى البحر المحيط وبرقة والاسكندرية ، ثم مصر والشام والحجاز على يد قائده الكاتب جوهر ، فكان أمره ينفذ من أقصى الشام والحجاز إلى سوس الأقصى[2] » :

على أن بوادر تلك النزعة الانفصالية بدأت عند بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية منذ أيام الخليفة العزيز بالله بن المعز (٣٦٥ — ٩٧٥/٣٨٦ — ٩٩٦م.) ، ثم اتسعت شقة الخلاف فى أيام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٩٩٦/٤١١— ١٠٢٠) ، ولا سيما بعد أن ولى عرش أفريقية المعز بن باديس فى سنة ٤٠٦ (١٠١٦) ، وقد بدا ذلك منذ السنة الأولى لحكم هذا الأمير ، إذ يروى لنا ابن عذارى فى أحداث هذه السنة أنه كان بمدينة القيروان « قوم يتستّرون بمذهب الشيعة من شرار الأمة ، فانصرفت العامة إليهم من فورهم ، فقتلوا

---

(١) انظر الدكتور مختار العبادى : « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ، سنة ١٩٥٧ ص ٢١٠ — ٢١١ حيث يورد خبراً طريفاً يدل على تنبؤ المعز باستقلال إفريقية ، جاء فى « خطط » المقريزى ٢/١٦٥-١٦٦ ، وفى « اتعاظ الحنفا » للمؤلف نفسه ، بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الأول ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٦٠ .

منهم خلقاً رجالا ونساء، وانبسطت أيدى العـامة على الشيعة وانتهبت دورهم وامواهـم »[١] :

ولم تتخذ الدولة أى إجراء لمنع مثل هذه الأعمال التى كانت من مظاهر الثورة الشعبية التى اندلعت فى أفريقية ضد الفاطميين ، وعلى الرغم من ذلك فان الحاكم بأمر الله مع مانعرفه من قسوته وسرعة غضبه، لم يسعه الا التغاضى عن تلك الأحداث ومداراة الأمير الصنهاجى، الذى كانت سنه حينئذ لاتجاوز الثامنة، فابن عذارى يحدثنا فى أخبار السنة التالية (٤٠٧هـ/١٠١٧م) أنه وصل فيها إلى المعزبن باديس سجـل من الحاكم، يخاطبه فيه بشرف الدولة[٢] ، وتتكرر حوادث الاعتداء على الشيعة فى السنوات التالية[٣] ، ومع ذلك لايرى الحاكم بأمرالله بأساً فى إلطاف المعز بن باديس بخلعـه وهداياه وألقاب تشريفه[٤] : ثم يتوفى الحاكم ويخلفه الظاهر (٤١١ — ٤٢٧هـ/١٠٢٠ — ١٠٣٥م)، فيسارع بإرسال سفير له إلى المعز بن باديس بالخلع والهدايا، على الرغم من أن العامة لاتكف عن التنكيل بكل من يبدر منه اعتناق المذهب الفاطمى[٥] .

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نأتى بمزيد من الشواهد على هذه الظاهرة الغريبة التى تتمثل فى سياسة التراخى والمصانعة والمداراة من جانب خلفاء مصر الفاطميين، وسياسة التشـدد والاستفزاز من جانب « عمالهم » سلاطين أفريقية،

---

(١) البيان المغرب ٣٨٧/١ . ومجرد الإشارة إلى « التستر بمذهب الشيعة » فى دولة تدين رسمياً بالتبعية لمصر الفاطمية أمر يستوقف النظر ، فهو وحده دليل على أن هذه التبعية قد أصبحت اسمية ظاهـرية .

(٢) البيان المغرب ١ / ٣٨٨ .

(٣) نفس المرجع ١ / ٣٨٨ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع ١ / ٣٩٢ .

ولكن تأمل حياة شعب هذه البلاد وكيانها الديني يقنعنا بأن تلك الظاهرة ليست على مايظن من الغرابة ، فقد كان موقف بني زيرى الصنهاجي فى الحقيقة انقياداً لشعور شعبي عميق ضد المذهب الفاطمي : وهو شعور نجد عشرات الأمثلة عليه فى كتب مثل « رياض النفوس » للمالكي وغيره من مراجع ، ويجمل الدكتور حسين مؤنس شرح هذه الظاهرة بقوله : « . . بل إن الحاكم الذى يتشكك الناس فى مالكيته أو سنيته على الأقل — كان يعتبر (فى أفريقية) طاغية يحل للناس الوثوب به وخلع سلطانه ، فان كان شيعيا فهو مشرك و « أمير مشركين » لابد من قتاله : ولقد انضم علماء القيروان إلى أبى يزيد مخلد بن كيداد وآزروه وحاربوا فى صفوفه على رغم مساوئه ونقائصه لمجرد أنه كان سنيا ، وعارضوا القائم العبيدى على رغم حسن سياسته وجاهروه بالعداء لمجرد أنه كان شيعيا[1] » .

ومع كل هذا فقد أبقى المعز بن باديس سياسة منه أو من مدبرى دولته ، على ذلك الخيط الواهى الذى كان يربطه بالخلافة الفاطمية ، ولم يفكر فى قطع الخطبة للعبيديين بصفة رسمية واستبدال دعوتهم بدعوة العباسيين إلا بعد مرور قرابة أربعين سـنة على ولايته الملك ، على الأرجح فى سنة ٤٤٣ (١٠٥١) فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى[2] (حكم بين سنتى ٤٢٧ و٤٨٧ هـ/١٠٣٥–١٠٩٤م).

---

(١) مقدمة رياض النفوس للمالكى بتحقيق الدكتور مؤنس ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢٣-٢٤م .

(٢) أختلف المؤرخون حول تحديد هذا التاريخ . انظر مناقشة الدكتور مختار العبادى للآراء المتعارضة فى ذلك فى مقاله « سياسية الفاطميين » ص ٢١٩ حاشية ٣ . وفى رأيى أن هذا الخلاف أنما هو مظهر للتدرج البطىء الذى سلكته سياسـة الزيريين إزاء الفاطميين حتى انتهى الأمر بالقطيعة النهائية التى تمت فى سـنة ٤٤٣ بشهادة المقريزى ، كما انتهى إلى ذلك صاحب المقال . وانظر الوثيقة التى ألحقت بالمقال ، وهى من « اتعاظ الحنفا » مخطوط سراى أحمد الثالث باستامبول .

ولكن المعز بن باديس لم يحسن على مايبدو تدبر عواقب هذا التمرد الصريح والقطيعة الكاملة بينه وبين الخلافة الفاطمية ، فقد عرف المستنصر ووزيره أبو محمد اليازورى كيف يوقعان بالمعز انتقاماً رهيباً ، فقد أطلقا على أفريقية سيل قبائل البـــدو العربية من هلال وسليم وزغبة ورياح ، ممن كانوا يسكنون مصر ، وأغروهم بالزحف على القيروان على أن يكون لهم مايضعوا أيديهم عليه من تلك البـــلاد ، وأقبلت تلك القبـــائل على أفريقية كالجـــراد المنتشر ، فخربوا القيروان وأتوا على كل عمران فى أفريقية . صحيح أنهم لم يقضوا على الدولة الزيرية — ولا كان ذلك من أهـــدافهم — ولكنهم أوهنوها وحصروا سلطان المعز بن باديس فى منطقة ساحلية ضيقة تحيط بعاصمته المهدية . وما زال الوهن يستشرى فى دولة المعز وأبنائه من بعده حتى استولى على بقيتها الموحدون بعد ذلك بنحو قرن من الزمان فى سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) .

هذه الأحداث الواقعة فى أفريقية هى التى تفسر لنا كيف أحجم معظم ملوك الطوائف حتى من كان منهم من أصحاب العصبيات البربرية أو النزعات الشيعية عن الخطبة للفاطميين فى مصر ، فقد رأى هؤلاء أن قبضة العبيديين قـــد تراخت عن أفريقية ، وهى موطن خلافتهم ومهـــد دولتهم ، وشهدوا كيف كان أمراء الصنهاجيين يمضون فى تحـــدى الفاطميين واســـتفزازهم ، دون أن يستطيع هؤلاء إزاءهم الا المصانعة والمهادنة ، فـــا الذى تعود به من الخير مثل تلك الدعوة الفاطمية على منابر الأندلس لأمراء الطوائف ؟ .

ثم إن تلك النزعات الاستقلالية الانفصالية كانت على مايبدو هى سنة العصر فى القـــرن الخامس الهجرى فى أكثر أنحاء الدولة الإســـلامية ، شرقها وغربها ؛ ومن هنا بدأ انهيار فكرة « الإمامة » واستبدالها بفكرة « الملك » . وانتقلت هذه العدوى إلى الأندلس بعد أن ظل الأندلس قرابة ثلاثة قرون يدينون لإمامة

بنى أمية بما يشبه التقديس ، بل أننا نجد هذا الرأى يعبر عنه تعبيراً صارخاً فى كلمة ألقاها اسماعيل بن ذى النون المتغلب على طليطلة من ملوك الطوائف ، حيث يقول بعد أن سب المروانيين والعلويين على السواء : « ... والفخار باطل ، أحقهم بالملك من استقل به : والله ماأولى غير نفسى ، ولا أقوم إلا بسلطانى[1] » .

وقد كان هذا تفكير كل ملوك الطوائف فى الأندلس وإن لم يصرح به جميعهم على هذا النحو من الخشونة والقحة ، وذلك لأن الشعب الأندلسى كان لايزال متشبثاً بفكرة « الإمامة » حريصاً عليها ، ممـــا دفع هؤلاء الملوك إلى المداراة والبحث دائماً عن خليفة يخطبون باسمه ، حتى ولو كانت خطبة وهمية من كل معنى حقيقى .

ولنا أن نتصور حيرة الشعب الأندلسى وتخبطه بعد يأسه من إحياء الدولة المروانية بعد محاولات كثيرة انتهت إلى الفشل ، وتحطمت على أنانيات أولئك الأمراء وتكالبهم على السلطة . أما الخلافة العباسية التى كان من الممكن أن تتجدد لها الدعوة فى الأندلس ، فقـــد كانت بدورها ممزقة واهنة ، فضلا عن أنها كانت تفصل بينهـــا وبين الأندلس شـــقة بعيدة ، وكان الفاطميون يقفون فى منتصف الطريق حائلا بين كل صلة بين الجانبين . وأما الخلافة الفاطمية فإننا نظن أن من أهم العوامل الصارفة عن الخطبة لها هو الكراهية المتأصلة فى نفوس الأندلسيين المتمسكين بسنيتهم لكل دعوة شيعية أو فاطمية ، فقد كان التكوين الروحى والمذهبى لأهل الأندلس من هذه الناحية مماثلا لتكوين شعب أفريقية والمغرب ، ولسنا نبعد إذا قلنا ومصر نفسها ، بل أن الأندلسيين كانوا أكثر

---

(١) راجع القصة فى ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ١ / ١١١ — ١١٢ .

تمسكاً بمذهب أهل السنة ولا سيا بمذهب الإمام مالك من الأفريقيين. ولهذا فإننا لانكاد نعـــرف ملكاً من ملوك الطوائف يجاهر بالدعوة للدولة الفاطمية على نحو صريح :

* * *

ولكن لكل قاعدة شـــذوذ أومايوشك أن يكون ، وكل ماذكرناه لم يمنع وجود محاولة جريئة هي الوحيدة من نوعها على مانعرف ، قام بها أحد ملوك الطوائف لإعلان هـــذه الدعوة للفاطميين فى مصر . ونعنى به إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى أمير دانية والجزر الشرقية (جزر البليار) :

ونقول أنها محاولة جريئة ، إذ أنها صدرت عن أمير كان ينتمى وأبوه إلى طائفة الصقالبة الذين انحازوا إلى شرق الأندلس من موالى العامريين ، بينما لم يجرؤ على التفكير فى تلك الدعوة من هو أولى منـــه بها مثل الحموديين العلويين ممن كانت تربطهم صلة النسب بالفاطميين ، ولا الزيريين ملوك غرناطة ممن تصلهم ماتة القرابة بملوك أفريقية الصنهاجيين موالى الخلفاء الفواطم :

ولم تحدثنا المراجع التاريخية ،عن هـــذه المحاولة ، ولكن اعتمادنا فى إثباتهـــا يقوم على عدة وثائق رسمية وجه بها على بن مجاهد المذكور إلى الخليفة الفاطمى المستنصر وإلى وزيره وإلى المعز بن باديس الصنهاجى أمير أفريقية . وقد احتفظ لنا بهذه الرسائل المؤلف الأندلسى ابن بسام الشنترينى (ت٥٤٢هـ/١١٤٧–١١٤٨م) فى القسم الثالث الذى لايزال مخطوطاً من كتابه «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» :

ولكن كيف ولم ، كان على بن مجاهد هو الأمير الوحيد الذى هم بالخطبة للفاطميين ، إن لم يدع لهم فعلا من بين جميع ملوك الطوائف .

الحق أن هذه مسألة جديرة بنظرة فاحصة متعمقة ، وهى تقتضى منا أن نتأمل السياسة الداخلية والخارجية التى انتهجها مجاهد وابنه على خلال حكمهما الطويل لامارة دانية والجزر الشرقية (بين سنتى ٤٠٠و٤٦٨هـ/١٠٠٩ —١٠٧٦م)[١]

وأول ما نلاحظه هو أن مجاهـــداً كان من أول أمراء الطوائف اســتقلالا بأعمالهم منذ انفجار الفتنة فى قرطبة ســنة٣٩٩هـ(١٠٠٨م) ،فهولم يضع وقته ولا جهوده فى ذلك الصراع فى انتظار الدعوة لمن يظفر بالخلافة ، ولاشك فى أنه أدرك ببعد نظره ونفاذ حكمه أن قضية الخلافة الأموية قد أصبحت قضية خاسرة ، فلم يعن نفسه بها ، بل انحاز منذ البدء إلى عمله فى دانية ليوطد دعائم ملكه وينظم دولته محاولا الابتعاد بقدر الامكان عن الصراع المرير الذى يدور فى الأندلس .

وتبدو هذه النزعة « الانعزالية » فى أنه لم يشترك فى المحاولات التى قام بهـــا الحزب الأندلسى وبعض الموالى العامرين لاعادة الخلافة الأموية[٢] وسرعان مابدأ يعمل لحساب نفسه ، فاختار رجلا من البيت الأموى ، إلا أنه كان شخصاً مغموراً لم تعرف له سابقة ولا كانت أسرته من أسر الملك — فهو لم يكن من البيت المروانى أصلا — وهو الفقيه أبو عبد الرحمن عبدالله بن الوليد المعيطى ، وكان من أشراف

---

(١) عن دولة مجاهد العامرى وابنه على فى دانية وجزر البليار ، انظر الدراسة العامة التى قام بها البارو كامبانير أى فورتس : « تخطيط تاريخى للحكم الإسلامى فى جزر البليار » ، بالمـــا سنة ١٨٨٨ وهى دراسة على قدم العهد بها ما زالت صالحة ، ولم تفقد قيمتها بعد .

Alvaro Campaner y Fuertes : Bosquejo de la qominaciòn islamita en las Islas Beleares, Palma de Mallorca, 1888.

وكتاب روكى تشاباس : تاريخ مدينة دانية ، دانية ١٨٧٤. Roque Chabàs: Hiàtoria de la ciudad de Denia, Denia 1874.

وكذلك نفس المؤلف : مجاهد بن يوسف وابنه على Mochehid hijo deYasuf y Ali hijo de Mochehid, Zaragoza, 1904.

مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا ، مدريد سنة ١٩٥٣ ، ص ٢١ — ٢٦ ، وأخيراً الدراســة الممتعة التى كتبتها المستشرقة الإيطالية كليليا سارنيللى تشيركوا Clelia Sernelli Cerqua بعنوان « مجاهد العامرى قائد الأسطول العربى فى غرب البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى » القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر ابن خلدون : العبر ٤ /١٦٤ ، كليليا سارنيللى : مجاهد ص ١٤٧ .

قرطبة اللاجئين إلى دانية بعد الفتنة، فنصبه مجاهد خليفة ونقش اسمه على سكته فى سنه ٤٠٥ (١٠١٤) ، ولو أنه اضطر بعد ذلك إلى خلع هـذا « الخليفة » ونفيه حينما تجاوزحدوده وحاول الانفراد بالسلطة أثناء غياب مجاهد فى غزوة سردانية ، وكان مجاهد أول ملك من ملوك الطوائف يستقل بسكة خاصة[1].

وكان مجاهد متواضعاً ، فلم يصطنع من ألقاب السلطان إلا « الموفق » و « ذا الوزارتين »[2] واستولى مجاهد فى سنه ٤٠٥ (١٠١٤) على الجزر الشرقية وضمها إلى ملكه . ومنذ هذا التاريخ اتجه مجاهد ببصره إلى خارج أرض الأندلس ولم يقحم نفسه فى النزاع الداخلى بين ملوك الطوائف الآخرين، إلا بمقدار مايعينه على الاحتفاظ برقعة مملكته، وبهذا يمكن أن نقول إن مجاهدا ربما كان الأمير الأندلسى الوحيد الذى كانت له سياسة خارجية فيما وراء البحار ، وزاده تطلعه هذا عزوفاً عن شئون الأندلس الداخلية حتى فيما كان يمكن أن يعنى توسيع مملكته على حساب ملوك الطوائف الآخرين وتصور هذه السياسة الانعزالية قصة يرويها الأمير عبد الله بن بلقين الزيرى فى مذكراته عند الحديث عن الخلاف الذى نشب بين المنصور عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية وعامله على المرية ابن صمادح ، وكان المنصور قد ولاه هذه المدينة بعد وفاة صاحبها زهير الصقلبى ، ولكن ابن صمادح غدر به واستولى على المدينة لنفسه، متحالفاً مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكان مجاهد حليفا للمنصور بحكم كونه من موالى العامريين، يقول الأمير عبد الله : « فلما هم ابن أبى عامر بالرجوع عن الرقة يريد المرية تأخر عنه مجاهد، وتبين للمنصور قعوده عنه

---

(١) انظر بريتو بيبس : ملوك الطوائف Prieto Vives: Les reyes ds taifas مدريد سنة ١٩٢٥ ص ٣٥ ، هذا والسكة المذكورة هى المنسوبة إلى « الوطة » (Elota ?) راجع حول الخلاف فى تأويل هذا الاسم كليليا سارنيللى : مجاهد ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ، حاشية ٣ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، بتحقيق ليفى بروفنسال، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢١٨ .

وخذلانه إياه، وسأله عن ذلك، فقال مجاهد مخاطباً له ولأعلام قوادة: ياقوم، إن كنتم لاتعرفون البربر ولا جربتم حروبهم فأنا عليم بها. فإياكم أن يكون بواركم على أيديهم، وأنتم ستعلمون أن فتنة عشرين سنة خير من ملاقاة ساعة واحدة فإن فيها تتلف الدول، وينتقل الملك، ويستأصل الجمع. فعليكم بالتأنى: فقال له ابن أبى عامر: جبنت. أرجع إلى دانية ولا تفسد على الجيش»[١].

والحق أن مجاهداً لم يكن من الجبن فى شئ، وفى غزواته البحرية الكثيرة التى أبدى فيها من الاستبسال والاقدام مايكذب هذا الاتهام، ولكنه كان رجلا حذراً يعمل الروية والتأنى، ويقدر لرجله قبل الخطو موضعها، وهو على الجملة كان عازفا عن الاشتراك فى كل هذه الأحداث، وكان يؤثر أن يوجه اهتمامه إلى آفاق بعيدة عن هذا الجو السياسى الموبوء فى الأندلس.

وقد بدأ هذا الاهتمام فى أجلى صوره فى تلك الحملة الشهيرة التى دار بها اسم مجاهد فى التاريخ، ونعنى بها حملته على جزيرة سردانية فى سنة ٤٠٦ (سبتمبر ١٠١٥)، وذلك بعد أن آنشأ فى دانية وموانى الجزر الشرقية أسطولا من أقوى ماعرفه البحر الأبيض المتوسط فى العصور الوسطى[٢].

وعلى الرغم من فشل هذه الحملة فإن مجاهداً ظل دائماً متجهاً بنظره إلى البحر، وتكررت حملاته مغيرة على بعض موانى أوربا المسيحية مثل بيزا وبرشلونة التى أغار عليها فى سنة ٤٠٩ (١٠١٨)، ولو أن هذه الحملة لم تكن أسعد حظاً من حملة سردانية[٣]. ومهما يكن من أمر فإن مجاهداً قد أصبح قوه بحرية إسلامية فى غرب حوض البحر المتوسط يحسب لها الجميع كل

---

(١) التبيان، ص ٤٤ — ٤٥.

(٢) استوفت بحث هذه الحملة كليليا سارنيللى فى دراستها عن مجاهد ص ١٩٣ — ٢٠٩ والمرجع المذكور هناك.

(٣) انظر كليليا سارنيللى: مجاهد ص ١٦٨ — ١٦٩.

حساب ، ولنذكر أن الدولة الفاطمية منذ أواخر القرن العاشر كانت كذلك قد تحولت إلى قوة بحرية هائلة ، وكانت فى أوائل القرن التالى لاتزال تمد سلطانها على معظم شواطئ الشمال الإفريقى، فضلا عن جزر صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا . صحيح أن ولاية أفريقية (تونس) كانت قد أصبحت مستقلة بأمورها فعلا، ولكنها كانت لاتزال من الناحية النظرية دائرة فى فلك الفاطميين ، ثم ان أفريقية بدورها كانت قد تحولت ولاسيا فى ظل المعز ابن باديس إلى قوة بحرية لها اعتبار كبير[1] وكانت تنازع المسلمين فى السيطرة على البحر الأبيض الغربى إمارات مسيحية ناشئة ولكنها سرعان ما اشتدت قوتها البحرية ، وأهم هذه الامارات جمهوريتا بيزا وجنوة اللتان كانتا تتنافسان فى السيطرة على المياه المسيحية . وفى سنة ٤٠٧ (١٠١٦) استطاع البابا بندتو الثامن BenedettoVIII عقد محالفة بين بيزا وجنوة توقفت بها العداوة بين الجمهوريتين ، وكان لهذا التحالف طابع صليبى ، إذ أراد البابا أن يوجه الدولتين إلى حرب المسلمين واستخلاص السيادة على البحر التيرانى من أيديهم[2] .

ولعل هذا هو مادفع بمجاهد إلى الاتجاه نحو الفاطميين فى مصر وأفريقية ، إذ يبدو أنه أراد أن يقيم نوعاً من التحالف البحرى بين الدول الاسلامية فى البحر الأبيض من أجل تكوين قوة رادعة للدول البحرية المسيحية الناشئة التى سرعان ماأصبحت خطراً جسيما فى غرب البحر الابيض .

ولا ننس النشاط التجارى الكبير الذى ترتب على أهتمام مجاهد بموانى مملكته ولا سيا العاصمة دانية التى أصبحت فى عهده وعهد ابنه على من أزهر مدن الأندلس وأغناها ، وإذا ذكرنا أن الصدام بين مجاهد والجمهوريات

---

(١) انظر بحث الدكتور حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الابيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع سنة ١٩٥١ .

(٢) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر ص ١١٦ وكايليا سارنيلى: مجاهد ص ٢٠٢ .

البحرية المسيحية فى البحر الأبيض إنما كان يرجع إلى التنافس التجارى والاقتصادى أكثر مما يرجع إلى أسباب دينية ، فإننا نستطيع أن نقدر العوامل التى كانت تحمله على عقد أواصر التحالف مع الخلافة الفاطمية فى مصر ومع الدول البحرية الاسلامية الأخرى مثل أفريقية وصقلية :

ومن هنا نصل إلى تفهم هذا المشروع الذى وضعه مجاهد للاعتراف بالخلافة الفاطمية والخطبة لها ، ولكن ذلك لم يكن بطبيعة الحال إيماناً منه بالمذهب الفاطمى وإنما هو تحالف مصلحة ، وكان مجاهد من أكثر ساسة الأندلس واقعية ونظراً لمصالحه السياسية أو على الأحرى الاقتصادية :

وقد استطاع مجاهد بالفعل أن يستغل موقع دانية أحسن استغلال ، فجعل منها قاعدة بحرية عسكرية وتجارية من الطراز الأول ، بل يبدو أن هذا الميناء الذى ليس له اليوم إلا قيمة ضئيلة أصبح خلال القرن الحادى عشر الميلادى بفضل أهتمام مجاهد واستقرار دولته وحسن تنظيمه لحكومته من أعظم موانى الأندلس وأنشطها ، وقد أسهبت كتب الجغرافيين فى الكلام عن الازدهار التجارى العظيم الذى بلغته دانية فى عهد مجاهد وابنه على[١] .

ثم يتوفى مجاهد الموفق فى سنة ٤٣٦ (١٠٤٤ — ١٠٤٥) ويخلفه ابنه إقبال الدولة على أكبر أبنائه ، بعد أن قضى سنوات طويلة فى أسر البيزيين أثناء حملة سردانية فى سنة ٤٠٦ (١٠١٥) ، وكان حينذاك فى حوالى السادسة من عمره ، ثم أهداه البيزيون إلى حليفهم الامبراطور الألمانى هنرى الثانى ، فقضى فى الأسر ست عشرة سنة خلص بعدها وعاد إلى أبية وهو يتكلم بلسان الروم ويتزيا بزيهم ، وعرض عليه أبوه الاسلام فقبله وحسن إسلامه ، وتوسم فيه

---

(١) أنظر مادة دانية Denia فى دائرة المعارف الاسلامية بقلم زايبولد Seypold, والمراجع المذكورة فى نهاية المقال .

مخايل النجابة، فولاه عهده صارفاً الأمر عن أخيه حسن .فلما مات مجاهد ولى على مكانه ، وواصل سياسة أبيه فى تجنب التدخل فى شئون الامارات الأندلسية المجاورة الا فى أضيق الحدود الممكنة والاهتمام بالنشاط البحرى الذى ميز مملكة أبية من قبل ، على أن هناك فارقا بين الرجلين هو أنه بينما كان مجاهد محاربا كثير الغزو بأساطيله فإننا نرى عليا وادعا مسالما يصرف همه البحرى كله فى التجارة وتنمية موارده الاقتصادية ، ويبدو أن عقلية على كانت بطبيعتها عقلية رجل تجارة ومال ، إذ تتفق المراجع على إبراز هذا الجانب من شخصيته (١).

وقد اجتهد على فى تحسين علاقاته بجيرانه من ملوك الطوائف واستغل فى ذلك وسيلة الزواج السياسى بفضل بنات له كن آية فى الجمال ، فارتبط بكثير من أولئك الملوك برباط المصاهرة ، وهكذا كانت أيامه أيام دعة وسلام ، كما واصل سياسة أبيه الخارجية القائمة على تعهد مصالح بلاده التجارية والاتجاه من أجل ذلك إلى توثيق علاقاته بالخلافة الفاطمية وبمملكة افريقية الصنهاجية .

وهنا نرى كيف يذهب فى ذلك إلى أبعد مما ذهب أبوه ، فيعزم على الخطبة للخليفة الفاطمى الذى كان فى هذه الآونة معد المستنصر بالله (حكم بين ٤٢٧ و٤٨٧ هـ /١٠٣٥ — ١٠٩٤م) .ولسنا نجد فى المراجع التاريخية مايشير إلى هذا الحدث، وكل ما تردده المصادر هوما قام به إقبال الدولة من توجيهه بمركب كبير مملوء طعاما إلى بلاد مصر فى سنة الجوع العظيم فى سنة ٤٤٦ أو ٤٤٧ (١٠٥٤ —

(١) يقول ابن بسام (الذخيرة القسم الرابع ١ / ٢٠٦) أن « همته كانت فى خراج يجبيه لا فى معقل يجتبيه ، وهمه المتجر ينميه لا المفجر يحميه » ويقول ابن سعيد (المغرب بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ٢ / ٤٠١) : « وكانت همته فى التجارة وجمع الأموال . »

١٠٥٥)، فرجع اليه المركب مملوءا بالذخائر والأموال[١] . أما العلاقات السياسية بين البلدين فلم يتحدث عنها أحد من المؤرخين القدماء باستثناء اشارة عابرة وردت فى « تكملة » ابن الأبار ، والنصوص المخطوطة التى اعتمدنا عليها فى أثباتها والواردة فى « ذخيرة » ابن بسام[٢] .

وهذه النصوص هى مجموعة مقتطفات من سبع رسائل بقلم الكاتب أبى الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن أرقم النميرى الوادى آشى والكاتب أبى عامر محمد ابن سعيد التاكرنى إلى الخليفة المستنصر والى وزيره والى المعز بن باديس الصنهاجى أمير افريقية .

وينص ابن مجاهد فى الرسالة الأولى على استئذانه للمستنصر فى الدعوة له ثم يعتذر عن تقصيره فى أداء واجب الزيارة لحضرة الخليفة ويتحدث بعد ذلك عن هدية له يسوقها إلى الامام على ظهر أحد مراكبه ويرجوه أن يتفضل بقبول الهدية .

أما الرسالة الثانية فقد وجهها اقبال الدولة إلى وزير المستنصر ، وفيها يبدى كثيرا من مظاهر التواضع والتلطف بل والملق الرخيص حتى انه يسمى نفسه خادم حضرته وولى نعمته ، وهو يكرر فى هذه الرسالة ماسبق أن ذكره للخليفة من توجيهه لهدية شحن بها مركبا من عنده فضلا عن هدية أخرى إلى الوزير ، على أنه يصرح هنا باسم قائد المركب وهو أبو الحسن كوثر الذى يبدو من اسمه أنه أحد أعوانه الصقالبة .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ٢٢٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٢١-٢٢٢ ، الحلل الموشية ص ٧٢ وترجمة اويثى الاسبانية ص ٩٠ .

(٢) تنبهت الباحثة كليليا سارنيللى إلى هــذة الرسائل، بل انهــا نشرت أولاها فى كتابها عن مجاهد ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ولكنها لم تعطها أى أهمية سياسية، بل اكتفت بالقول انهــا أرسلت بمناسبة وصول هدية المستنصر ، وانظر كذلك كتاب الاستاذ محمد عبد الله عنــان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

وهو فى كلتا الرسالتين يؤكد أن باه مجاهدا كان يهم باعلان الدعوة للخلافة الفاطمية لولا أن الموت أعجاه عن ذلك :

ثم يلى ذلك رسالتان أخريان إلى الخليفة ووزيره كذلك ، وفيهما يكرر ماسبق أن قاله فى الرسالتين الأوليين ، ونراه فى الرابعة يفتخر بأنه أول من يداخل الخلافة الفاطمية فى الأندلس ويعلن الطاعة لها « فكنت أبا عذرتها ، وفاتق أكمّها ، وفاتح مرتجها ، وسالك منهجها ، فبرزت بين أبنــاء مغربى بمداخلتها ، وعرض طاعتى وخدمتى عليها » ، وهى اشارة عظيمة القيمة ، بل أنه يفهم منها أن على بن مجاهد قد دعا بالفعل للفاطميين ، وهو حكم لاتعيننا المصادر الأخرى على القطع به ، ولعل الأسلم هو التوقف فيه ، فربما ظهر بعد ذلك من الوثائق مايسمح بتبين جلية أمره :

وفى الرسالة الخامسة يعلن على بن مجاهد أنه وجه من قبله سفيراً من كبار المقربين اليه من رجاله هو من يدعوه « أبا مروان بن نجيه (؟) » إلى مصر لكى يوثق عقد طاعته للخلافة ، ويفهم من بعض عبارات الرسالة أنه فى انتظار التقليد والتشريف من قبل المستنصر :

والرسالة السادسة موجهة على مايبدو إلى وزير الخليفة وفيها يكرر فى الجملة ماسبق أن ذكره فى الرسائل السابقة .

وتلى ذلك رسالتان أخريان وجهها على بن مجاهد إلى المعز بن باديس صاحب أفريقية ، وهما بقلم أبى الأصبغ بن أرقم كذلك وفيها يتزلف إلى الأمير الأفريقى ويعلن طاعته للخلافة الفاطمية التى كان المعز بن باديس ممثلها والحاكم باسمها . كذلك يعرفه بأحوال الأندلس ويشكو من تفرق جيرانه ورفاقة ملوك الطوائف وتخاذلهم ومن تمالؤ النصارى على الأندلس الاسلامية وتنكيلهم بإماراتها وانتقاصهم من أطرافها .

والرسالة الأخيرة موجهة إلى المعز بن باديس أيضا ، ولكن كاتبها هـو أبو عامر محمد بن سعيد التاكرنى ، وفيها يعلن عن عزمه على الخطبة للخلافة الفاطمية ، ويعتذر عن تأخره فى إتمام ذلك .

والغريب هو أن هاتين الرسالتين الأخيرتين على الرغم من اختلاف كاتبيهما على درجة كبيرة من التشابه الذى يصل أحياناً إلى التطابق اللفظى ، فهل نقل احد الكاتبين فقرات من رسالة صاحبه ؟ الواقع أن ذلك لو صح لكان شيئاً غريباً حقاً من كاتبين جليلين لكل منهما مكانة مرموقة وصيت طائر :

ونعرض أخيراً لمشكلة التاريخ الذى كتبت فيه تلك الرسائل ، أما الموجهة إلى الخليفة المستنصر ووزيره فلدينا نص ساقه ابن الأبار القضاعى فى ترجمة هذه الرسائل إبن أرقم الوادى آشى يقول فيه :

« وله مجموع شبه الرسالة سماه « عقاب المتسور » وقع إلى بخطه ، وخاطب به أبابكر بن صاحب الأحباس منبياً عن علمه وفهمه ، برده على معترضه أبى الحسن إبن سيدة فى ألفاظ من رسالته إلى العبيدى صاحب مصر ووزيره عن ابن مجاهد فى سنة ٤٥٢ » (١) .

ولسنا نعرف ما إذا كانت هذه السنة المذكورة هى التى وجهت فيها الرسائل إلى المستنصر ووزيره ، أم هى سنة تأليف تلك الرسالة التى يرد بها ابن أرقم على اعتراضات ابن سيدة ، فنص ابن الأبار غامض يحتمل الرأيين ، ولو صح أن التاريخ المذكور هو سنة كتابة الرسائل لكان ذلك أمراً غريبا ، فمعناه أن قيام على بن مجاهد بدعوة الفاطميين أو عزمه على ذلك على الأقل قد جاء بعد أن خلع المعز بن باديس طاعة المستنصر ، ودعا للخلافة العباسية بنحو عشر سنوات ، وبعد أن أوقع الفاطميون انتقامهم الرهيب بالأمير الصنهاجى ، مطلقين عليه

---

(١) التكلة ، ترجمة رقم ١٧٥٥ ص ٦٢٢ .

ذؤبان العرب من زغبة ورياح وهلال وسليم الذين أحالوا القيروان وأفريقية إلى خراب بلقع فى سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٧ م) ، فما الذى يدعو على بن مجاهد إلى اصطناع الدعوة الفاطمية، فى الوقت الذى أصبح فيه مواليها يعملون على الخروج منها ؟ أتراه أراد أن ينفرد دون جميع ملوك الغرب الإسلامى بكونه صنيعة الفاطميين الوحيد ؟ أم أن اهتمامه باتصال العلاقات التجارية بينه وبين مصر وغيرها من بلاد الشرق الخاضعة للفاطميين — وهى علاقات كان يرجع إليها إلى حد كبير رخاء مملكته واستقرارها — هو الذى حمله على اتخاذ هذا الموقف ؟ ربما كان لكل هذه العوامل نصيب فى ذلك القرار .

فإذا انتقلنا إلى رسالتى على بن مجاهد إلى المعز بن باديس فإننا نرى فيها مايدل على أن الأمير الصنهاجى كان لايزال فى وقت توجيهها متمسكاً بطاعة الفاطميين ، ولهذا فعلينا أن نردهما إلى تاريخ سابق لسنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) وهى التى يرجح فيها قطع الخطبة للفاطميين فى أفريقية والاعلان بالدعوة العباسية .

أما الكاتبان اللذان توليا إنشاء تلك الرسائل ، فأولهما هو أبو الاصبغ عبد العزيز بن أرقم النميرى الوادى آشى ، تتلمذ فى قرطبة على أبى القاسم بن الأفليلى وبغرناطة على أبى الفتوح الجرجانى، وأقام بدانية سنوات فى كنف إقبال الدولة على بن مجاهد، ثم التحق بخدمة المعتصم محمد بن معن بن صمادح ملك المرية ، وكان من وجوه رجاله ، ووجهه المعتصم رسولا إلى المعتمد بن عباد بعد سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٨م). وقد ذكر ابن الأبار أنه كان له تآليف منها « الأنوار فى ضروب من الأشعار» ثم اختصر هذا الكتاب وسماه « الأحداق » ، وكذلك الرسالة التى رد بها على أعتراضات أبى الحسن بن سيدة المرسى عليه فى مواضع من رسائله إلى المستنصر ووزيره ، وهى التى جعل عنوانها « عقاب المتسور» . وقد أتى ابن بسام من هذه الرسالة بمقتطفات كثيرة تدل على سعة

علمه باللغة ، ولو أنه بغير شك لايصل إلى مرتبة اللغوى الكبير ابن سيدة صاحب « المخصص » و « المحكم » . وتوفى ابن أرقم فى أمارة المعتمد بن عباد(٤٦١ — ٤٨٤ / ١٠٦٩ — ١٠٩١) [١] :

وأما الكاتب الثانى فهو أبو عامر محمد بن سعيد التاكرنى الذى عمل فى بلاط على بن مجاهد وقتاً قصيراً على ما يبدو ، ثم انتقل إلى بلنسية حيث التحق بخدمة عبد العزيز المؤتمن بن عبد الرحمن بن المنصور العامرى ، وتوفى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠م) [٢] .

(١) ابن الآبار : تكملة ، ترجمة ١٧٣٥ ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث مخطوطة جايانجوس فى مكتبة المجمع التاريخى الملكى بمدريد ورقة ٦٥ ب وما بعدها ، ومخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ورقة ٤٨ أو ما بعدها .

(٢) الحميدى : جذوة رقم ٦٨ ، ابن سعيد : المغرب ١/٣٣٢ ، ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٥٣ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١٩٥ ، ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث المخطوط .

الحياة الأدبية فى مدينة القاهرة

مصطفى السقا

الحياة الأدبية في مدينة القاهرة

مصطفى السقا

١ — فى الدولة الفاطمية

(من سنة ٣٥٨ — ٥٦٥هـ) — (٩٠٨ — ١١٦٩م)

٢ — فى الدولة الأيوبية

(من سنة ٦٤٨ — ٧٨٣هـ) — (١٢٥٠ — ١٣٨٢م)

٣ — فى دولتى المماليك والأتراك والجراكسة

(من سنة ٧٨٧ — ٩٢٢هـ) — (١٣٨٢ — ١٥٧١م)

مقدمة :

فى هذا اليوم السعيد : . الذى اجتمع فيه أئمة أهل العلم والفضل من انحاء العالم الشرقى والغربى . . : يطيب لى وأنا عربى مصرى قاهرى — أن أساهم فى توجيه التحية إلى مدينة « القاهرة » أمنا العربية الكبرى العظيمة ، التى نشأت أنا وكثير من الأبناء أمثالى على أرضها ، وغذتنا بجوها ومائها وخيراتها ، من كل ما نمى أجسامنا وأمدتنا بكل ماينمى عقولنا وأفكارنا وأذواقنا . . ويصحح أخلاقنا وسلوكنا بالتعلم فى مدارسها ومعاهدها وجامعاتها . . . وفتحت أمامنا بعد ذلك أبواب العمل الشريف ، فولجناها وبلغنا من كل ذلك ماكنا نتمناه

ويتمناه المحبون لنا : . بل نلنا فوق ما كنا نتمنى لأنفسنا . وكأنما أحس ابن الرومى باحساسنا نحوها : : اذ يقول :

ولى وطن آليت ألا أبيعــــه　　　وألا أرى غيرى له الدهــر مالكا
وحبب أوطــان الرجال اليهم　　　مآرب قضــاها الشباب هنا لــكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم　　　عهود الصــبا فيها فحنوا لــذلكا

وكما قال رفاع بن قيس الأسدى :

بلاد بها حــل الشباب تمــائمى　　　وأول أرض مس جلدى ترابهــا

١ — فى الدولة الفاطمية

من سنة ٣٥٨ — ٥٦٥ هـ — ٩٦٩ — ١١٦٩ م

قامت دولة « الفاطميين » ، مؤسسى مدينة « القاهرة » أول ماقامت فى بلاد القيروان ، بجوار تونس ، واتخذوا لها قاعدة مدينة « المهدية » التى أنشأها أول خلفائهم فيها : « عبيد الله » الملقب بالمهدى (سنة ٢٩٦هـ — ٩٠٨م) ، وهو الذى وضع فيها أسس الدعوة الفاطمية بعيدا عن اعدائهم السياسين من بنى العباس وعن « بغداد » قاعدة ملكهم. ثم خلفه من بعده ابنه القائم « أبوالقاسم محمد »، ثم تلاه ابنه « المنصور أبوالطاهر اسماعيل » . . . ثم تلاه ابنه « المعز لدين الله ، أبو تميم معد » ، وهو الرابع منهم فى « المهدية » .

ولما رأى « المعز » الخلفاء العباسين بالمشرق يزدادون فى كل يوم ضعفا بخروج عمالهم عليهم فى معظم الأقطار التى يحكمونها ، وباستبــداد مواليهم من الترك الذين جلبهم المعتصم . : والديلم الذين خلفوهم . واستبدوا بشئون الدولة — قوى أمل العلويين اصحاب المهدية فى الاستيلاء على الدولة العباسية ،وانتزاع الخلافة من أيديهم ، فجهز المعز حملتين للاستيلاء على الاسكندرية . . فلم توفقا الى فتحها.ثم جهز جيشا كبيرا أمده بكل مايحتاج اليه من الرجال والأموال والسلاح بقيادة مولاه « جوهر الصقلى » ففتح جوهرا الاسكندرية . . ثم بنى

مدينة « القاهرة » لتكون قاعدة للمملكة الفاطمية ، فى مكان متوسط بين « المهدية وبغداد » .

ويتبين من هذا بوضوح أن همة الفاطميين إنما كانت الزحف من مصر إلى « بغداد » ، لتحويل الخلافة العامة من يد العباسيين إلى آل البيت من الفاطميين الذين كانوا يعتقدون بحق أن خلافة النبى صلى الله عليه وسلم فى رياسة المسلمين كانت حقا لجدهم على بن أبى طالب ، وأن الشيخين أبا بكر الصديق وعمر ابن الخطاب ، نحياه عنها ، واختصاها نفسيهما . . وأنهم لذلك يريدون الزحف على « بغداد » ، للاجهاز على العباسيين الضعفاء . . ليستخلصوا من أيديهم حقوقهم المسلوبة .

وكان الفاطميون فى « المهدية » يرسلون الرسل متنكرين ليتحسسوا لهم أخبار الدولة العباسية . . ويتعرفوا أحوالها : حالا بعد حال ، فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلوم والآداب والفنون . . ولذلك أعدوا لكل شئ عند العباسيين نظيرا فى بلادهم ، حتى كان لهم شعراء كشعراء أهل المشرق . : يمدحونهم ويشيدون بدولتهم الناشئة ، مثل الشاعر محمد بن هانئ الأزدى ، الذى صحب جوهرا وجيشه فى المسير إلى مصر ، ولكنه مات فى الطريق ، فلما سمع المعز بموته أسف ، وقال كلمته المشهورة : لقد كنا نريد أن نفاخر بشعره شعراء أهل الشرق . وكان ابن هانئ يتشبه بالمتنبى أكبر شعراء المشرق فى عصره . .

وأول ماظهر من حرص الفاطميين على تأسيس الحياتين العلمية والأدبية فى قاعدة ملكهم الحديثة ، مبادرة الخليفة المعز من فاطمى القاهرة إلى تأسيس « الجامع الأزهر » فى وقت تأسيس القاهرة نفسها ، فى الحى الجنوبى الشرقى منها . ومعنى الأزهر : الابيض يشوب بياضه زرقة خفيفة . وعلى هذه الطريقة

سموا الجامع الأقمر ، الذى بناه الآمر بأحكام الله . وهو فى وسط شارع أمير الجيوش البرانى ، عن يمين الذاهب إلى باب الفتوح :

وكان « الأزهر » فى نشأته الأولى مسجداً جامعا ، تمارس فيه الصلوات الخمس ، بامامة أئمة علماء الشيعة ، وبعد الصلاة كانت تعقد فيه مجالس توضح فيها أصول التشيع ، لمن لم يعرفها من طلاب العلم وغيرهم ، فإذا ظهر من بين هؤلاء الطلاب من يميل إلى الدخول فى مذهب الفاطميين ، فانه يؤخذ إلى دار « داعى الدعاة » بحارة الخرشتف[1] المسماة الآن « الخرنفش » . وفى هذه الدار جماعة من الدعاة إلى المذهب الفاطمى برياسة « داعى الدعاة » . وهو إمام المذهب . . وأكبر فقهائهم الداعين اليه .

وقد رتبت الدعوة الفاطمية فى دار « داعى الدعاة » على عشر دعوات . . كما يقول المقريزى فى كتابه الخطط ، وهى أصول أو مداخل، يلقنها الطالب مدخلا مدخلا من أفواه الدعاة . . حتى اذا انتهى من الدعوة العاشرة ، صار معدودا من رجال المذهب الفاطمى، وكلف نشر المذهب بين جماهير الناس . . على أساس ما لقيه من تلك الدعوات .

وكان للفاطميين عناية شديدة بدراسة العلوم والآداب العالية . . وقد أعد العزيز بالله بن المعز دار العلم ، وجعل فيها مكتبة جامعة . وحرص على أن يكون بها نسخة أو عدة نسخ من كل مؤلف أو مترجم حوته دار الحكمة ببغداد وكان الوراقون والنساخون يتقربون إلى الفاطميين بتقديم نسخ من نفائس الكتب التى تظهر ببغداد عند ظهورها ، فاجتمع لهم بذلك من الكتب شئ كثير جدا من النسخ المفردة المكررة ، حتى كان فى مكتبة العزيز بالله عشرون نسخة من كتاب (العين للخليل بن أحمد) وهو أول معجم عربى لغوى .مع ندرة وجوده فى كثير من الدول العربية الآن .

---

(١) الخرشنف : ما يبقى من الرماد المتلبد من وقود الحمامات .

وعنى الحاكم بأمر الله بن العزيز بالعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والجبر والفلك، وأنشأ له مرصدا بأعلى المقطم : وعمل الزيج الحاكى . وهو مشهور عند علماء الفلك :

وكان من أثر كثرة الكتب المؤلفة فى العلوم والآداب ، أن ظهر فى الفسطاط والقاهرة كثرة من الأطباء والمهندسين والمثقفين . كما ظهر كثير من الكتاب والشعراء المبرزين والمؤرخين منهم ابن قلاقس الاسكندرى الشاعر ، وابن الصيرفى الكاتب ، وعلى بن رضوان الطبيب وغيرهم كثير كطاهر بن بابشاذ من النحويين ، وخاتمة شعرائهم عمارة اليمنى ، وديوانه فى مجلدين كبيرين ».

ب — فى الدولة الأيوبية

ولما أزال صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ دولة الفاطميين . . وكان سنيا شافعى المذهب ، بدا له أن يخلص مصر والقاهرة من كل آثار الفاطميين ومذهبهم فى التشيع المنحرف عن مذهب أهل السنة ، أمر بأن يحرق جميع الكتب التى تحـــوى اصول مذهب الفاطميين وجميع كتب الفقه الشيعى وكتب الحديث المخالفة لما فى كتب السنة المجمع على تلقيها من علماء المسلمين السنيين : وجعل التصرف فى أمـــر « دار العـــلم » وما فيهـــا من الكتب لوزيره القـــاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، رئيس ديوان الإنشاء . فأمر القاضى بعزل كتب التشيع وإحراقها . واصطفى لنفسه بقية الكتب فى اللغة والأدب والتاريخ وغير ذلك، وقد أذن له صلاح الدين بأخذها .فأودعها مكتبة مدرسته الخاصة بحى الجمالية. قالوا : وقد عملت أتونات الحمامات بالقاهرة شهرا كاملا فى احراق الكتب ، حتى تخلصوا من بعضها .

وبعد أن انتهى صلاح الدين من تعقبه آثار الفاطميين . . باحراق كتب مذهبهم، شمر ليجدد معالم مذهب أهل السنة. فبدأ هو وأسرته ببناء سبع مدارس لدراسة علم الحديث الشريف ، فى صحاح الكتب : كالبخارى ومسلم ، أربع منها بحى الصاغة ، فى حارة الصالحية المجاورة لمسجد الصالح نجم الدين أيوب بالصاغة ، أمام مسجد المنصور قلاوون الصالحى . وبعضها باق حتى الآن . والثلاث الأخرى بناها بجوار مسجد الإمام محمد بن إدريس الشافعى . وكان صلاح الدين يتبعه فى مذهبه الفقهى ويحرص على نشره فى جميع بلدان مصر .

وأنشأ الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب مدرسة ثامنة . . هى دار الحديث الكاملية . الملاصقة لمدرسة السلطان برقوق . وكان يفد اليها كبار المحدثين من شتى ديار الاسلام ليحدثوا فيها . وليعلموا الطلاب قواعد التحديث ومصطلح الحديث . . وكتب السنة المعتمدة .

وبذلك صارت مصر دولة سنية . . شافعية المذهب الفقهى . . يتعبد الناس بأحكامه ، ويقضى القضاة فيها بين الخصوم (مسلمين وغير مسلمين).ومع ذلك كانت المذاهب الأخرى السنية شائعة فى الدولة . . كمذهب مالك بن أنس ومذهب أبى حنيفة . . ومذهب أحمد بن حنبل .

وأما الحياة الأدبية فى « الدولة الأيوبية » فكانت مزدهرة . على الرغم مما شغلهم من حروب الصليبيين المتلاحقة . ولم تخل القاهرة من الشعراء المبرزين مثل بهاء الدين زهير ، وجمال الدين بن مطروح ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه. وكان بها عـــدد من كتاب الدواوين من أعظمهم وأشهرهم ابن الصيرفى وابن الخلال ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم وقد انفرد ابن سناء الملك بنظم ديوانين شعريين : أحدهما يجمع القصائد التقليدية فى المديح والوصف والغزل والرثاء ، مما هو مشهور بين الأدباء والشعراء . والآخر قصره على موشحاته

التى عرف أصول قواعدها من بعض المغاربة الوافدين على مصر زمن الحروب الصليبية ، وهى نحو أربعين موشحة تضمنها ديوانه الخاص بالموشحات . وللموشحات أوزان وقواف على نظام خاص ، تلقب ألقاباً خاصة فى اصطلاح الوشاحين . وهى تنظم باللغة الفصيحة غالبا ، الا الخرجة (الأخيرة) التى تختم بها الموشحة ، فانه يشترط فى ألفاظها أن تكون « عامية مثيرة » حارة .

ولم يكن نظم الموشحات شائعاً فى مصر والشرق قبل أن ينشر ابن سناء الملك موشحاته فى ديوانه المعروض (دار الطراز) .

وقد قدم ابن سناء الملك بين يدى موشحاته مقدمة علمية فنية ، فى عدة صحائف . ضبط فيها قواعد نظم الموشحات ، فى ألفاظها ومعانيها وأغصانها وأوزانها وقوافيها . وعلى هذة المقدمة يعتمد دارسو الآداب فى فهم خصائص الموشـــحات .

وقـــد أضاف ابن سناء الملك بكتابه (دار الطراز) إلى التراث الأدبى العربى التقليدى مادة جديدة ، لها خصائصها ، وهـــو نظم الموشحات . : التى انتشرت فى دواوين الشعراء الذين جاءوا من بعده حتى الصوفية كموشحات محيي الدين بن عربى وغيره :

وهناك ظاهرة أخرى جديدة ظهرت فى مصر على يد القاضى الفاضل رئيس ديوان الإنشاء على عهد صلاح الدين . . تلك هى « الطريقة الفاضلية » التى اعتمدها رئيس ديوان الإنشاء فيما كتب من رسائل ديوانية أو منشورات باعلان حرب . أو رسائل التهنئة بالفتح والنصر .

وأساس هذه الطريقة هو اصطناع المحسنات اللفظية والمعنوية ، وخاصة التورية والسجع والتشبيه والجناس والاستخدام ونحوها من الفنون البلاغية . وقد كتب تطبيقاً على ذلك من الرسائل الديوانية مقادير تند عن الحصر .

ولايستطيع مسايرته ومحاكاته فيها الا قليل من أهل الذكاء والفصاحة : وقد تفرق كثير منها فى أيدى الناس :: بعــد موت القاضى : ووصل بعضها إلى مكتبات الجامعات بأوربا : : وإلى المتاحف العامة :: مع ماوصل اليها من نفائس مكتبة القاضى الفاضل وغيره :

والذى أعان القاضى ، ويسر له الكتابة على هــذا الأسلوب الصعب من البلاغة ، أنه كان رجلا حافظاً للغة وعلوم الدين والأشعار .. عظيم الاطلاع على تاريخ الممالك الإسلامية ، وعلى ما كتبه كبار الكتاب ، كالصاحب اسماعيل ابن عباد ، وابن العميد وغيرهما من أئمة الكتابة الديوانية فى المشرق ::

وقد عنى كتاب الإنشاء بعد عصر القاضى ، بالعمل على طريقته فى منشآتهم الديوانية ، وتوارث الناس تلك الطريقة جيلا بعــد جيل ، إلى أن جاء عصر النهضة الأخيرة فى مصر ، ووجدت المدارس الحديثــة التعليم : : . وكثرت الصحف والمجلات . . فانصرف الناس عن الطريقة الفاضلية . . إلى الطريقــة الطبيعية فى التفكير والتعبير . . لا يقصد فيها إلى الزخرف وزينة الألفاظ ... بل تقصد فيها الفكرة الواضحة مؤداة بأسلوب سهل لاتعقيد فيه. ولا التواء ، وذلك هــو المقصود بكلمة « البيان » فى الأدب العربى والبلاغة فى عمــوم لفظيهمــا :

ج — فى عهد دولتى المماليك الأتراك والجراكسة

وفى عهــد دولتى المماليك الأتراك والجراكسة ، بلغت الحياة الأدبيــة والفنية فى القاهرة أسمى ما قدر لها من رقى عمرانى ، وفنى وأدبى لثلاثة أسباب مهمــة :

الأول : أن ملك مصر لم يكن ينتقــل من واحد منهم إلى الآخر بالوراثة ، أو ولاية العهد ، أو نحــو ذلك : : وإنما كان الملك ينتقل بالقهر والقــوة ،

فمن كان منهم أشد قوة ، وأكثر ناصراً ، تقدم فبسط يده على المملكة ونحى من كانوا يتطلعون إلى أن يتولوا الملك ميراثاً ، وكانت خزائن أموال مصر ملأى بالمال : يصرفه القائم بالأمر فى مصالحه أولا ، ثم يدفع منه رواتب الجند ، والأعوان الذين ناصروه ليتولى الحكم ، وما بقى بعد ذلك ينفق منه على كبار موظفى الدولة ، وخاصة رجال القضاء ، ليحكموا فى قضاياهم ومشكلاتهم ، بما يحقق وجهة نظرهم ، وكثيراً ما اختلف القضاة مع ولى الأمر فى ذلك ، وآثروا وجهة نظر الشرع الإسلامى ، فكان الحكام يعزلونهم عن مناصبهم ، ويأتون بغيرهم :

وكان المماليك حراصاً على أن يخلدوا ذكر أنفسهم فى تاريخ مصر ، ولم يجدوا لذلك خيراً من تأسيس المدارس التى يشبه معظمها المدارس الثانوية ، وبدأ « الظاهر بيبرس البندقدارى » بفتح أبواب الأزهر جامعة للشعوب الإسلامية ، وبعد أن بقى مغلقاً نحو مائة سنة ، منذ أمر صلاح الدين الأيوبى باغلاقه ، لمنع ما كان يعقد فيه من مجالس يقوم فيها الجدل حول عقائد الشيعة الفاطمية .

ولما فتح الأزهر لدراسة العلوم اللغوية والأدبية والدينية ، أكثر المماليك من بناء مدارسهم الخاصة ، مثل مدرسة السلطان الناصر حسن ، وهى أضخم وأفخم أثر مملوكى بالقاهرة ، ومدرسة السلطان برقوق ومدرسة المؤيد شيخ المحمودى ، وكان لهذه المدارس طابع خاص .. فهى من الخارج أشبه بالمساجد العامة ، لكل منها منارة أو عدة منارات ، على جانب كبير من المتانة وحسن النقوش المنقورة فيها ، مما لم يسبق له نظير فى الدول السابقة ، وكثرت هذه المآذن فى القاهرة حتى بلغت ما يقرب من ألف مئذنة :

أما داخل المدرسة ، فكان يقسم عادة إلى أربعة أواوين : مرتفعة عن صحن المدرسة بدرجة واحدة ، أكبرها الذى فيه القبلة ، وهو مكان تدريس المذهب الشافعى ، ويستخدم كذلك لإقامة الصلوات الخمس مع أئمة الدين السنيين ، وقبل الصلاة يؤذن على المآذن مؤذنون مخصوصون ، يعلنون عامة الناس فى الأسواق والبيوت ، ولسائر المذاهب الأخرى ثلاثة أواوين يختص أهل كل مذهب منها بايوان ، للمالكيين والحنفيين والحنابلة ، يستمع فيها طلابهم للدروس التى تشرح قواعد مذهبهم ، وبجانب الإيوان عادة فى صحن المسجد باب يؤدى إلى بيوت وغرف داخلية ، بعضها فوق بعض ، فيها ينام الطلاب ، ويأكلون ويغتسلون .

فاذا انتهى الطلاب من الدراسة فى المدارس المملوكية ، تحولوا إلى دراستهم الجامعية العالية فى الأزهر ، وبقوا فيه إلى أن يجيزهم الشيوخ الكبار ، ويأذنوا لهم بالتدريس فى بعض المدارس تحت إشراف شيوخهم ، وإن شاءوا رجعوا إلى بلادهم لينشروا الثقافة الإسلامية الدينية والعربية فى بلادهم :

وبذلك انتشر الوعى الدينى والأدبى والثقافى فى القاهرة ، وتبع ذلك الحياة الأدبية ، فظهر كثير من الأدباء والشعراء والكتاب من أمثال ابن نباتة الشاعر المصرى .

والسبب الثانى : لارتفاع الثقافة فى القاهرة ، وانتعاش الحياة الأدبية فيها كثرة المهاجرين من علماء المشرق والمغرب إلى بلدان الشرق الأوسط وأقطاره ، وخاصة القاهرة بسبب سقوط بغداد أم المدائن الكبرى ، ومؤسسة الحضارة الإسلامية العظمى ، على يد هولاكو (٦٥٦ هـ) ، فقد هاجر كثير من علمائها إلى الممالك التى غرب نهر الفرات كالحجاز والشام وفلسطين ومصر ، وكان جلهم يقيم فى المدائن الكبرى ، كمكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وبيت المقدس ودمشق والقاهرة والإسكندرية :

وحدث مثل ذلك تماماً فى الأندلس والمغرب ، حين نشط الأسبان فى الهجوم على المدن التى يسكنها العرب فى أسبانيا ، فهاجر كثير منهم إلى الأقطار الشرقية التى أسلفنا ذكرها ، هاجر كثير منهم إلى أقطار المغرب ، وخاصة تونس ، ونزح آخرون إلى بلدان الشرق ، وخاصة الإسكندرية والقاهرة ، ونقلوا معهم كتبهم وعلومهم وفنونهم ، وكان للقاهرة من كل ذلك أوفر نصيب وأوفاه ، كما نتبين ذلك من الباب الأول من كتاب نفح الطيب لأبى العباس أحمد المقرى التلمسانى :

وقد استقبل سلاطين المماليك هؤلاء المهاجرين استقبالا كريماً ، وخصصوا لكل عالم ذى شأن مدرسة من مدارسهم الكثيرة ، ليتولى إدارتها أو ليدرس فيها العلوم التى نبغ هو فيها فى بلده ، كما اختاروا بعضهم للكتابة فى دواوين الحكومة « كابن منظور الإفريقى صاحب لسان العرب » ، واتخذوا منهم مدرسين فى مدارسهم الخاصة ، وبذلوا لكل هؤلاء الوافدين الرواتب الكبيرة ، وصارت مصر والقاهرة وطناً ثانياً لكثير منهم ، كابن فرح القرطبى صاحب التفسير المشهور .

الثالث : أنه قد كثرت الكتب النفيسة فى القاهرة ، بما حمله المهاجرون من المشرق والمغرب ، وبما ألفه المصريون المثقفون ثقافة عالية فى الأزهر والمدارس الخاصة ، بعد أن تمت حوادث هجوم التتار على بغداد وإغراقهم فى دجلة كثيراً مما أنتجته قرائح المفكرين فى بغداد فى شتى العلوم ، وأسباب الحضارة ، ففكر علماء مصر وأدباؤها ومؤرخوها فى تأليف موسوعات جامعة فى أجزاء كثيرة ، يجمعون فيها أصول العلوم التى كانت فى الكتب التى أغرقها التتار فى نهر دجلة .

فألف أحمد بن عبد الوهاب النويرى (نسبة إلى نويرة بنى سويف بالصعيد) كتابه الكبير : « نهاية الأرب ، فى فنون الأدب » ، ويقع فى عدة أجزاء .

وألف أبو العباس أحمد القلقشندى المصرى كتابه الكبير فى قواعد وأصول فنون الإنشاء ، واسمه « صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشا » .

وألف محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى ثم المصرى ، معجمه اللغوى الجامع الذى أسماه « لسان العـــرب » ، وهو فى عشرين جزءاً، جمع فيه بين صحاح الجوهرى وجمهرة ابن دريد ، وتهذيب الأزهرى ، والنهاية لابن الأثير فى غريب الحديث ، وحواشى عبد الله بن برى على صحاح الجوهرى ، وألف ابن فضل الله العمرى كتابه الكبير « مسالك الأبصار » .

وألف الصلاح الصفدى كتابه الكبير ، الجامع لتراجم المحدثين وغيرهم واسمه « الوافى بالوفيات » .

وألف العينى كتابه الكبير فى التراجم أيضاً واسمه « عقد الجمان » .

وكل كتاب من هذه الكتب الموسوعة الجامعة يحوى فوائد مما حوته الكتب الصغيرة التى أغرقها التتار فى نهر دجلة ، وقد طبع بعض هذه الكتب طبعـــة فاخرة أنيقة بمطبعة دار الكتب المصرية « بالقاهرة » ، وهى المثل الأعلى للطباعة الفنية الأنيقة فى العصر الحديث .

ولم تقصر القاهرة فى وضع أسس الفن التمثيلى ، فقد ألف ابن دانيـــال الموصلى الكحال تمثيليتين :

سمى إحداهما : « خيال الظل » ، وهو فن يشبه « السينما » وأصله صينى انتقـــل إلى بلاد فارس أولا ، ثم انتقل منها إلى بلاد الترك واليونان، ثم انتقـــل منها إلى القاهرة ، وكانت تمثل فيه روايات بشخوص من الورق المقـــوى ،

يحركها محركون من وراء ستارة بيضاء ، ترتسم فيها ظلال الشخوص الكرتونية ، وينطق بعض المحركين لها بلسان صاحب الصورة الظاهرة على الستارة ، بما يقتضيه موقفه من القصة ، وكانوا ينشدون بعض الأشعار ، ويبثون الحكم والمواعظ فى أثناء عملهم .

وكان مسرح التمثيل لخيال الظل حجرة واحدة ، يجلس فيها محركو الصورة ومعهم أدواتهم وما يحتاجون إليه من عصى ونحوها ومصباح كبير ، يجعلون الشخوص بينه وبين الستارة ، فيقع ظلها عليها .

وكان خيال الظل معروفاً فى القاهرة منذ عهد السلطان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية أو قبل ذلك ، قيل له ليلة إن خيال الظل يمثل قصة كذا ...... ، فهل تحب أن تشهده ؟ فقال : نعم ، وكان إلى جانبه وزيره القاضى الفاضل ، فأخذ بيده ، وقال : هيا بنا نشاهد (خيال الظل) فوافقه ، فلما انقضت التمثيلية ، سأل صلاح صاحبه القاضى ما رأيك فيما شاهدت ؟ فقال القاضى بيتين من الشعر هما :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن هو فى علم الحقيقة راقى

شخوص وأشباح تمر وتنقضى ... وتفنى جميعاً والمحرك باقى

وأما التمثيلية الأخرى لابن دانيال الموصلى الكحال ، فهى « طيف الخيال » وهى أقرب إلى الفن التمثيلى المسرحى ، فقد ألف فيه ابن دانيال قصة تمثيلية ، لها بطل ، يشاركه أشخاص فى القيام بأدوار خاصة ، وفيها أعوان ينشدون الأناشيد :

والآن نختتم كلمتنا هذه ، بأن ندعو الله سبحانه أن يقى القاهرة من جميع الأسواء والأضرار ، لتتمكن من إتمام رسالتها فى الحضارة الإنسانية ، التى بدأتها منذ أقدم عصور التاريخ ، فكانت نبراساً لجميع الأمم بعدها ، يستضيئون بنورها ، ويهتدون بهديها :



دور زعماء وشعب القاهرة
فى تولية محمد على فى سنة ١٨٠٥

د . مكى شبيكه

دور زعماء وشعب القاهرة
فى تولية محمد على فى سنة ١٨٠٥

د . مكى شبيكة

سيتناول غيرى من الباحثين قصة مدينة القاهرة فى العمران والحضارة فى حياتها التى امتدت لألف سنة وكلهم أصحاب تخصص فى هذه النواحى : ولكننى سأتناول ناحية طالما أهملناها فى معالجة القضايا التاريخية ، وهى دور الجماهير فى تطور الحوادث . وفى هذه العجالة سأتابع قصة الدور الذى لعبه شعب القاهرة فى اختيار من يتولى أمر حكومتهم وفرضه على السلطان الشرعى صاحب السيادة. وسيكون دورى دور القاص. وخلافاً لما عهدناه فى بحوثنا التاريخية سأترك المجال لمؤرخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتى بلغته حتى نعيش فى عصره ويظهر لنا الصور كما كانت عليها الحالة فعلا لا كما يصيبها من رتوش .

وكلنا نعلم تطور الحوادث منذ أن احتلت الحملة الفرنسية مصر بقيادة بونابرت سنة ١٧٩٨ والجلاء بعد ثلاث سنوات أعقبتها فترة تيه قاسى منها الشعب، نتيجة الصراعات بين الأتراك والأرناؤوط والمماليك، يؤيدهم الانجليز، ونتيجة الضرائب والإتاوات والمصادرات. ونعلم مقاومة الشعب المصرى للحملة الفرنسية عند زحف جيوشهم وأثناء الاحتلال بالرغم من تمويهات بونابرت كما عبر عنها الجبرتى . والديوان الذى أقامه الفرنسيون من زعماء المصريين لم يكن

أداة للمشاركة فى الحكم بقدر ماكان استغلالا لتهدئة الخواطر . وقد برهن محمدعلى أنه كان ـعلى خلاف زعماءالجندالمتصارعين ـيتحالف مع فريق ليغدر به الفريق الآخر ، ثم ينقلب عليه فى آخر الأمر .وعندما كان يشترك فى تسيير دفــة الحكم أثناء فترة التيه كــان يبتعد عما يثير خواطر الجماهير والجند من ضرائب وغرامات ومصادرات ورواتب جند ويتركها لخليفه آخـــر . وكان يتقرب ويتودد لزعماء الشعب مظهرا عطفه على الجماهير ومايناهم من أذى .

وكانت آخر مرحلة للصراع نحو السيطرة بين محمد على وخورشيد باشا الوالى التركى . استورد خورشد باشا الجند الدلاة من سوريا أصحاب الشهرة السيئة والمسلك المشين ، حتى يقوى مركزه ويتغاب على محمد على بابعاده عن مصر . وضع الوالى خطته بعـــد أن قوى مركزه عسكريا بالدلاة بأن يأمر محمد على بالخروج من القاهرة لحرب المماليك فى الصعيد ثم يمنعه من الدخول مرة ثانية عندما يقوم بهذه المهمة ولكنها حيلة تنبه لها محمد على فانصاع للأمر وخرج . غير أنه رجع مرة ثانية بجنده ، وعندما اعترضه جند الوالى رد لهم بمنطق يفهمه الجند وهو إنما يريد صرف رواتب جنده ، ثم يخرج بهم مرة ثانية : وعندها أفسحوا له الطريق .

وتأزم الموقف بعد هذه الرجعة و لم تجد الوساطات . وتقع المناوشـــات بين الجند وتصل إلى القتل أحيانا وانتهز المماليك الفرصة وعاثوا فى الأرض فسادا . وهاك صورة للحالة كما صورها الجبرتى : « ومصر مشحونة باخلاط العسكر وأجناسهم المختلفة داخل المدينة وخارجها والدلاتيه جهة مصر القديمة وقصر العينى والآثار ودير الطين ، يأكلون المزروعات ويخطفــون النساء ومايجدونه من الفلاحين والمارين ويأخذون مامعهم . ويخطفون النساء والاولاد بل ويلوطون فى الرجال الاختياريه (كبار السن) . »

حضر سكان مصر القديمة نساء ورجالا إلى جهة الجامع الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الدلاتيه، ويخبرون أن الدلاتيه قد أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهراً عنهم، لم يتركوهم يأخذون ثيابهم ومتاعهم، بل ومنعوا النساء أيضا عندهم وماخلص منهم، الامن تسلق ونط من الحيطان، وحضروا على هذه الصورة، فركب المشايخ إلى الباشا وخاطبوه فى أمرهم فكتب فرمانا خطابا للدلاتية بالخروج من الدور وتركها إلى أصحابها . فلم يمتثلوا ولم يسمعوا ذلك . وخوطب الباشا ثانيا واخبروه بعصيانهم فقال أنهم مقيمون ثلاثة أيام يسافرون. وزاد الضجيج والجمع فاجتمع المشايخ فى صبحها يوم الخميس بالأزهر وتركوا قــراءة الدروس، وخرجت سريه من الأولاد الصغار يصرخون بالاسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت، وحصل بالبلدة ضجه ووصل الخبر إلى الباشا بذلك، فأرسل كتخداه إلى الأزهر فلم يجد به أحداً ، وكان المشايخ انتقلوا بعد الظهر إلى بيوتهم لأغراض نفسانيه وفشل مستمر فيهم . فلما لم ير أحدا ذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وحضر هناك السيد عمر (مكرم) افندى وخلافه فكلموه، واوهموه، ثم قام وانصرف وفى حال خروجه رجمه الأولاد بالحجارة وسبوه وشتموه وبقى على السكوت إلى يوم الجمعة عاشره، والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة واللغط والوسوسة دائران . . . . »

صورة واضحه لمساوئ الدلاة وتمردهم على الوالى مما يدل على حالة الفوضى ، والاضراب شامل فى الأزهر والأسواق، بل أشترك الأولاد فى هذه المقاومــة الشعبية . واثناء ذلك ورد رسول من الآستانه بتقليد محمد على ولاية جدّه. وهــذه خطة واضحة لابعاد محمد على عن مصر عندما فشلت خطة خورشيد باشا الأولى . وخــوفاً من أن تكون مكيدة مدبرة امتنع محمد على من الطلوع للقلعة وعندها نزل الباشا وقلده فى بيت سعيد أغا. لم يرفض محمد على الولايه، ولو

أنه رأى فيها خطة لابعاده عن مصر ، وقــد زادت من هيبته ومكانته . فمن وجد أهلا لولاية جده يستطيع أن يكون واليا على مصر .

وضح الوضع بعد توالى هذه الحوادث ، عانى المواطنون من مسلك الجنود الذين لم يردعهم الوالى الشرعى . والشخص الوحيد الذى وجد فيه الشعب وزعماؤه أملا لوضع حد لهذه الفوضى هو محمد على . وقد فشلت المحاولة الاولى لاقصائه من القاهرة ، وهاهى المحاولة الثانية لابعاده بتعيينه واليا لجده التى قبلها ظاهرا عن طيب خاطر ، ولكنه يطمع فى توطيد مركزه فى القـــاهرة . والشعب وزعماؤه يرون فيـــه المخرج الوحيد من الحالة السيئة التى تردت فيها البلاد . ولنسمع إلى أستاذنا الجبرتى يروى لنا المرحـــلة الأخيرة من تطور الحوادث التى قادت إلى ولاية محمد على بواسطة الزعماء والجماهير :

« ركب الدلاة وذهبوا إلى قليوب وخلوها واســـتولوا عليها وعلى دورها وربطوا خيولهم على اجرانها وطلبوا من أهلها النفقات والكلف و عمـــلوا على الدور دراهم يطلبونها منهم فى كل يوم ، وقرروا على دار شيخ البلد الشواربى كل يوم مائة قرش ، وحبسوا حريمهم عن الخروج . وكان الشواربى بمصر فوصل اليه الخبر بذلك واستمر على ذلك حتى أخذوا النساء والبنات والأولاد وصاروا يبيعونهم فيما بينهم ، وبعد أيام أرسل اليهم محمد على وقرر لهم الكلف على البلاد فصاروا يقبضونها ومن عصى عليهم ضربوه ونهبوه وأرسلوا إلى بلدة يقال لها أبو الغيط فامتنعت عليهم وخرج أهلها ودفنوا متاعهم بالجزيرة المقابلة للقرية فركبوا عليهم وحاربوهم فقتل من الفلاحين زيادة عن ماية شخص ، وداهم بعض الناس من الفلاحين على خباياهم بالجزيره فذهبوا اليها فاستخرجوها وكانت أشياء كثيرة والأمر لله وحده لاشريك له والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر ، وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة ، وبطل طلوع المشايخ الوجاقليه

وميهم بالقلعة، فحضر الأغا إلى نواحي الأزهر ونادى بالأمان وفتح الدكاكين في العصر، فقال الناس وأى شئ حصل من الأمان وهو يريد سلب الفقراء ويأخذ أجر مساكنهم ويعمل عليهم غرامات. وباتوا في هرج ومرج. فلما أصبح يوم الأحد ثانى عشره ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى أمتلأ الحوش بالناس وصرخوا بقولهم شرع الله بيننا وبين هذا الباشاء الظالم، ومن الأولاد من يقول يالطيف ومنهم من يقول يارب يامتجلى أهلك العثملى، ومنهم يقول حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك. وطلبوا من القاضى أن يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع، فأرسل إلى سعيد أغا الوكيل وبشير أغا الذى حضر قبل تاريخه، وعثمان أغا كتخدا والدفتردار الشمعدانجى. فحضر واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات، ففعلوا ذلك وذكروا فيه تعدد طوائف العسكر والايـذاء منهم للناس واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل وحتى طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوه معهم ووعدوه برد الجواب فى ثانى يوم. وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة إلى القاضى يرفق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة. فلما وصلته التذكرة حضر بها السيد عمر أفندى واستشاروا فى الذهاب، ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه وغلب على ظنهم أنها منه خديعة وفى عزمه شئ آخر، لانه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشخاصا لاغتيالهم فى الطريق وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر، فيما لو عوتب بعد ذلك (فلمـا اصبحوا يوم الاثنين) إجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع الكثير من العامـة فمنعوهم من الدخول إلى بيت القاضى وقفلوا بابيه وحضر اليهم ايضاً سـعيد أغا والجماعة وذهبوا إلى محمد على وقالوا له انا لانريد هذا الباشاحاكما علينا ولابد من عزله من الولاية. فقال ومن تريدونه واليا؟ قالوا له لا نرضى الآباث وتكون

واليا علينا بشروطنا لمـــا نتوسمه فيك من العدالة والخير. فامتنع أولا ثم رضى واحضروا له كركا وعليه قفطان وقام السيد عمـــر والشيخ الشرقاوى فألبساه له وذلك وقت العصر. ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة وأرسلوا إلى أحمد باشا الخبر بذلك، فقال إنى مولى من طرف السلطان فلا اعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمـــر من السلطنة وأصبح الناس وتجمعوا أيضاً فركب المشايخ ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم الاسلحة والعصى وذهبوا إلى بركة الازبكية حتى ملؤها، وأرسل الباشا إلى مصر العتيقة فحمل جمالا من البقسماط والذخيرة والجبخانة، وأخـــذ غلالا من عرصة الرميلة وطلع عمر بيك الارنؤدى الساكن ببولاق عند الباشا بالقلعة، ثم ان محمد على باشا والمشايخ كتبوا مراسلة إلى عمـــر بيك وصالح أغا قوش المعضدين لاحمد باشا المخلوع يذكرون لهما ما أجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا، ولاينبغى مخالفتهم وعنادهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الاقليم فأرسلا يقولان فى الجواب أرونا سندا شرعياً فى ذلك. فاجتمع المشايخ فى يوم الخميس سادس عشرة ببيت القاضى ونظموا سؤالا وكتب عليه المفتون وأرسلوه إليهم، فلم يتعقلوا ذلك واستمروا على خلافهم ونزل كثير من أتباع الباشا بثيابهم إلى المدينة انحل عنه طائفة الينكجرية ولم يبق معه الا طوائف الارنؤد المغرضون لصالح أغا قوش وعمر أغا ».

لو حاولت تلخيص هذه القصة بلغة عصرنا هذا لما تبينا الصورة ولما وضحت لنا الرؤيا. فالمظالم التى ارتكبت وتمرد الجند على أوامر الباشا جردته من الولاية. وهاهو محمد على الذى توسموا فيه الخير، قد عين فعلا لولاية أخرى فى الامبراطورية العثمانية ولو أن الهدف كان ابعاده. وفوق كل ذلك كان هناك تعاون وثيق بين الزعماء والجماهير. فمن الحجج التى التى ساقوها قول الزعماء « ما اجتمع عليه رأى الجمهور ». بل الجمهور كان محاصراً للزعماء بأعداد كبيرة عندما اجتمعوا فى بيت القاضى وقفلوا الأبواب. ونقطة أخرى هامة هى السند

الشرعي الذى اعتمدوا عليه فى عزل الباشا وتولية محمد على : وهذا أمر معروف وله سوابقه فى الدولة العثمانية : وازاء هذه القوة الجماهيرية تخلى عن الباشا الكثيرون ماعدا فرقة من الأرنؤوط مواليه لصالح أغا قوش وعمر أغا .

تلى ذلك الكتابة للسلطان فى الأستانه لتأييدالولاية، ولكن حين وصول الرد لم يخضع الباشا المخلوع لهذا القررا واستعد فى القلعة وقال «لاأنزل حتى يأتينى أمر من السلطان الذى ولانى » وطلب من القاضى ارسال رواتب الجند الذين معه واستمر قائلا « وتعينوا لنا ولهم خرجا ومصاريف إلى حين حضور جواب من الدولة وليس فى اقامتنا بالقلعة ضرر أو خراب على الرعية فاننا لانريداضرارهم : وكان رد القاضى أن رواتب الجند ملزم بها هو عن ايراد المدة التى قبضها، وأن اقامته بالقلعة هى الضرر نفسه، لأن الجماهير توافدت إلى المحكمة تطالب بنزول الباشا المخلوع أو محاربته وختم الرساله بأن هذه آخر المراسلات بينهما . ماكانت المسألة جدلا بين القاضى والباشا، بل الجماهير التى أدت بضغطها إلى عزاه وتولية محمد على ، أرادت أن تكون هى القوة التى تنفذ القرار :

وحينما علم الشعب بمقاومة الباشا رأى أن يحمى مكاسبه ومثلما ظهر السيد عمر مكرم فى المقدمة من الزعماء الذين قادوا النضال فى عزل الباشا وتولية محمد على ، برز الآن لقيادة الشعب الذى أصر على حماية مكاسبه واتركم الآن للجبرتى يقص علينا دور هذا الشعب الباسل :

« واجتهد السيد عمر أفندى النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على باشا ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالاسلحة والعصى والنبابيت ، ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات ويسرحون أحزابا وطوائف، ومعهم المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور ، ثم أتفقوا على محاصرة القلعة ، فأرسل محمد على باشا

عساكره فى جهات الرميلة والحطابة والطرق النافذة، مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وناحية بيت آقبردى . وجلسوا بالمحمودية والسلطان حسن وعملوا متاريس فى تلك الجهات، وذلك فى تاسع عشرة ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة، وأغلق أهل القلعة الأبواب ووقفوا على الأسوار يبكت بعضهم بعضا بالكلام ويترامون بالبنادق. وصعدوا على منارة السلطان حسن يرمون منها إلى القلعة (وفى يوم الاربعاء ثانى عشرينه)، ركب السيد عمر أفندى والمشايخ ومعهم جميع كثير من الناس إلى الأزبكية بعد ركوبهم حضـــر الجمع الكثير من العامة والعصب وطوائف الاجناد والوجاقلية وعصب النواحى وأهـــل الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة وجميع الجهات، ومعهم الطبول والبيارق، حتى غصت بهم الأزقة فحضروا إلى جهات الجامع الازهر ثم رجعوا إلى الأزبكية، ولحقوا بالمشايخ من عند محمد على باشا وذهبوا إلى حسن بيك أخى طاهر باشا ثم رجعوا ،واستمر الحال على ذلك إلى ليلة الجمعة فنزل بين المغرب والعشاء عدة من العسكر كبيرة، وفتحوا باب القلعة بالرملية وأرادوا الهجوم على المتاريس، فتتابعوا عليهم بالرمى فلم يزالوا يترامون إلى بعد العشاء الأخيرة ثم رجعوا، وعندما سمع الناس صوت الرمى ذهبوا ارسالا إلى جهات المتاريس ثم عادوا بعد رجوع المذكورين إلى القلعة ،كل ذلك وحسن باشا طاهر ومن معه من الارنؤد يراعون من بالقلعة من أجناسهم، لأن غالبهم منهم فلما كان يوم الجمعة رابع عشرينه، طلع عابدى بيك أخو حسن باشا إلى القلعة ونزل عمر بيك وامروا برفع المتاريس وتفرق من بها . وأشيع نزول الباشا من الغدوبات الناس على ذلك ليلة السبت وهم على ماهم عليه من التجمع والحيرة (وفى صبح يوم السبت) مر ثلاثة من العسكر السجان بناحية مرجوش فصادفوا غلاماً من اللاونجية خرج ليشترى قهوة، فارادوا أخذه، ففر منهم فضربوه برصاصة وقتلوه وذلك فى صلاة الحنفى فتبعهم الناس، فوصلوا إلى النحاسين

وعطفوا على خان الخليلى وأرادوا الخلوص إلى جهة المشهد الحسينى ، فأغلقوا فى وجوههم البوابة فضربوا على المتبعين لهم فقتلوا شخصاً وجرحوا آخر وخرجوا من القبو إلى ناحية الصنادقية، وفرغ ما معهم من البارود فطلعوا إلى ربع وكالة الشبراوى، فاجتمع الناس وكسروا باب الربع، فنزلوا يريدون الهرب فقتلهم الناس وذهبت أرواحهم إلى النار . »

كانت هـــذه معركة، بين مواطنين آمنوا بقضيتهـــم، بالعصى والفؤوس يقودهم زعيم (السيد عمر)، آمن مثلهم وأحس نبضهم وبين الباشا بمن أيده من الجند المدربين المسلحين بأسلحة حديثة آنذاك . غير أن الجند سرت بينهم بلبلة وحسب رواية الجبرتى، أصبح الإنسان لا يميز بين العـــدو والصديق وظلت الحالة على هذا المنوال قرابة شهرين كان السيد عمـــر مكرم فوق قيادته العسكرية والسياسية للجماهير يمنع الامدادات عن القلعـــة ويفسد المؤامرات التى يدبرها أنصار الباشا المخلوع بدعوى المفاوضة والصلح ولكنها خدع يراد بها تفتيت وحدة الشعب .

وأخيراً وصل رسول السلطان يحمل مرسوماً بتولية محمد على وعزل خورشيد باشا ويتوجه للاسكندرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الأمر للتوجه لبعض الولايات . غير أن خورشد باشا لم يقتنع وقال « أنا متولى بخطوط شريفة وأوامر منيفة ولا انعزل بورقة مثل هـــذه » . ونلاحظ أن محمد على إلى هذا الوقت ، لم يتدخل تدخلا واضحاً فى هذا الأمر، بل الشعب بقيادة زعيمه تولى الأمر وسيظل صامدا فى موقفه إلى أن يرحل الباشا المخلوع .

أما المشايخ فقـــد ضاقوا ذرعاً لامتداد أجل الفتنة ورأوا أن مهمتهم قـــد انتهت ويترك الأمر للوالى الجديد وحده، بعـــد أن أيده السلطان وعبّروا عن موقفهم هذا بما ننقله عن الجبرتى :

« اجتمع الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين وقالوا ايش هذا الحال وما تداخلنا فى هذا الأمر والفتن واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة وينادون بالأمان ، وأن الناس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بها ، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ويتقيدون بقراءة الدروس وحضور الطلبة وركبوا إلى محمد على وقالوا له : أنت صرت حاكم البلدة ، والرعية ليس لهم مقارشة فى عزل الباشا ونزوله من القلعة وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت ، وأخبروه برأيهم فأجابهم إلى ذلك وركب الأغا وصحبه بعض المتعممين ونادوا فى المدينة بالأمن والأمان والبيع والشراء وأن الناس يتركون حمل الأسلحة بالنهار وإذا وقع من بعض العسكر قباحة رفعوا أمره إلى محمد على وإن كان من الرعية رفعوه إلى بيت السيد عمر النقيب وإذا دخل الليل حملوا الأسلحة وسهروا فى أخطاطهم على العادة وتحفظوا على اماكنهم فلما سمع الناس ذلك انكروه وقالوا أيش هذا الكلام حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل والله لانترك حمل أسلحتنا ولا نمتثل لهذا الكلام ولا هـذه المناداة ومر الأغا ببعض العامة المتسلحين فقبض عليهم وأخذ سلاحهم فاز دادوا قهرا وباتوا على ذلك واجتمعوا عند السيد عمر النقيب وراجعوه فى ذلك فاعتذر وأخبر بأن هذا الأمر على خلاف مراده : »

يتضح من هذا أن غالب المشايخ نفضوا أيديهم من الموقف ونصحوا بالمناداة بالأمان غير أن الشعب لم ير مايبرر باقتناع هدوء الحالة وأصروا على الصمود وشمول الاضراب والتأهب وأيدهم فى ذلك السيد عمر مكرم وحده. ووقعت فعلا حوادث من العساكر تبرر هذا الموقف الصلب : ويبدوا أن الباشا المخلوع استدعى المماليك ليتحد معهم وكان زعماء الجند يتفاوضون مع السيد عمر مكرم فى أمر إنزال الباشا من القلعة إما صلحا أو قهراً حتى لايتحد مع المماليك القادمين حين انطلق عيار نارى خطأ أو قصداً « فهاجت الناس وماجت واجتمعوا من كل ناحية وخرج جاويشية النقابة إلى نواحى الدائرة ينادون فى الناس

ويقولون عليكم ببيت السيد عمــر النقيب يامسلمين انجدوا اخوانكم وحصلت من تلك البندقية التي انطلقت فزعة عظيمة وصاح السيد عمر على الناس من الشباك يأمرهم بالسكون والهجوم فلم يسمعوا له ونزل إلى أسفل ووقف بباب داره يصيح بالناس فلا يزدادون الا خباطا وأقبلوا طوائف من كل جهة فصار يأمرهم بالمرور والخروج إلى جهة باب البرقية ولم يزالوا على ذلك إلى بعد صلاة الجمعة حتى سكن الحالة وأقام حجو والكتخدا حتى مع السيد عمر وركبا وذهبا ونودى فى عصر ذلك اليوم بالامان وفتح الحوانيت والبيع والشراء ولايرفعون معهم السلاح بل يجعلونه معهم فى حوانيتهم تحذرا من غدر العسكر وفتحوا أبواب الأزهر (وفى يوم السبت) فتح الناس بعض الحوانيت ونزل المشايخ إلى الجامع الأزهر وقرأوا بعض الدروس ففترت همم الناس ورموا الاسلحة وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم أياهم وشمخ عليهم العسكر وشرعوا فى اذيتهم وتعرضوا لقتلهم واضرارهم (وفى يوم الأحد) قتلوا أشخاصاً فى جهات متفرقة وضج الناس وأغلقوا الدكاكين وكثرت شكاويهم واقلقوا السيد عمر النقيب وهو يعتذر اليهم ويقول لهم اذهبوا إلى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير فهما اللذان أمرا الناس برمى السلاح فلما زادت الشكوى نادوا فى الناس بالعودة إلى حمل السلاح والتحذر . »

كان الشعب على حق عندما أصر على موقف الصمود والتحفز وظهر جليا أن زعيمهم الذى وقف معهم هو السيد عمر فقد نادوا بحمايته عندماعلموا أنه فى خطر . وكالعادة انتهز المماليك فرصة هذه البلبلة واقتربوا من القاهرة وهدموا قلاع طرا وساووها بالأرض.وما كان لمحمد على أن يقبع فى القاهرة . والمماليك يقتربون منها . فخرج اليهم وتناوشوا وارتفعوا من ضواحى القاهرة والدلاة أيضا ماكان لهم الا أن يسهموا بنصيبهم فى اشاعة الفوضى والاضطراب

وهم مازالوا فى القاهرة، تجمعوا كما قال الجبرتى « وحضروا إلى بولاق وهجموا على البيوت وأخرجوا سكانها قهراً عنهم وازعجوهم من أوطانهم وسكنوها . وربطوا خيولهم بخانات التجار ووكالة الزيت وحضر الكثير من أهالى بولاق إلى بيت السيد عمر وتظلموا وتشكوا . فأرسل إلى كتخدا بياك يمنعهم فلم يمتنعوا . واستمروا على فعلهم وقبائحهم .» وأول طلب من محمد على حسب ماقصه الجبرتى : « طلب محمد على باشا دراهم سلفة من النصارى والتجار وقرروا فردة على البلاد والبنادر . وهى أول طلبة طلبها بعد رئاسته » ويلاحظ أن أول دور فعلى قام به محمد على منذ تنصيبه واليا هو مقاومة المماليك وأن أول طلب مالى هو تلك السلفة من النصارى والتجار وتقرير الفردة على البلاد.

وصل قبطان باشا برسالة من الآستانة ، فيها أمر صريح لخورشد باشا بالنزول وتثبيت لولاية محمد على ؛ وقد اتضح لنا بما لايدع مجالا للشك على أنه مهما قيل عن مقدرة محمد على وحنكته ماكان له أن ينال هذا المنصب وسط تلك الصراعات، الا بهذا السند الشعبى الرائع، الذى وقف صامدا فى تلك الفترة الحرجه بسلاح الأيمان بوطنه لايحمل الا العصى والنبابيت، وقيض الله له من الزعماء السيد عمر مكرم بعد أن تخاذل الكثير من المتعممين حسب تعبير الجبرتى.

وهذا يختم هذا الفصل من تاريخ القاهرة أوبالأ حرى شعب القاهرة . أما تطور الحوادث فى عهد محمدعلى فى مصر والسودان فقد تابعتها فى كتابى « تاريخ شعوب وادى النيل فى القرن التاسع عشر » مستخدماً وثائق محمدعلى نفسه وتقارير القناصل والأجانب التى ترجمها المغفور له الدكتور محمد فؤاد شكرى مع زميلين له مدونة فى كتابهم « بناء دولة محمد على » . وفيها وضحت تنكره للسيد عمر مكرم بمؤامرة من بعض زملائه المشايخ ، ومظالمه وقهره واستغلاله لشعوب الوادى ، بالرغم من الهالة البراقة التى أحاطت بإصلاحاته التى كانت وقفا على شخصه وعائلته وطبقة متسلطة على الشعب :

القاهرة في نظر الرحالة الأمريكي
في القرن التاسع عشر

مورو بيرجر

ملخص

القاهرة فى نظر الرحالة الأمريكى
فى القرن التاسع عشر

مورو بيرجر

ملخص

ان المغزى الشامل الذى نستخلصه من مدينة كبيرة كالقاهرة ، إنما يمتد خارج نطاق عصرها وحدودها ، ويصبح جزءا لايتجزأ من تاريخها . فى القرن التاسع عشر اتسعت دلالات مدينة القاهرة لتشمل الولايات المتحدة الأمريكية . ومع انتصاف القرن ، بل وبعد ذلك أيضاً ، بدأت اعداد كبيرة ومتزايدة من الامريكيين تنجذب إلى « عالم جديد » آخر يقع فى الشرق ، كانت القاهرة بالنسبة اليه نقطة دخول وعبور ورحيل يتطلع اليها الرحالة الذين كانت تستهويهم رؤية المدينة نفسها ، فضلا عن الأهرام والعجائب القديمة على ضفتى نهر النيل ، وذلك إلى جانب البقاع التى حكى عنها الانجيل .

ولا بد لنا أن نميز بين رحالة القرن التاسع عشر من ناحية ، والمغامر المستكشف فى القرن الثامن عشر أو السائح فى القرن العشرين من ناحية أخرى فالرحالة كان لايبقى فى مكان إلا فترة أقل مما يمكثه المستكشف ، رغم أنه — شأنه شأن المستكشف — كان كثيراً مايدون خبراته وتجاربه . ومع هذا فقد كان يتميز عنه من حيث إنه كان يخاطب القارئ غير المتخصص فيما يرويه

عن مناطق معروفة بالفعل ، ومن ثم فقد مهد الطريق لزميله السائح الذى بدأ يرتاد هذه الاماكن عندما أصبح الذهاب اليها ميسراً ، وحين غدا السفر أكثر راحة .

وكثيراً ماكان الرحالة فى القرن التاسع عشر ، وهو الكاهن أو المربى أو رجل الدعاية ، يجد دافعاً إلى التعبير عن أفكاره ومشاعره ، ورغبة فى إفادة الناس بمعلوماته ، وذلك رغم انعدام خبرته وضآلة معارفه . ومن ثم لم يكن كتاب الرحلات ممن يعتمد عليهم عادة فى التعريف بالمجتمع الذى أمضوا فيه بضعة أيام أو أسابيع . ولايرجع اهتمامنا بهم الا من حيث كونهم دليلا على :

١ — شغف الأمريكيين المتزايد بمصر .

٢ — أفكار الأمريكيين عن مصر .

٣ — تزايد أثر مصر فى القرن التاسع عشر :

٤ — التبشير بما جرى فى القرن الحالى من تبادل للعلاقات .

ولقد كان تزايد اهتمام الأمريكيين بمصر عبارة عن استجابة للتطورات التى ظهرت فى كلا البلدين . ففى أمريكا كان هناك اتساع كبير فى مجال الاهتمامات القومية والجغرافية والدينية والاقتصادية. أما مصر فكانت قد خرجت من نطاق الحكم المملوكى ، وما صاحب ذلك من ظهور حيوية جديدة ، وتقدم فى علم الآثار ، الأمر الذى أدى إلى اكتشافات مدهشة جذبت أنظار العالم إلى المعالم الاثرية . وهكذا أدت الآثار وعوامل المناخ إلى جعل مصر ذات أهمية خاصة بالنسبة للرحالة الاجانب .

وقد كان من بين هؤلاء الرحالة بعض الشخصيات الأمريكية الشهيرة مثل مارك توين ، ورالف والدو ، وإمرسون ، وهيرمان ملفيل ، الذين ناقشوا فى كتاباتهم موضوعات شتى كشفت عن اهتماماتهم ومواقفهم وأهوائهم ، وما جنوه من علم ومعرفة .

تحف من عصر
السلطان الناصر محمد بن قلاوون وابنه الصالح إسماعيل

وفية أحمد عزى

ملخص

تحف من عصر
السلطان الناصر محمد بن قلاوون وابنه الصالح إسماعيل

وفنية احمد عزى

ملخص

كان لحكم الناصر محمد طول الأمد واستقرار الأمن واستتباب الرخاء ، فانتشرت الصناعات المختلفة وكثر إنتاج الجيد منها ويبدو ذلك جلياً فيما ورثناه من هذا العصر من خزف وخشب مطعم بالعاج والأبنوس والنحاس المكفت بالذهب والفضة والمنسوجات الحريرية والمصنوعة من الكتان المطرز بالحرير :

ولما كان هـذا العصر مزدهراً فقـد أنشئت بالقاهرة المبانى والقصور والمساجد والحدائق التى لعبت دوراً كبيراً فى المنتجات الفاخرة . وقد ذكر المقريزى[1] أن هذه الأسواق من أكبر أسواق القاهرة، بهـا عدة حوانيت فيها الرفاؤون والحياكون ، وعدة حوانيت للرسامين[2] (أى حوانيت التطريز) ، وأخرى للفرايين والخياطين ومعظمها لسكن البزازين والخلعيين ، وفيها عدد من بياعى الاقباع[3] ، ويباع فى هـذه السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها :

(١) خطط ج ٢ ص ١١ .

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن - دراسات فى تاريخ المماليك البحرية سنة ١٩٤٤ ص ٣٢٨ .

(٣) خطط جـ ١ ص ١٠٥ (سوق يباع فيه نوع من أغطية الرأس) .

وقد شجع الناصر محمد مهرة الصناع من كل الحرف سواء منهم المصريون أوالوافدون على مصر ، وقد سجل الكثير منهم أسماءهم على روائع التحف من النحاس المكفت بالذهب والفضة مثل الشماعد وصناديق المصاحف والكراسى والمقامات والطسوت والأباريق ، هـذا بجانب اسم الناصر محمد أو أولاده أوأحد أمرائه . وكانت هذه التحف النحاسية تزخر برسوم اللوتس ونبات عود الصليب وجامات بها طيور ، بجانب أشرطة بداخلها كتابات نسخية دعائية وأسماء السلاطين ، أو أشرطة بها حيوانات متتابعة . وقد حلت هذه الرسوم بدلا من رسوم البلاط والأشخاص فى مجالس الطرب أو الصيد .

ويحتوى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة على كثير من التحف من عهد السلطان الناصر محمد وأولاده ومنها :

شمعدان رقم ١٤٥٨٠ ، مقاس : إرتفاع : ٣٤ سم ، قطر القاعدة : ٣٠سم .

شمعـدان من النحاس مكفت بالفضـة على الشماعة شريط بكتابة نسخية/ على أرضية من أفـرع نباتية يقرأ : « عز لمولانا السلطان / الملك الناصر العالم / العامل الغازى المجاهد / المرابط محمد بن قلاون » .

وهذا الشريط تقطعه دائرتان يتوسطهما رنك كتابى به عبارة « الملك الناصر » أما رقبة الشمعدان فتقطعها أشرطة تكون معينات ، بداخلها على التبادل زهرة الزنبق أو زهرة ذات أربعة أطراف ، أما السطح العلوى للقاعدة فعليـه شريط مقسم إلى أربع مناطق على أثنتين منها كتابة نسخية داخل منطقتين نصها « عز لمولانا السلطان ـ الملك الناصر محمد بن قلاون » ، ويتوسط المنطقتين الأخيرتين رسوم زهرة الزنبق ، ويفصل هذه المناطق أربع دوائر بكل منهـا رسم زوجين لبط طائر ، ويلى ذلك شريط أضيق به كتابات نسخية دعائية أو رسوم طيور محلقة . وعلى القاعدة شريط عريض به كتابة بالخـط النسخ الكبير نصها « عز لمولانا

السلطان الملك الناصر العــالم / العامل ناصر الدنيــا والدين محمــد بن قلاون الصالحى » ، ويقطع هذا الشريط دائرتان مفصصتان يتوسط كلا منهما رنك كتابى به عبارة « عز لمولانا السلطان » ، ويحيط به كتابة نسخية تتجه قوائم حروفها نحو المركز . وأعلى هذا الشريط وأسفله شريطان ضيقان بهما فرع نباتى متموج تتفرع منه أوراق نباتية .

وللسلطان الناصر محمد أولاد كثيرون تولوا الحكم بعــده منهم السلطان الملك الصالح عماد الدنيا والدين اسماعيل الذى تولى الحكم من ٨٤٣ — ٨٤٦ ﻫ (١٣٤٢ — ١٣٤٥م) ، وبمتحف الفن الاسلامى بالقــاهرة تحفتان تحملان اسمه : الأولى مسجلة تحت رقم ١٥١٦٩ ، مقاس : طول : ٢٦ سم ، قطر : ١٧ سم ، وهى علبة[١] من النحاس اسطوانية الشكل ، قاعها مقبب ، ولهاغطاء مخروطى مثبت على العلبة بمفصلة وقفل صغير ، وعلى الغطاء حليات مستطيلة بارزة بالطرق من الداخل ، وتكون شكل زهرة كبيرة تنبثق من أعلى الغطاء فيزخرف أوراقها على التبادل رسم زهرة لوتس يعاوها رنك كتابى يتوسطه عبارة « عز لمولانا السلطان » أو خطوط متعرجة ، ويزخرف الغطاء من أسفل شريط به كتابة نسخية نصها « عز لمولانا السلطان الملك الصالح / العامل المجاهد المرابط / المثاغر المنصور سلطان الاسلام والمسلمين قاتل / الكفرة والمشركين أبو الفقراء والمساكين عماد الدنيا والدين اسماعيل عز (أنصاره) » .

وعلى العلبة خمسة أشرطة زخرفية على الأوسط منهــا سطر كتابة بالخــط النسخى الكبير نصه « عز لمولانا السلطان / الملك الصالح عمــاد الدنيا والدين إسماعيل عز نصره » ويقطع هذا الشريط ثلاث دوائر مفصصة بها كتابات

(١) جاستون فييت Objets en Cuivre 1932 — كتاب معادن سنة ١٩٣٢ — رقم ٢١٩ ، ص ٢٠٩ ، قرأ النص الاوسط فقط ولم يقرأ بقية النصوص ولم يذكر أى وصف واكتفى بالاشارة إلى الاسم .

نسخية تتجه قوائمها نحو المركز ، نصها « عز لمولانا السلطان الملك الصالح العالم العامل المجاهد المرابط عماد الدنيا والدين إسماعيل » ، ويتوسط هذه الكتابة رنك كتابى به عبارة « عز لمولانا السلطان » .

وأعلى وأسفل هذا الشريط شريطان متماثلان بهما معينات تضم كل منها زهرة ذات أربعة أطراف ، ويقطع هذا الشريط ثلاث دوائر مفصصة تحتوى كل منها على رسم زهرة اللوتس ، أما الشريط العلوى والسفلى فضيقان ، وبهما كتابة نسخية نصها « عز لمولانا السلطان الملك ـ الصالح العــالم العامل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين منصف المظلومين من الظالمين ـ قاهر الخوارج والمتمردين » :

وعلى الشريط أسفل العلبة كتابة نصها : « سلطان العرب والعجم مالك رقاب الأمم سلطان البحرين حج الحرمين عمــاد الدنيا والدين إسماعيــل بن السلطان الشهيد الملك الناصر بن الملك ـ المنصور سيف الدين قلاون الصالحى ـ عــز أنصاره وضاعف اقتداره ونشر فى الخافقين أعلامه » .

ويكتنف هذين الشريطين دوائر بكل منهــا رنك كتابى يتوسطه « عز لمولانا السلطان » . والقاعدة يتوسطها دائرة خالية من الزخارف يحيط بها أشرطة متعرجة تكون معينات مختلفة الأشكال تضم على التبادل رسوماً لزهرة اللوتس أو أزهاراً مركبة أو خطوطاً متعرجة :

والتحفة الثانية التى تحمل اسم السلطان الصالح إسماعيل مسجلة تحت رقم ١٥١١٥ ، مقاس : ارتفاع ٢٢ سم ، قطر القاعدة : ٨ سم ، وهى قمقم من النحاس على بدنه خمسة أشرطة زخرفية ، الأوسط ـ أعرضها ، ـ عليه كتابة نسخية نصها « عز لمولانا السلطان ـ عماد الدنيا والدين إسماعيل » ، ويقطع الأشرطة الثلاثة الوســطى ثلاث دوائر ، تتوســط كلا منها دائرة بهــا رنك كتابى

بالذهب : « الملك الصالح » ، ويحيط بهـذه الدائرة كتابة دعائيـة نسخية ، نصها : « عز لمولانا السلطان الملك الصالح العالم عماد الدنيا والدين إسماعيل » ، وعلى الشريطين الثانى والثالث زخرفة نباتية يتخللها دوائر بها خطوط متعرجة بالذهب تكون شكل نجمة ذات ستة أطراف ، والشريط الأعلى به شكل عقود تضم فروعاً نباتية ، والشريط السادس به أفرع نباتية تنتهى بأشكال لوزية .

ويفخر متحف الفن الاسلامى بالقاهرة باقتنائه أربع قطع نسيج من الكتان مطرزة بخيوط الحرير :

الأولى رقم ١٤٥٢٩ ، مقـاس : طول ٤٦ سم ، عرض ١١سم ، ويظهر عليها شريط عريض مقسم إلى خمسـة أقسام ، من مستطيلات ومربعات ، وبالمستطيلات كتابة نسخية نصها : « عز لمولانا السلطان - الملك الناصر بن محمد بن مولانا - المنصور عز أنصاره » ، وهى مطرزة بطريقة غرزة السلسلة وغرز أخرى مثل الشلالة والنباتة :

والثانية كم من الكتان (لقباء) مسجلة تحت رقم ٢٤٢٤٦ ، عليه كتابة نسخية بخيوط الحرير نصها : « الملك الناصر ناصر - الدنيا والدين محمد بن مولانا المنصور عز نصره — عز لمولانا السلطان » ، وهى مطرزة بغرزة السلسلة وغرز النباتة والشلالة ، ومقسمة إلى مستطيلات ومربعات أيضاً مثل القطعة السابقة :

وكان هذا الشريط يزين طرف كم القباء « طراز زركش » ، وقد وجدت هذه القطعة فى حفائر مصلحة الآثار بمدينة أسوان سنة ١٩٦٥ :

والقطعة الثالثة مسجلة تحت رقم ١٣٧٣٦ وهى من الكتان ومطرزة بغرزة السلسلة والشلالة والنباتة ومقسمة إلى مستطيلات ومربعات وداخل المستطيلات كتابة نسخية « عز لمولانا السلطان - الملك الصالح عماداً » :

والقطعة الرابعة مسجلة تحت رقم ١٤٥١٤، وهى تعتبر فريدة فى نوعها ومنفذة بطريقة التنجيد والحشو . ومقسمة إلى ثلاثة أقسام، على اثنين منها كتابة نسخية باسم الملك الصالح (ناصر الدنيا والدين) .

وهاتان القطعتان الأخيرتان تحملان اسم الملك الصالح إسماعيل أحد ابناء الناصر محمد بن قلاون وتعتبران غاية فى الدقة .

وصف مصر عن كتاب السفرنامة لناصر خسرو

د. يحيى الخشاب

ملخص

وصف مصر عن كتاب السفرنامة لناصر خسرو

د . يحيى الخشاب

ملخص

من الضرورى أن نرجع إلى ديوان ناصر خسرو عندما نتحدث عن القاهرة بشأن علاقاتها بموضوع السفر. لقد كانت القاهرة منذ زمن بعيد العاصمة الحقيقية للعالم الاسلامى ، وكان الخليفة الفاطمى فى مصر هو الزعيم الدينى ، وكانت له منظمة من الطراز الأول لنشر المذهب الفاطمى بين الدول الإسلامية .وحتى قبل فتح مصر ، حاول الفاطميون أن ينشروا مذهبهم فى عدة دول .

فقد أوفد المهدى أول خليفة للفاطميين (٩٠٩ — ٩٣٣) ، المبعوثين من اليمن إلى مختلف الأقطار : إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب . وأرسل الأمام المهدى المدعو أبو عبد الله إلى اليمن حتى يلقنه أبو القاسم زادان فى الدعاية . وتعلم أبو عبد الله أفضل الوسائل لنشر الآراء الفاطمية ، ثم سافر إلى المغرب ، ليقوم بمهمة الدعاية وقد نجح فيها نجاحاً كبيراً[1] .

وقد قام مبعوثان من طرف الخليفة الفاطمى بدور لامع فى خراسان أثناء حكم نصر بن أحمد (٩١٣ — ٩٤٤) وهما : حسين المروازى والنخشبى . وهـذا

(١) افتتاح الدواء، نوعان . مخطوطة . مكتبة جامعة القاهرة ، القسم العربى، رقم ٢٤٠٨٨ .

الأخير نقل نشاطه إلى بخارى ، وانضم إليه عدد كبير من أصحاب المناصب الكبيرة . وأخيراً نجح فى أن يجذب نصر نفسه إلى حزبه ، وحثه ليدفع للخليفة الفاطمى القائم مبلغاً كبيراً من المال كفدية للمروازى الذى شنق فى أحد سجون بخارى . وبعد وفاة نصر ، قتل النخشبى ومعه جميع أعوان الأمير نصر .

وتحدث رشيد الدين[١] مرتين عن ناصر خسرو قائلا إن ناصر دعى مرتين إلى القاهرة خلال حكم المستنصر ، وحين تحدث عن حسن الصباح قال إنه وقع تحت تأثير ناصر خسرو وأمير دراب .

وحين تحدث ابن الأطهر[٢] عن الصباح قال عنه إنه وصل إلى القاهرة عام ١٠٨٦ حيث أسند اليه المستنصر مهمة القيام بالدعاية للمذهب الفاطمى النزارى فى خراسان وبلاد فارس . واتصل بجمعيات المبشرين للفاطمية فى راى ، ومن المحتمل أن الصباح كان قد تقابل مع ناصر خسرو الذى عاد إلى بلاد فارس عام ١٠٥٢ ، واستمر الصباح والطاهرتى فى القيام بالدعاية للفاطميين فى خراسان .

ومما سبق ذكره ، نرى أن المستنصر دعا ناصر إلى القاهرة حتى يضمه إلى المذهب الفاطمى وسلع لقب « الداعى » لهذا المذهب . وأخيراً حصل على لقب « حجّة » وهو أرفع لقب فى الدعوة .

ونظراً لموقع مصر فى وسط العالم الإسلامى ولمالها من ثروات ضخمة ، أصبحت بالنسبة للفاطمين مركزاً هاماً لنشر مبادئهم الدينية والسياسية فى نفس الوقت .

---

(١) صفحة ١٢٨٦أ ، ١٢٩٠أ .

(٢) ص ٤٤٨ ، الجزء ٩ ، ص ٢٣٧ ، ٣١٧ الجزء ١٠ .

ففى القاهرة قابل ناصر الامام المستنصر الذى منحه لقب « حجة » وذكر ناصر فى ديوانه بحماسة بالغة القسم الذى التزم به أمام الامام حتى يحتفظ بالصمت المطبق وحتى لايبوح بأى سر أئتمن علية، فأجابه الامام : « إننى سأقدم لك بالدليل كل مايرضى فضولك ، ولكن أرجوك الا تفشى شيئا لأى مخلوق حى .

وهكذا وبحضور شاهدين قدم لى هذا العلاج ضد الجهل ووضع خاتماً على شفتى حتى أحتفظ بالسر ، وعندئذ شفيت . ووضع يدى فى يد النبى حتى نتعاهد نحن الاثنين تحت الشجرة التى تحمل ثمرة المعرفة » .

ثم يشير ناصر، وهو خامل للجميل ، إلى ترقيته من منصب إلى آخر إلى أن وصل إلى رتبة « حجة » ، فهو يفتخر بوصوله إلى هذه المرتبة الرفيعة وأن يكون بين الاثنى عشر حجة الذين اختارهم الأمام . « هذا اللقب منحه لى أفضل الرجال . ولم يصل أحد من أسرتى إلى هذه المرتبة العالية . لقد كنت فى قاع بئر مطلى بالقار والآن أرتفعت إلى مستوى القمر ، ليست هناك مكانة أفضل من ذلك، أننى أعيش كالنخل المحمل بالبلح ، ففروعه تصل إلى السماء ، والشجرة ثمرتها الحكمة : لقد بلغت هذه الشجرة بعناء شديد حتى أذوق ثمارها » .

فاذا نظرنا إلى أسلوب « السفر نامة » بعد أن لقب ناصر «بالحجة » نجد أنه كان يدون الاحداث يوماً بيوم خلال رحلته عندما كان كل شئ حاضراً فى ذهنه ، وهناك عدة فقرات مكتوبة بدقة ، وهذا مانراه فى افتتاح الخليج فى القاهرة ، ووصف قصر الخليفة ومكة . وبعد عودته كان قد جمع مذكراته حيث دون « السفرنامة » . ولكن لم يشر إلى أن « الباحث » تحول إلى «مكتشف» (لقد قالت له شخصية فى حلم « من يبحث يكتشف» ولقد أكتشف « الحقيقة » فى القاهرة بفضل الامام المستنصر) :

على العموم فانه احتفظ بالاتجاه « السنى » أو على الاقل بمظهر لهذا الاتجاه : (كتاب « السفرنامة » ص ٢١ — ٢٥ — ٣٠ — ٣٦ — ٦١ — ٨٢ — ١٣٠) : ولكن من الواضح أن ناصر كان يحتل مكانة كبيرة خلال اقامته فى القاهرة : ويجب أن يشير إلى أنه لم يكن فى نيته أن يبقى لفترة طويلة ، ولكنه مكث حوالى ثلاثة أعوام (من ٤ أغسطس عام ١٠٤٧ إلى ٢ أغسطس عام ١٠٥٠):

وخلال إقامته كان له شرف مقابلة أمير المؤمنين ، وزار قصره ،واشترك مرتين فى البعثه الرسمية للحج إلى مكة ، فى الوقت الذى كان ذلك محظوراً على المصريين : وفى المرة الثانية دخل القاهرة وهو فى صحبة أمير مكة . وحين تحدث ناصر عن استتباب الأ من فى مصر قال إنه لم ير بلداً يتمتع بهدوء وأمن مثل القاهرة . فأصحاب الحرف فى مصر يأخذون المكافأة التى يستحقونها . ولذلك يقبلون على العمل فى سرور ، وهذا عكس مايدور فى دول أخرى حيث يفرض الحاكم والدوائر الرسمية السخرة على أصحاب الحرف . فالقاهرة يسود فيها الأمن والهدوء بدرجة كبيرة . إن البزازين والصرافين والجواهرجيه لايغلقون أبواب حوانيتهم ، أنهم يكتفون بفرد شبكة على بضائعهم ولايجرؤ أحد أن يسرق أى شئ .

ويتحدث عن مصر فيقول : « رأيت فى مصر ثروات طائلة ، فإننى أخشى إذا أشرت اليها الا يصدقنى أهل فارس ، ومن المتعذر علىّ أن أحصيها وأقدرها » (السفرنامه ص ٧٧) :

فى ظل حكم المستنصر لم يضطهد اليهود أو المسيحيون كما كانت الحال فى بلاد أخرى . فالاتجاه السياسى والادارى فى مصر ، رغم المظهر الدينى ، لم يمنع المسيحيين واليهود من أن يشتركوا فى الحياة الإجتماعية والاقتصادية : وهناك أثرياء عديدون من المسيحيين واليهود . ويروى ناصر قصتين تشيران

إلى السعادة التى كان يتمتع بها أهل الكتاب فى القاهرة (« سفر نامة » ص٧٧ — ٧٨ — ٨٠) .

وحين تحدث عن المستنصر أمير المؤمنين كان يقـــول « على العموم لم يتهم السلطان بأى عمل فيه ظلم وإجحاف » :

وهكذا يعطينا ناصر صورة رائعة عن عظمة القاهرة ، ولكن فى الوقت نفسه يشير إلى الدول الأخرى التى يحكمها السلاجقة الظالمون المتعصبون وهو مايشير اليه كتاب « سياسة نامه » والمصادر الإسلامية الأخرى .

وعندما كان ناصر يعظم من شأن القاهرة بهذه الدرجة كان يهدف إلى كسب الرأى العام فى فارس التى كان يحكمها السلاجقة الذين كانوا من أهل السـنة :

ومما لاشك فيه أن ناصر عندما دون كتابه لم يكن متشيعا للفاطمين مع أنه اعتنق مذهبهم فنراه يقول « أننى أروى بأمانه مارأيتـــه بنفسى . فاذا كان القارئ يجد بعضاً من الأخطاء ومن عدم الدقة فيما أورد من قصص رويت لى فأرجوهم ألاّ ينسبوه إلى ، وألّا يلومونى ، وألاّ يوجهوا لى أى نقد فى هـــذا الموضوع :

لقد لاحظ شيفر أن عظمة القاهرة قد اثرت فى رحالة العصور الوسطى والقرن الخامس عشر والسادس عشر الذين زاروا العاصمة ، وجيهان تينو ، الذى صاحب اندرية لوروا ، مبعوث لويس الثانى عشر إلى السلطان « الغورى » ، يعتبر أحسن الكتاب ، وقد كتب وصفاً مفصلا عن القاهرة : « ففى المنطقة المسماه بولاق حضر لنا أمير للبحر مرسل من قبل السلطان ، وكان معه بعض المماليك الذين يقودون عدداً من الخيل والحمير ليوصلونا إلى المسكن الذى كان

خصصه لنا السلطان والذى كان قد شيده أحد كاتمى السر ، على فرع من النيل ، وكان بالقصر حوالى ست أو سبع قاعات جميلة ، أرضيتها من الرخام والمرمر والرخام المعروق وأنواع أخرى من الأحجار القيمة وكلها مرصوفة بفن رائع فريد ، وكانت الحوائط مكفته بنفس الاحجار ومنقوشة بالذهب ، واللازورد وألوان غنية (كتاب شيفر أحاديث عن رحلات ناصر خسرو ، صفحة ١٣٣) .

علمـــــاء

اشتركوا فى الندوة

جناب السفير الطيب حسين

السفير بوزارة الخارجية الباكستانية .

الدكتور أحمد مختار العبادى

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية .

الدكتور حسن حبشى

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

الأستاذ خوجه غلام سيدين

وزير التربية سابقاً بحكومة الهند .

الأستاذ زكى المهندس

نائب رئيس مجمع اللغة العربية .

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

رئيس قسم التاريخ وأستاذ الحضارة الإسلامية – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية .

الدكتورة سهير القلماوى

رئيسة مجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

فضيلة الأستاذ عبد الرحمن تاج

شيخ الجامع الأزهر – سابقاً .

الدكتور عبد العزيز الأهوانى

رئيس مجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة لفنون المسرح والموسيقى .

الأستاذ محمود المسعدى

وزير التربية (سابقاً) – تونس .

الأمانة العــامة

للنـــدوة

الدكتور مجدى وهبه	وكيل الوزارة للعلاقات الثقافية الخارجية
أحمــد محمــد بحيرى	مدير الشئون العامة ـ العلاقات الثقافية الخارجية
ايفين محمد هاشم	معيدة بكلية آداب ـ جامعة عين شمس
نادية محمــود يونس	الجامعة الأمريكية بالقاهرة
انــدريه قصــبجى	أمينة المكتبة القانونية بالسفارة الفرنسية بالقاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٦٢ لسنة ١٩٧٢

(مطبعة دار الكتب ٨٤/١٩٧١/٢٠٠٠)




Bibliotheca Alexandrina
0654491